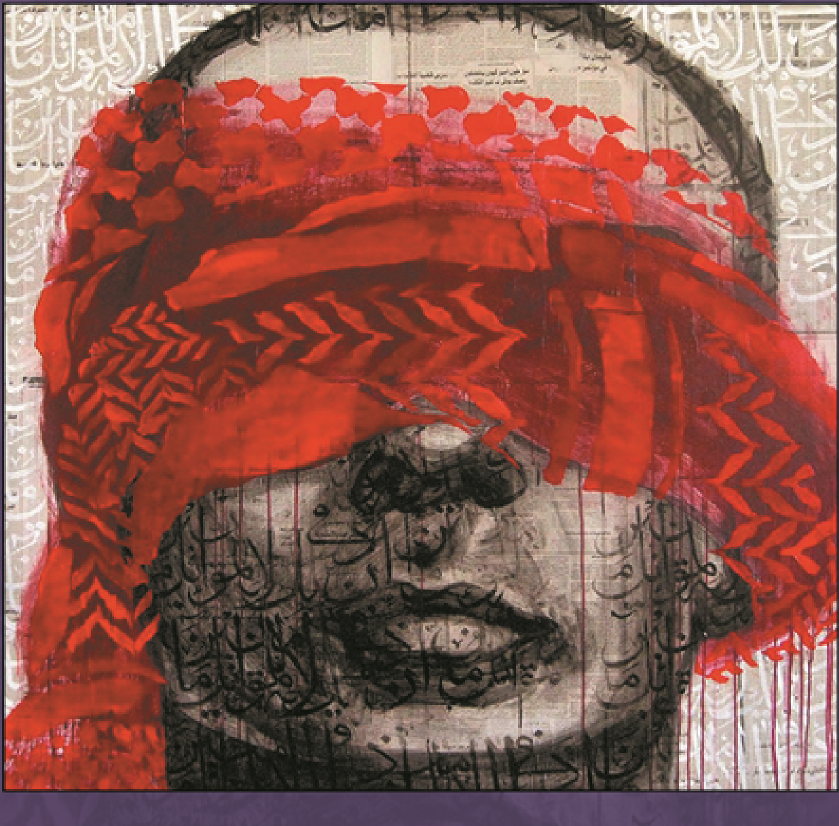
رواية
٢٠٢١

تموز سعدوني



عندما تغيب الشمس شرقًا

دار الحكمة
لندن

عندما تغيب الشمس شرقًا

رواية

تموز سعدوني

دار الحكمة
للنشر والتوزيع

رواية

عندما تغيب الشمس شرقًا

تأليف

تموز سعدوني

الطبعة: الأولى ٢٠٢١ م

الناشر: دار الحكمة - لندن

لوحة الغلاف للفنان العراقي إياد القاضي «أنا بغداد XI»

Cover art: “I am Baghdad XI” by Ayad Alkadhi (www.aalkadhi.com)

الإخراج الفني: مجدى عزالدين

ISBN NO: 978-1-78481-216-4

9 781784 812164 >

DAR ALHIKMA
Publishing and Distribution

دار الحكمة
للنشر والتوزيع

88 Chalton Street, London NW1 1HJ   Tel.: +44 (0) 20 7383 4037
E-Mail: hikma_uk@yahoo.co.uk   Website: www.hikma.co.uk

رواية

٢٠٢١

عندما تغيب الشمس شرقًا

تموز سعدوني

١

في زمن لا يُعرفُ من عقارب الساعة، ومكان لا يوجد على خريطة مرسومة، تمتد صحراء تنشر جناحها على امتداد الأفق، توجد على حافتها، مدينة وحيدة لا يحكمها رب أو كوكب، بل ملك. حكمت العائلة الملكية لسنوات عديدة حتى اعتاد الناس على وجوه أفرادها الموجودة في صفحات الكتب وصورهم المعلقة وتماثيلهم المنصوبة في كل مكان. تُوِّج الملك الحاكم منذ عقد واحد، بعد وفاة والده الملك الأب بحفل امتلأت خلال أيامه الشوارع بالفقراء من عامة الناس وهم يغنون ويبايعون الملك بدمائهم وما تبقى من أعمارهم التي أكلها المرض والجوع.

يُذكر أسم الملك عند كل شيء حسنٌ يطرأ على المدينة وسكانها، فعندما تمطر السماء وترتوي شرايين الأرض ويأكل الناس يُحمد الملك مع كل مضغة طعام. كرست المدارس معظم طاقاتها في زرع حب الملك في قلوب الطلاب وإذا وجد المعلم خللا في ولاء أحد التلاميذ في هذا الخصوص، يطلب المدير قدوم ولي الأمر وحينها سوف يدفع التلميذ الثمن.

تنتشر أشجار النخيل في معظم أنحاء المدينة، ويعتمد الفقراء من سكان المدينة على ثمارها. يُصنع منه أصناما لأفراد العائلة الملكية صباحا كي تُأكل مساءً. وزعت إعلانات في الشوارع العارية تحث الناس على العمل والاجتهاد. يتوسط كل إعلان، على الدوام، صورة ملكية يبتسم أفرادها باتجاه المجهول. تحكم المدينة بقوانين يصدرها الملك الأب وتفرض من قبل الشرطة. تسمى هذه القوانين بالقوانين الذهبية وتعلم في المدارس منذ

الصغر. نشرت القوانين في كتاب ذي غلاف أبيض موجود في كل بيت، وفقا للشائعات التي تدور على ألسنة الناس فأن هذه القوانين كانت تنزل من إله الشمس على الملك الأب.

إن كان هنالك أشخاص يكرهون العائلة الملكية وحكمها فهم أفراد الطبقة الفقيرة التي لا تجد عملا أو وظيفة ترتزق منها ومع ذلك تدفع الضريبة الشهرية، إذ تخلو الأحياء الشعبية والمقاهي التي يستوطنها الكتاب والشعراء من أية صورة للعائلة المالكة، وتمت إزالة التماثيل بعد أعمال التخريب الأخيرة. لذلك لا يكرس الملك وقته أو ماله لهذه الأحياء، شوارعها محفورة تركد فيها المياه الآسنة وتتراكم على أرصفتها أكياس القمامة، وتجري في شوارعها الكلاب والقطط السائبة، وتملؤها رائحة المجاري التي توقفت عن العمل منذ العقد السابق.

تُبثُّ القوانين من خلال مكبرات الصوت من القصر الملكي ثلاث مرات يوميا، صباحا مع بداية المدرسة، ظهرا مع عودة التلاميذ ومساءً مع وقت العشاء. ومنذ تولي الملك الحالي العرش تكاثر الرعب في المدينة، وسيطر عليها بقبضة حديدية، تحوم الذئاب طوال الليل باحثة عن عناصر معارضة للنظام، سواء أكان ذلك إنسانا أو حيوانا.

ازدادت القوانين ضراوة لكبح الرأي العام المعارض للعائلة، فسيطر الملك على وسائل الإعلام من الصحف والمجلات إلى التلفاز والمذياع. يقع القصر الملكي في شمال المدينة حيث يكون مرتفعا قليلا عن بقية أشلاء المدينة مما يساعد على دخول تيار هواء بارد يرطب من قسوة حرارة الصحراء. كان القصر مقر الإقامة الرسمي، صمم من قبل مهندس معماري هرب بعد الحرب الأهلية وتمرد الغوغاء الذين استقروا في جنوب المدينة.

يتكون القصر الملكي من ثلاثة طوابق وينتصب شامخا بارتفاع تسعين قدم، يحاط الطابق الأرضي ببساتين من النخيل يؤكل بلحها في غرفة استقبال الضيوف،

وثمة متاجر ومدرسة تابعة للقصر، وهنالك ينبوع ماء يستخدم للشرب والطبخ. تحول الطابق الأرضي إلى بوابة للتواصل مع الناس، إذ توجد فيه دوائر حكومية تعمل على تطوير وإنجاح الأفكار الملكية ومساعدة الفقراء.

خُصصت غرف الطابق الثاني لاستقبال ضيوف المدينة المهمين من دبلوماسيين سياسيين وشعراء وكتاب وأغنياء ممن يقدمون من المدن المجاورة. يبقى هذا الطابق أقل الطوابق استخداما بسب تدهور علاقة المدينة مع بقية المدن في المدة الأخيرة، فتقلص عدد الضيوف ولم يبق شاعر يصدح بلسانه أو كاتب يصفق بقلمه.

خصص الطابق الثالث للأسرة الحاكمة فقط وهنا يقضي الملك سرجون معظم وقته مع عائلته. يوجد مطبخ خاص بهم فلا يختلط عمال الطابق الثالث مع بقية الخدم، وثمة غرفة خاصة للملك يستقبل فيها ضيوفا يحبون التجارة بأجسادهم من سياسيين وجواري. يرتكز القصر على ثلاثة أبراج ضخمة تعلق عليها مكبرات للصوت تروج القوانين التي تتم كتابتها في الطابق الملكي.

يحبذ الملك فتح نوافذ غرفة نومه لتزحف الرياح من خلالها فتبرد من درجة حرارة الغرفة، ويحب الملك النوم بعد الغذاء وهي فترة يسميها باستراحة الظهيرة. يخيم الهدوء على الطابق الثالث ويتحرك جيش من المنظفين والطباخين استعدادا للمساء، عندها تأمر الملكة بطرقة إصبع فتمد طاولات الطعام ويزين القصر بزهور الموسم. يقرأ سكان المدينة عن هذه الاحتفالات في الصحف اليومية.

أستيقظ الملك والعرق مرسوم على جبينه بحبات شفافة، لاهثا يشعر بالغرق. بحث عن زوجته لتواسيه فلم يجدها بجواره. فزع أكثر ورفع صوته ليناديها فلم تجبه، رجع لينام ومد جسده كوتر آلة موسيقية، وأحتضن مخدته ورجع إلى أحلامه التي نخرتها كوابيس زرعت وترعرعت في ذهنه منذ لحظة استلامه العرش.

يحلم الملك نفس الكابوس عند المنام، اعتدل تنفسه وغاص في محيط أحلامه. وجد الملك نفسه ينزل درجا عريضا، لونت كل درجة باللون الأحمر الغامق. كان حذرا بطبيعته فأمسك الدربزين ونزل ببطء. وضع قدميه سويا بجانب بعضهما كي يتأكد من تحمل السلم لوزنه الثقيل. أستند بيده اليمنى على حائط وردي اللون ليوازن نفسه ولكنه أشمئز من لزوجة ملمسه وهو يتفسخ بين أنامله وتنبعث منه رائحة كريهة.

خطوة تلو الأخرى وجد نفسه في نهاية سلم يطل على قاعة كبيرة تنتهي ببوابتين. توجد أريكتان متلامستان وثمة طاولات وكراسي منتشرة حول القاعة. تستقر شمعة تشتعل ببطء على كل طاولة وهنالك أيضا مطفأة سجائر تملأها عقب سجائر مطوية يطليها الرماد المتبعثر. توجد اكسسوارات للتجميل من مكياج وأقلام لتلوين الشفاه مع معاطف طويلة انسدلت على الكراسي الفارغة بلا مبالاة. نظر الملك إلى الأعلى فوجد ثريا هائلة الحجم تترنح من السقف، أعجب بجمالها وانعكاس ألوان الطيف بين البلورات. انتبه لانعكاس اللون الأحمر والبرتقالي بين البلورات فحدق إلى الأسفل ليجد سجادة تمتد حتى البابين رُسم عليها شكل سداسي لوّن داخله بالأحمر وحدوده عريضة سوداء، ثم أحيط الشكل السداسي بشكل سداسي أخر، لون ما بينهما باللون البرتقالي ولونت حدوده العريضة بالأسود.

أحس بالغثيان فرفع نظره إلى الأعلى وتساءل أين ذهب الأخرون، اتجه نحو إحدى البوابات متبعا الأشكال السداسية واحدة بعد الأخرى. وصل إلى الباب حيث علقت لافتة نحاسية كتب عليها «التزموا الصمت رجاء». وضع يده على مقبض الباب الذهبي وفتحه قليلا. نظر، ولكن الظلام أبتلع المكان، فتح الباب على مصراعيه ودخل تاركا خلفه شموعا تهتز ذبالتها مع تيار الهواء.

امتلأت الصالة بالمقاعد وثمة منصة في مقدمتها، بينما تمتد صفوف من المقاعد الفارغة على مدى البصر. وضع يده على أقرب كرسي ونزل باتجاه المسرح. اعتاد نظره على الظلام فأستطاع تمييز ما بين الظلال وسحر الخيال.

تحرك سطرا بعد سطر كأنه ينزل على صفحة كراسة فارغة عطشى تود أن تُسقى بحبر من قلم. نظر إلى المسرح الفارغ لكن نظره خذله فلم يتأكد من التفاصيل، ولكنه رأى ظل شخص واقف صامت.

اقترب من منصة المسرح وجلس على أحد الكراسي الموازية للمنصة، أضيئ المسرح ببقعة ضوء سقطت على أرضية المسرح مما جعل المنصة تغرق في الظلام كما تغرق قطعة من الرغيف في دبس التمر. نظر الملك فوجد امرأة تجلس على ركبتها اليمنى محتضنة طفلا رضيعا. اكتست المرأة بقطعة قماش سماوية اللون زرعت فيها خطوط حمر تشبه حقول الورد في ربيع دافئ، وثمة قلادة فيروزية وأساور نحاسية تحتضن ذراعها الأيمن، وتدلى ثديها الأيمن عاريا خارج ملابسها التقليدية. غض الملك النظر بسرعة واحمرت وجنتاه خجلا.

يغطي شعرها شال بلون تناسب مع بقية ملابسها وغطى الطفل الذي كانت تحتضنه بشدة. كان الطفل عاريا نائما امتلأت أحشائه من ثدي امه. وضعت خلفية مسرحية وراء الممثلة ورسم عليها قصب كثيف، اخضر اللون مع أوراق صفراء تتلاءم مع غروب الشمس المرسوم بفرشة خالق. بدأت ملامحها مألوفة للملك فلقد رآها سابقا، ولكنه لم يلمح الطفل النائم سابقا.

وضعت سلة متوسطة الحجم على الأرض أمامها، مصنوعة من القصب الأصفر حُشِر فراش صغير في وسطها. قبلت الطفل من جبينه ووضعته في مهده ثم دفعت السلة رويدا ولوحت بيدها مودعة المولود. انتبه الملك لتوقف تنفسه وشعر بضيق في صدره فأخذ شهيقا عميقا ومعه نزلت ستارة حمراء من الأعلى لتغطي المسرح بالكامل. نظر يمينا وشمالا واكتسحه الشعور بالغربة كماء يتسرب في قارب غارق، وفي اللحظة التي قرر فيها ترك المسرح رُفعت الستارة مجددا وأصبحت المنصة خالية.

عدل الملك من جلسته ووضع يده في حضنه، ومضت بقعة الضوء ثلاث مرات ودخلت المرأة لمرة ثانية، ولكنها كانت عارية تماما. وقفت أمامه

واستدارت إلى الوراء، نظر إليها وانتبه لوجود بقعة طفيفة من الطفح الجلدي، بقعة حمراء تقع على كأهلها الأيسر. التوت بجذعها كسمكة تبحث عن ذرة هواء وحاولت حكها بأظافرها، ولكنها فشلت في إصابة البقعة. أشر الملك بأصبعه إلى المكان الصحيح فإجابته بابتسامة شاردة وعادت تحك الطفح من جديد. استطاعت خدشه تاركةٌ خدشا طفيفا يشبه خدش مخلب قطة أو منقار عصفور، نظرت المرأة إلى أظافرها تبحث عن شيء ما ثم رجعت تحك نفس البقعة بقوة. سال خط احمر من الدم على طوال ظهرها كنهر يذبل عند خصرها. حكت وقشرت ما تبقى من الجلد المدبب الذي أصبح طريا بالدماء مما دفع الملك لأن يتوسل بها كي تتوقف، لكنها ازدادت حكا.

ازداد تساقط القشور على الأرض وسالت الدماء على جذعها وأنشق جلدها بالنصف على طول ظهرها، كاشفا عن جلد وردي ناصع اللون. تربعت المرأة على الأرض وغطت على ثدييها بذراعها الأيسر وحكت جسدها كله من القدمين إلى عنقها مارة ببطنها. تدفق الرعب في شرايين الملك مع تناثر القشور على الأرض، وأنتبه إلى العرق الذي غمر يديه فمسحهما على مسند المقعد. انتبه لرطوبة مقززة ترتطم على شاطئ بحر روحه فنظر إلى المقعد بمساعدة بقعة من ضوء وارتعش قلبه من الخوف.

أنسحب اللون من وجهه كجزر البحر، وشعر بالغثيان، لمحته المرأة للحظة، ولكنها استمرت بالتقشير، نظر الملك جانبا والفزع ينخر عينيه إذ كانت كل المقاعد مصنوعة من لحوم بشرية فرزت وجمعت لتكون أثاث المسرح.

امتدت رائحة مقززة على طول المسرح محتلة كل من كان في طريقها، امر الملك المرأة بالتوقف وقال لها: «أرجوك توقفي» لكن المرأة نزعت جلدها القديم عن كتفها كمعطف تزحلق ليكشف عن بشرة وردية عذراء. وقفت بضعف وارتعشت ساقيها وسقط ما تبقى من قشور قديمة على الأرض تشبه بيوت النمل الرملية. رفع الملك يديه وناداها «توقفي» نظرت إليه بسرعة

والتقطت جلدها القديم كجلد الثعبان وقدمته كهدية لكن الستارة نزلت لتغطي المسرح.

قال الملك لنفسه «يا إلهي أين أنا؟» وترك الصف الأول من المقاعد متجها صوب بوابة الخروج تاركا المسرح خلفه. أطفئت بقع الضوء، وساد الظلام في أرجائه، أسرع الملك بخطاه ووصل إلى الباب المغلق. دفع الباب بعجلة لكنه كان محكما. ازدادت الرائحة العفنة شدة وأصبح تفاديها صعبا، مسح الملك العرق عن جبينه الأصفر ووضع يده على الباب ليوازن نفسه. تجنب الغثيان واستند على جانبه وحينها بدأت سماعات القاعة بإذاعة أصوات غريبة. صدى الكلمات تبدو بعيدة لا يسمع منها غير دبيب، جُمل ترتطم على مسمع الملك كأنها قادمة من أعماق البحر لمعجم الكلمات.

- «انهض» دوى صوت أنثوي في أرجاء القاعة.

رفع الملك رأسه باحثا عن مصدر الصوت الذي كان مميزا أنثوي الملمس ملفوفا بورق من حرير.

- «انهض يا مولاي.»

نظر ليديه اللتين أصبحتا لزجتين ملطختين بالدماء بعد أن امسك الباب. اهتزت القاعة كأنها ورقة شجرة على سطح بحيرة عصفت بها الريح فتحركت الستارة الحمراء وارتجفت المقاعد اللحمية باعثة عويلا مخيفا. دفع الملك بقوة واراب الباب فرأى الثريا تهتز من جانب لآخر، وترك البلور ألوانا متراقصة تنعكس على الطاولات والجدران. بدأ طلاء سقف القاعة بالتقصف عشوائيا وأمتد شرخ على طوال السقف كتربة عطشانة لم تر الماء منذ عقود. سقط الطلاء بخفة حبات الثلج متطايرا مرتجفا مغطيا المقاعد اللحمية بنقاط بيضاء متكسرة تشبه قشر البيض.

- «انهض» دوى الصوت في كل مكان واهتزت القاعة بشدة.

رجع الملك إلى الوراء وركض باتجاه الباب بعجلة ودفعه بقوة كتفه وفي لحظة تماس جسده بالباب وجد نفسه في فراشه وزوجته بجواره. وضعت يدها الباردة البيضاء على خده الأيسر الذي بلله العرق. وجد نفسه في بركة من العرق، تائهًا في صحراء عقله، نظر إلى يديه فكانتا كما عرفهما طوال حياته، سمينة لحمية بأصابع عريضة قصيرة.

- «هيا أنهض» قالت زوجته بضيق صدر.
- «الحمد لرب الشمس أنكِ هنا، لقد عاد نفس الكابوس.»
- «لقد نمت لمدة طويلة وعلينا الاستعداد لعيد الميلاد.»

نهضت من الفراش واتجهت نحو المرآة المعلقة على الحائط المقابل للفراش. مشطت شعرها وتمعنت بجمالها. نظرت لانعكاس الملك في المرآة وقالت:

- «هل تريدني أن اجلب لك الطبيب النفسي مرة أخرى؟»
- «لا داعي» رد عليها بعصبية وأخرج ساقيه من الفراش باحثا عن نعليه.
- « أين أمنية؟» نهض من الفراش واتجه نحو الملكة فأحتضنها وقبلها من رأسها.
- «أنها تمارس الفروسية مع حصانها المفضل» ولم ترفع نظرها عن المرآة.
- رد الملك «ممتاز.»

◆◆◆

ترك الشاب مكان عمله واتجه إلى بيته كعادته ظهيرة كل يوم، يحب تناول الغذاء مع جدته التي ترعرع على يديها منذ الصغر. أحب مفاجأتها اليوم فاشترى بطيخة من بقال عجوز يقبع على مسافة قريبة من عمله. حملها تحت إبطه المتعرق، وسلك نفس الطريق المتعرج الذي يأخذه كل يوم، يعرف مكان كل صخرة وكل حفرة في الأرض. كان الشاب في منتصف عقده الثالث، طويلا يافعا، شعره قصير أسود اللون، يحب ارتداء القمصان ذات الأكمام الطويلة، شكله غريب بسبب طول ذراعيه قياسا لجذعه. كان شخصا انطوائيا يحني رأسه إلى الأمام حين يسير بسبب تحدب ظهره.

ازداد ثقل البطيخة على ذراعه فحولها إلى إبطه الأخر، غزت حبات العرق جبينه فمسحها بكم قميصه. تذكر جدته التي ألحت عليه كي يرتدي ملابس تلائم مناخ المدينة، واشترت له قميصا ذا أكمام قصيرة حين تخرج من الجامعة. مر من جانب ملعب لكرة القدم على يساره وأنتبه لوجود مجموعة أشخاص من وزارة الشرطة محاطين بالمارة. فقد الملعب عشبه الأخضر، ولم يبق غير تراب مخطط بالأبيض. تفادى الشرطة وعبر الشارع إلى الجهة المقابلة التي ملأت بمحلات التصقت جدرانها كأحجار الدومينو فلا يستطيع الغريب التمييز بين بدايتها ونهايتها. مر الشاب أمام الدكاكين المرتبة حسب ما تبيع، فثمة صاغة ذهب ثم فرن يوفر الخبز والتمر لأهل المحلة. أسقطت واجهات المحلات ظلا باردا يعكس على الرصيف كهامش في كتاب قذر، استخدمه الشاب ليحتمي من أشعة الشمس.

سمع تصفيقا وتهاليل خارجة من الملعب، التفت لكنه لم ير غير لافتة إعلان للعائلة الملكية. كان مرسوما عليها عمالا مبتسمين مرتدين خوذات برتقالية وبدلات عمل زرق ملطخة ببقع من الزيت يحملون معدات يدوية مختلفة. تحت الرسم خطت حكمة بخط أحمر تقول «الحركة بركة». اعتاد الشاب على رؤية هذه اللافتة التي كانت بجوار الملعب منذ أكثر من عشر سنين، كساها الغبار وبهتت ألوانها من وهج الشمس وحرارتها.

تعود الشاب أن يكلم نفسه كلما مر من جانب هذا المكان قائلا «على ماذا تبتسمون يا جهلة؟» وحرك البطيخة إلى جانبه الأخر. تمشى بين المحلات واختلطت روائح الطعام والفاكهة مع روائح الزيت والأزبال. تجنب برك المياه السوداء واستطاع رؤية تمثال منتصب في الميدان الشعبي. تعود سكان المدينة على وجود النصب الذي رسخ في مكانه على مدى عقود منذ أن شيده الملك الأب تذكارا للحروب التي خاضها وانتصر فيها على المدن المجاورة.

انتهت المحلات ولم يبق غير طرق ترابية ملتوية تستدير باتجاه الميدان. غطى الغبار حذاء الشاب، وتركزت عيناه على النصب الذي لم تشبع روحه منه. حذرته جدته حين كان غلاما بعدم القدوم إلى الميدان واللعب مع أصدقائه هناك، إذ كان النصب مراقبا من قبل الشرطة وكانت ساحة الميدان تنظف يوميا من النفايات التي تُرمى من قبل العامة.

بهتت ألوان النصب بفعل الغبار مع مرور الزمن ولم يعد بالإمكان تمييز ألوانه الأصلية، صُنع النصب من السيراميك الذي تآكل من مختلف الزوايا وأصبح لونه أصفر ترابي. ترك النصب شعورا بالحنين إلى الماضي في نفس كل من عاصره. تجمعت حبيبات العرق على جبينه وانعكست عليها أشعة الشمس الحارقة. امتص العرق الغبار المتصاعد من الطريق وشعر الشاب بفوران في رأسه، مسح ما تبقى من عرق بكم قميصه الطويل.

وقف أمام التمثال الذي أنتصب في منتصف الميدان، جسدا لمحارب جريح بائس ورأسا لحصان خاشع. جلس المحارب على جذع شجرة مقطوعة يلتقط أنفاسه الأخيرة. طُعن المحارب برماح من مختلف الزوايا، رماح طويلة، وقصيرة، مكسورة الأطراف تاركة نهايات مدببة ثاقبة. كان التمثال مبتور الذراع ورأس الحصان مستند على صدره.

تعود الشاب على عد الرماح كلما مر من جانب التمثال، فعدها اليوم ووجدها ثمانية رماح تخترق الجسد. ابتسم ابتسامة خفيفة حينما تعادل عدد الرماح مع عدد مساء أمس. تحيط التمثال دائرة كبيرة من الرخام الذي تكسر مع مرور الوقت واندثر بفعل طقس المدينة. انتصبت شارة بجانب التمثال غمرها الغبار والتراب فلم يستطيع قراءتها، ولكنه علم جيدا أنها إحدى الشعارات الملكية.

شرحت له جدته حين كان صبيا أن الرخام كان جزءا من نافورة تحيط التمثال، وكانت النافورة تشغل أيام احتفالات النصر، سمي الميدان بميدان الوحدة بسبب شعار «الاتحاد قوة» الذي نحت على إحدى الإشارات المنتصبة بجوار التمثال. سبح أطفال المحلة المجاورة فيها ليبردوا أجسادهم وحين يشعرون بخطر الشرطة يتراكضون ويختبؤون في بيوتهم تاركين خلفهم بصمات مبللة لأقدام بريئة. لم يتذكر الشاب أخر مرة رأى المياه تجري في هذه النافورة اليتيمة.

ترك الميدان خلفه واتجه نحو داره التي تقبع في منطقة شعبية شيدت من بيوت طينية محاطة بسوق بسيط، يجلس الباعة على الأرض العارية عارضين سلعتهم على بساط أمامهم. يبعدون الذباب عن الخضار والفاكهة بأيديهم أو بجريدة عتيقة. تستخدم الصحيفة بعد القراءة في أشياء كثيرة مثل لف الصمون والخبز الحار أو أن تمزق وترمى على المنقلة لإشعال الجمر عند بائع اللحم المتجول، كما يستخدمها الطلاب لتغليف دفاترهم المدرسية أو كمضرب لقتل الذباب والبعوض والزواحف.

رأى بعض الأطفال يلعبون كرة قدم بجوارب ملفوفة لتشبه كرة يركلونها من جهة إلى أخرى، ينادون على بعضهم البعض مبتسمين، يتعانقون حين يسجل أحدهم هدفا من بين حجرين فرقا على مدى ستة أقدام. نظر إليهم الشاب وقال لنفسه «على ماذا تبتسمون يا جهلة؟»

أصبح قريبا من بيته فاستطاع رؤية حديقته الأمامية التي أحيطت بسياج خشبي اخضر اللون. وزعت الأخشاب بطريقة أفقية تاركة خطوطا مفتوحة متوسطة العرض. استطاع المارة رؤية باطن الحديقة ومن فيها من خارج السياج. لمح كلبا اسودا يتجول بين البيوت باحثا عن ظل ليصادقه وطعام ليأكله. برزت أسنانه الناصعة ولسانه الوردي اللاهث. تحاشى الشاب الكلب برشاقة واستطاع رؤية جسد يتحرك ببطء في حديقة بيته، أنحنى الجسد نحو الأرض مرتكزا على أطرافه الأربعة باحثا عن شيء ما.

لف الجسد بملابس تقليدية سوداء من الرأس إلى القدم، غطى الرأس بحجاب اسود، لمع الحرير الأسود متراقصا مع الشمس التي أشاعت الدفء في عظام الجسد المتحدب. وصل الشاب إلى بيته الأخضر، أخرج المفتاح والبطيخة من تحت إبطه. استغرب حين وجد باب البيت موارَبا. كان واثقا من غلقه صباح اليوم قبل الذهاب إلى العمل.

أرتبك ودخل إلى البيت بتمهل متوقعا شيئا مجهولا، أغلق الباب خلفه بلا اكتراث، نظر إلى صالة الجلوس التي كانت كما تركها مساء أمس. كتبٌ تناثرت في كل مكان، صينية شاي نحاسية عليها قدحان فارغان وما تبقى من جبن ونعناع ذابل ونوى زيتون جافة. اتجه إلى المطبخ مارا بصالة الجلوس ووضع البطيخة على طاولة قديمة قريبة من الطباخ. فتح باب الثلاجة وانتعش بتيار الهواء البارد الذي هجم على وجهه وامتدت ابتسامة ما بين شفتيه الرفيعتين. نبح الكلب عدة مرات وتدحرجت البطيخة ببطء نحو حافة الطاولة.

وجد للبطيخة مكانا في الثلاجة بعد تحريك بعض حاويات الطعام التي تستخدم للتخزين، وترك باب الثلاجة مفتوحا، نظر نحو الطاولة وفوجئ بالتدحرج السريع لحبة الفاكهة الخضراء المدورة. حاول أن يوقف الأمر لكنه ارتطم بباب الثلاجة أولا ثم تعثر بنعاله ثانيا، وقع على الأرض لاعنا حظه ونجوم السماء. نهض ونظف ملابسه التي تلطخت بعصير البطيخ المتطاير،

تحرك بخطوات عنيفة نحو باب داخلي يؤدي إلى الحديقة الخارجية وترك بقايا البطيخة المتناثرة خلفه. فتح الباب مصدرا صريرا قويا وخرج إلى الخارج، وجد جدته في الحديقة تزحف كطفل رضيع على أربعة أطراف محاطة بحفر عشوائية. تلطخت ملابسها السوداء بتربة داكنة اللون حول ركبتيها ونزل الشال كحبل التف حول عنقها. استدارت على وقع الأقدام ولمعت عيناها كعيني حيوان مفترس ينتظر ضحيته.

- «لقد وصلت أخيرا يا ربيع» ورجعت تحفر الأرض بمجرفة صغيرة.
- «ماذا تفعلين يا جدتي؟» سأل ربيع باستغراب.
- «إنني أبحث عن شيء قد دفنته في الحديقة» أجابت من غير أن تستدير أو تتوقف عن الحفر.
- «عماذا تبحثين إذن؟» تناسل فضوله وأقترب منها فأصبح على بعد خطوتين منها وغطاها بظله.
- «لا أعلم.»
- « ألا تتذكرين ماذا دفنتِ؟»
- «كلا» استدارت ونظرت إليه بحنان دافئ.

تنبه إلى احمرار وجنتيها المتهدلتين من قُبلات الشمس والخطوط المتموجة حول العينين وظهرت تضاريس لوجه ذاق حلو الدنيا ومرها. لا ترى وجها مثل وجهها هذه الأيام، فهي من جيل انقرض وعالم اندثر. لن تر وجوهًا زينت ذقونها بإبر وحبر اخضر، صمم وشما عائليا يدل على أهلها وزمنها. ولن تر أساور ذهب ترقص على حركة جسد بعفوية تنبض مع دقات قلبها.

نبح الكلب مرة أخرى فأخرج ربيع من الغرق في مخيلته وشتم الكلب بعنف. وقفت جدته مستندة على ذراعه وقالت له:

- «لا تهتم للكلب يا ابني، لقد نبح طوال اليوم.»
- «وعلى ماذا ينبح؟ هل لديه عمل أو مسؤولية؟»

غطى على عينيه بيده اليمنى ليحجب الضوء المبهر ثم أكمل:

- «وهل حمل بطيخة لمدة طويلة تحت هذه الشمس الحارقة؟»
- «عن أي بطيخة تتكلم يا ربيع؟» ضغطت على ذراعه كما كانت تفعل حين كان غلاما لتطلب منه أن يتوقف.
- «لاحقا، تعالي إلى الداخل، ألا تشعرين بالحر في هذه الملابس السود؟» رد ربيع.
- «دعك من الكلب انه مخلوق يدعو ويصلي لإله الشمس مثلي ومثلك وله ربه، وماذا عن هذا القميص ذي الكمين الطويلين، ألا تعرق داخله؟»

ارتفع نباح الكلب ودخل ربيع مع جدته إلى البيت وأغلق الباب الموارب بقوة. قالت جدته وهي تقف بجانب المطبخ تنظر إلى الأرض:

- «اذهب وأستحم، سوف اعدّ الغداء وأمسح الأرض القذرة.»
- «وماذا طبختِ اليوم؟» سأل ربيع وهو يتجه إلى غرفته.
- «وجبتك المفضلة الباذنجان» وانحنت لتلتقط ما تبقى من البطيخ المتناثر وغرست أنامل أصابعها وتبللت بقطرات تناثرت كالندى.
- «الباذنجان مرة أخرى؟» وانتشر الانزعاج على وجهه.
- «هيا يا ابني أذهب واستعد» قالتها وهي تتحرك ما بين أرضية المطبخ والقمامة.

كانت غرفة ربيع في نهاية ممر ضيق انعدمت الإنارة فيه فيزداد الظلام كلما اقترب من غرفته التي تقع مقابل غرفة جدته. حرك أصابعه على ورق الجدران الذي بهت لونه وانسلخ عن الحائط في أماكن حفظ ربيع ملمسها ومواقع تحدبها وتقعرها، وعكس جسده ظلا أشبه بالدمى المتحركة. بقي باب غرفته مفتوحا على مصراعيه كما تركه صباحا، وجد شباك غرفته مفتوحا وتراقصت الستائر البنية على إيقاع الريح وتركت الشمس ظلا يشبه مفاتيح البيانو السود على فراشه.

أغلق ربيع الشباك ودخل إلى مكانه المفضل الذي قضى معظم وقته فيه: الحمام. فتح صنبور المياه وغسل وجهه من التراب والعرق، تبلل شعره

وكمّيه. رفع الكمين إلى الكوع وغسل يديه مرتين وانتهى بتفريش أسنانه. نظر إلى انعكاس صورته في المرآة التي تلوثت بفقاعات صابون ونقاط بيض. لاحظ احمرار عينيه فاقترب أكثر وتمعن اختلاط بياض عينيه بخطوط حمر. وجد ذبابة تجثم بسلام على المرآة، تأملها وتفحص جناحيها وانعكاس عينيها الخضراوين المظللتين بإزرقاق نادر، وتذكر السلسلة التي علقتها جدته فوق باب البيت لمنع الحسد.

نبح الكلب فقطع سياق أفكاره، وضاقت شفتاه برغوة المعجون وتقوس حاجباه إلى الأسفل، وبنظرة غاضبة تذيب الحجر، قال لنفسه «أتمنى لو أعرف لماذا تنبح يا كلب؟» ثم أكمل «آه لو وضعت يدي عليك لقتلتك.»

أخذ ربيع قدحا شفافا يستخدمه عندما ينظف أسنانه وجعله كمينا للذبابة. وضع القدح فوق المرآة واصطادها وجعل منها سجينة تحت رحمته وغنى بصوت غريب «يا ليتني ذبابة أرقص كالربابة.»

- «هيا يا ربيع لقد جهز الغذاء» سمع صوت جدته من بعيد قادما من عالم آخر. نظر إلى القدح المقلوب وقال «سوف نتسلى لاحقا.»
- «قادم يا جدتي» رد بصوت عال. نظف فمه وخرج من الحمام ثم الغرفة وجلس حول مائدة الطعام بجوار جدته.

كان المطبخ محاذيا للحديقة الخارجية وتناولا الطعام بصمت فلا يُسمع سوى أصوات المعالق وهي ترتطم بالصحون، أكل ربيع بشهية وعجلة مما زاد من فضول جدته فسألته:

- «لمَ الاستعجال يا ابني؟»
- «اعذريني يا جدتي لكن الجوع هدني» وابتلع ملعقة من الطعام بلمح البصر.
- «عليك بمضغ الطعام جيدا، الم اقل لك حين كنت صبيا، عليك بمضغ الطعام عشر مرات قبل ان تبلعه.»

- «هل تريدني أن احسب عدد المضغات؟» وارتسمت ابتسامة يتيمة على شفتيه.
- «حين تصبح في عمري، عسر الهضم اقل همومك» أخذت رشفة من الماء ثم سألته:
- «كيف حال العمل؟ وهل ما زلت بدون أصدقاء؟»
- «لقد أحالوني إلى تحرير صفحة الوفيات واقضي معظم وقتي في إيجاد كلمات وعبارات مؤثرة لنعي أشخاص لا أعرفهم.»
- «العمل هو المهم يا ابني، ولا تنسى أن السمعة والأخلاق هما الأهم.»

هز ربيع رأسه موافقا فلقد سمع هذه النصائح في المدرسة والبيت منذ الصغر. انتهى من تناول الطعام وقبّل جدته من رأسها وشكرها على الطعام وتنظيف المطبخ ثم ودعها متجها إلى العمل. أخذ حفنة من التمر وخرج من الباب وتأكد من إغلاقه بإحكام واتجه نحو الميدان. مر بين الأطفال ووجد الكلب الأسود يحوم على أطرافه الأربعة متجها نحوه.

أسرع ربيع بخطواته وهو ينظر إلى الكلب بطرف العين، لمح شيئا في فمه يتدلى جزء منه أشبه باللحم خارج فمه. أحتمى الكلب بظل تركه جدار لبيت مجاور ومضغ ما في فمه. كان الصوت غريبا في البداية غير أنه مألوف لاذن ربيع لكنه لم يستطيع أن يميزه. وقف محدقا بما يأكله الكلب بشراهة واستمتاع. وقعت من فمه قطعة صغيرة للحظة فشمها الكلب بأنفه وحاول رفعها فأخطلت بالتراب وميزها ربيع من تضاريسها، كانت يد إنسان وليس ثمة شيء في هذا الكون من جلد وعظم يمكن أن يشبهها. نظر إليها نظرة عابرة واتجه نحو عمله مغنيا «يا ليتني ذبابة، أرقص كالربابة ولدت في الزبالة ...»

◆◆◆

خمس سنوات قبل ولادة ربيع

دقت الساعة الرابعة مساء في مكتب الصحيفة وبدأت نشرة الأخبار تذاع من خلال سماعات انتشرت في دهاليز ضيقة شقت طريقها ما بين الغرف وتدفقت الأخبار كشرايين ضيقة. انتشرت الغرف بعشوائية وسمع بها طرقات الطابعات الآلية بإيقاع مختلف. حام الدخان حول سقف الغرفة كغيمة سوداء استخدمه الموظفين لتخمين أعمار الصحفيين، فاذا برز الضوء الساطع من خلال الضباب الشفاف كان الكاتب شابا وإذا تدفق الدخان خارج باب الغرفة يكون نزيلها كاتب معتق سأم الحياة. انتهت الممرات بغرفة بابها واسع مفتوح وكتب عليه «رئيس التحرير». بدأت نشرة الأخبار بصوت متجهم يحمل أخبار الملك الأول وتقرير عن تدهور صحته.

- «أعزائي المستمعين أعذروني فلقد نال التعب من صوتي ونخر الحزن عظامي. فلقد كانت الأيام الماضية من أصعب لحظات عملي. أن ملكنا حبيب الشعب طريح الفراش بسبب مرض شرس لم يصادفه أطباؤنا من قبل وهم يعملون على مدار الساعة لتستقر صحته. أنه محاط بأبنه ولي العهد الأمير سرجون ووالدته الملكة الأولى. سوف نستمر باطلاعكم على آخر التطورات يوما بيوم، أدعو لإله الشمس في صلاتكم لتتحسن صحة الملك المجلل.»

عاد صوت المذيع محفزا المستمعين بالاستمرار بالعمل والدعوة للمريض بصوت هادئ، ثم رجع لقراءة الأخبار المعتادة عن سياسة المدينة، والاقتصاد، والرياضة والثقافة وانتهت نشرة الأخبار بالنشرة الجوية. ودّع المذيع المستمعين والمستمعات وذكرهم بمتابعة نشرة الأخبار المسائية.

خرجت فتاة معتدلة القامة من غرفتها متجهة نحو غرفة رئيس التحرير، ارتدت قميصا أبيض رسمي بنصف كم احتضنها من خصرها كراقص يعانق حبيبته. لديها ملامح الطف من زميلاتها وأبرزت أشعة الشمس جمال شعرها البني المنسوج بشعيرات حمراء وصفراء. ارتدت تنورة سوداء اللون استقرت على مسافة شبر من ركبتيها. دخلت الغرفة ووجدت رئيس التحرير يطبع على الطابعة بشراسة، وما بين النفس والأخر يأخذ رشفة من فنجان القهوة الأبيض. فاح عطر رجالي في أرجاء الغرفة ممزوج بنكهة من العرق، ولكنها خلت من أي أثر للدخان وذلك بسبب كره رئيس التحرير للتدخين منذ الصغر.

- «تفضلي أجلسي يا سمر» لوح لها بيده اليمنى واستمرت اليسرى تطرق مفاتيح الطابعة.
- «شكرا يا أستاذ خليل» وجلست على الكرسي الوحيد المقابل لمكتبه وانتظرت توقفه عن العمل. نظرت إلى مكتبه الذي غرق بالأوراق، وأقلام الحبر والرصاص بمختلف الألوان. عُلقت جوائز حازت عليها الصحيفة على مختلف العقود.

ملأت الجدران صورًا قديمة للكادر الصحفي، يعرف جيل الصور من ألوانها مرورا بالأصفر، والأبيض والأسود وتنتهي بالصور الملونة. كتب تاريخ على كل صورة ووقف رئيس التحرير في منتصفها. وقفت سمر قريبا من إحدى الجدران تحاول تمييز خليل لكنها تاهت ما بين الأجيال الراحلة والقادمة.

أصبح خليل من أصغر المحررين الذين تسلموا مسؤولية الصحيفة المحلية للمدينة فكان يماثل سمر عمرا ويفوقها جمالا. سطعت ملامح وجهه الدافئة وتدفقت المسؤولية من عينيه الثاقبتين وزادت من حدتها النظارات الطبية التي كان يرتديها دائما. سبقته سمعته بانه لاذع اللسان مع الرجال ومتحفظ مع النساء ولا تتغير معاملته مع الناس حسب ثرواتهم، فالأرستقراطي والفقير في مركب واحد وهذا كان من أول الدروس التي تعلمها في مهنته.

- «هل تحتاجين إلى مساعدة؟» سألها ولم يرفع رأسه عن الطابعة.

استدارت وجلست على المقعد، ولكنها فشلت في إيقافه عن العمل أو النظر إليها فقالت له بتردد:

- «هل سمعت الأخبار عن الملك؟»

توقف خليل عن الطباعة ووضع نظارته الطبية على المكتب وأستدار نحوها واحتسى رشفة من القهوة وقال لها:

- «لقد علمت منذ أسبوع فالمندوب الملكي صديقي ونلتقي مساء الخميس في مقهى البلدية.»
- «هل هو على ما يرام؟ أقصد الملك؟»
- «انه على فراش الموت، يعتقدون أن باستطاعتهم تمديد عمره لسنة أو اثنتين على الأكثر ولذلك بدأ سرجون بدراسة الدستور الملكي والاعتياد على المراسيم.»
- «يقولون إنه أشرس من والده؟» عرفت أنها أخطأت بهذا السؤال وعضت على شفتها السفلى بقسوة.

لم يرد خليل على السؤال المطروح فأستند على المقعد بظهره ونظر إليها بتمعن، كان شعرها أقصر من بقية النساء وغطى على معظم أذنيها ولم ير غير لحمة أذنها البيضاء. نُحت وجهها بتناسق نسبي فعيونها فرعونية الجمال وأنفها دقيق التضاريس. تكامل لون حاجبيها مع لون شفتيها الغامق فلم يجد عيبا واحدا فيها. انتبه لوحمة موجودة داخل ذراعها الأيمن، أبتسم حينها فلقد وجد عيبا فيها أخيرا، كثعلب وقعت عيناه على أضعف حمل في الحقل. كانت الوحمة بنية اللون مستديرة الشكل تشبه خريطة المدينة التي حفظها منذ أيام المدرسة الابتدائية. ضغط ما بين عينيه بإبهامه وسبابته ورد عليها:

- «هل انتهيتِ من مقالة الغد؟»

- «وضع فارس لمساته الأخيرة. يحب تحرير المقالة بنفسه كما تعلم» مرت لسعة كهربائية هزت كيانها حين انتبهت لتغييره الموضوع، ولكنها لم تأبه، ثم أكملت «يريد إكمال كل شيء قبل غروب الشمس.»
- «لا أعرف متى سوف يتوقفون عن ابتداع قواعد وقوانين جديدة» رد خليل بتحسر ثم أكمل «حتى نسيت عدد القوانين المفروضة علينا؟»
- « ٨٣٢ قانون» إجابته سمر بسرعة.
- «وماذا بعد ذلك، لم يبق إلا أن يحرم شرب القهوة والماء.»
- «ادعي لربك بأنك لم تخلق كامرأة فمعظم القوانين وضعت للتحكم بالمرأة والأطفال.»
- «الحق معكِ، دعي فارس يجلب المقالة عندما ينتهي منها رجاء. لا بد لي من العودة إلى العمل وتذكري أن بابي مفتوح دائما» وضع النظارة في مكانها وأستدار للطابعة مرة أخرى.

نهضت من مقعدها بعد استأذناها وانتهى الحوار عند «شكرا» وحينما خرجت من الباب ناداها بوقار ملأها بالاستغراب وقال لها ولم يرفع نظره عن الطابعة:

- «دعكِ من العائلة الملكية وأقضي وقت فراغك بشيء آخر، لماذا لا تذهبين أنت وفارس لأحدى المدارس وتعدين تقريرا عن التعليم؟»
- «فكرة حسنة.»

تحركت باتجاه مكتبها عبر إحدى دهاليز الصحيفة ودخلت الغرفة التي استوطنها الدخان ورائحة العرق المعتقة التي تشبعت منها مسامات الجدران. توسط المكتب منضدتان متقابلتان وعلى كل منها طابعة يدوية، أقلام وأدوات بمختلف الألوان. كانت الغرفة الوحيدة بشباك يطل على الشارع العام، ذبلت الشمس بغروبها وبقت أشعتها تنعكس على زجاج الشباك. جلس رجل حول مكتبه منغمسا بقراءة إحدى صفحات الجريدة، رفع رأسه على وقع خطواتها ورمقها بحسرة. جلست على مقعدها ونظرت إلى الرجل بابتسامة.

- «ابشري هل عنده شك؟» سألها الرجل.
- «كلا لقد أخبرته بمغادرتنا مبكرا وإنك على وشك الانتهاء من مقالة الغد.»
- «لقد أنهيتها، أنها جاهزة» رد الرجل والابتسامة تتسرب إلى شفتيه كمياه في ساقية للنباتات. ثم أكمل «من يقرأ هذه الأيام على أي حال؟ الم تسمعي النشرة الإخبارية. لقد خسرنا عندما وضعوا الرياضة قبل الثقافة ولم يبق لنا إلا النشرة الجوية لنتسابق معها. إما اليوم الذي سوف يهتمون به بالمناخ قبل الثقافة فلا أريد أن أراه.»
- «إنك على حق يا فارس، يريدنا خليل أن نقوم بإعداد تقرير عن التعليم المدرسي فماذا تقول؟» وضعت كوعيها على المكتب وجلست ويداها تحت ذقنها المدبب.
- «أعتقد أنها مضيعة للوقت وهو يحاول إلهائنا بمشاريع فاشلة.»
- «متى سوف نغادر؟» سألته سمر متجنبة محاضرة أخرى عن البنية التحتية للمدينة وتدهور التعليم.

إجابها فارس «بعد غياب الشمس، ربما بعد ساعتين» ورجع ينظر إلى الصحيفة.

- «وكيف أخرج في الظلام وأنت أعلم بقانون حضر التجول للنساء في المساء» انتظرت جوابه بصبر.
- «لا عليك بهذه الأمور فلقد رتبنا كل شيء.»
- «وماذا عن بقية الأشياء، كيف سوف نحملها إلى هناك؟ وماذا عن وزارة الشرطة والأخلاق؟»
- «آوه يا سمر إنك تسألين أسئلة كثيرة، أنظري لقد تركت لكِ صفحة الكلمات المتقاطعة، لقد برع طلال في صعوبتها هذه المرة.»

أخذت الصفحة وأخرجت قلم رصاص من عدتها، فهي غير واثقة من أجوبتها عكس فارس الذي يحبذ استخدام قلم الحبر. جلسا بصمت ينتظران هبوط الظلام كستارة على المدينة.

خرج شخصان من بناية الصحيفة واتجها نحو ميدان الوحدة، تحركا بسرعة مرتديان ملابس سوداء تحمي هويتهما. خطوات سريعة تتنافس مع أنفاسهما متفادين الصخر وقطع الزجاج المتكسر. غمرتهما رائحة المجاري المفتوحة التي تتدفق بعشوائية طبيعية.

سمعا أهازيج المشجعين داخل الملعب وقال فارس وهما يعبران الشارع «يا ترى أي بطولة هذه؟ كأس السلام؟ كأس الصداقة؟ أو كأس التلهية الثالث؟»

قاطعته سمر وهي تلهث «دعهم يتسلون فلا بد من أشغال الفكر باللعب.»

نظرت سمر باتجاه فارس وانتبهت إلى جمال ملامح وجهه التي أضيئت بكشافات الملعب البعيدة وبقي ظل غامض يندمج مع ملابسه. حاجباه مرسومان بفرشة رسام زهق المألوف فكسر حواجز الرسم وبذخ في رسم وجهه. انفه معتدل الانحناء، جلس على فم حليق الشارب، حاجبان كثيفان يتقوسان على نهاية محجر العين. شعر كثيف غامق اللون ولا يكسر قالب فمه بأكثر من ابتسامة بسيطة ليعبر عن حالته النفسية. حاولت أن تقارنه بحيوان لكنها لم تجد شيئا يشبهه في عالم الطبيعة. كان أطول منها بشبر، نحيل الجسم وحنطي البشرة.

- «إلى ماذا تنظرين؟»
- «أني مضطربة قليلًا.»
- «هذا طبيعي أنها مهمتك الأولى.»

انتبها إلى لافتة جديدة بجوار الملعب عليها صورة ملكية، جلست العائلة الحاكمة على مقاعد طرزت بلون ذهبي، ابتسامات وأسنان ناصعة البياض عكست رؤية مستقبلية للمدينة. كتب شعار تحت الصورة «الشمس، الملك، المدينة» بخط ابيض عكس أضواء الشارع. مر فارس وسمر بجوار المحلات

المغلقة التي أغرقها الفقر والجوع ولم يبق غير أشباح الحيوانات السائبة والمتسولين.

برز نصب ميدان الوحدة من بعيد، وطاف رأس الحصان المحارب من فوق المباني، لاحظ فارس بطء خطوات سمر فقال:

- «سوف نصل قريبا، إذا أردت كتابة تقريرا فأكتبي عن هذه العمارات.» ارخى خطواته حتى تلتحق به ثم أكمل «من أسوأ المشاريع الملكية، بنيت هذه العمارات في مناطق فقيرة لمساعدة الطبقة المحتاجة، ولكن كان هنالك أخطاء في التصميم، وفي اختيار المنطقة ومن له الحق بالسكن فيها. وبعد مرور سنين من الإهمال من قبل الشرطة والحكومة دخلت الجريمة والعصابات فيها.»
- «مستحيل، هنا في مدينتنا؟» سألته باستغراب.
- «طبعا تنتج هذه العمارات أمهر المنحرفين الذين ورثوا الجريمة أبا عن جد وأزداد الفقر مع عنصر البطالة ولديك الأن معادلة رائعة يستخدمها المجرمين للسيطرة على هذه الأحياء.»
- «ولماذا لا تتدخل الشرطة؟»
- «العين بالعين والسن بالسن» إجابها فارس.
- «لم أفهم» ردت سمر.
- «تستخدم العصابات هذه القاعدة الملكية لمصلحتها، فلا يؤمنون بالقانون والعدالة، فيأخذون الثأر بأنفسهم وهنالك الأن صراع بين العصابات على التحكم بهذه المناطق.»
- «ولماذا يتصارعون عليها؟»
- «تعتبر هذه العمارات بوابة إلى عالم المخدرات فتستخدم كسوق للتجارة وواحة للاستخدام من قبل المستهلكين لمختلف الممنوعات، وهل تعرفين ما هي الكارثة الكبرى؟»

لم ينتظر جواب سمر فأكمل «أن هذه المناطق فيها أكثر نسبة متسربين من التعليم، أطفال ومراهقون يتركون مدارسهم ويلتحقون بالعصابات لتوفير لقمة العيش.»

- «سوف أطلب من خليل كتابة تقرير عن هذه العمارات.»
- «بالتوفيق» وابتسم ابتسامة مصطنعة وقال «هل تعرفين من المستفيد الأول من كل هذا الفساد والطلب من الشرطة بعدم ملاحقة المجرمين؟»
- «من؟»
- «أنظري إلى هناك.»

اقتربا من الميدان فاستطاعا رؤية التمثال المضاء من مختلف الزوايا وتلألأت مياه النافورة كمجوهرات ترمى في الفضاء. وجدا صورة أخرى للعائلة الملكية بملابس تقليدية وبشعار مصطنع لصق عليها، دامت الابتسامة البيضاء المعهودة على وجوههم ولم يكن هنالك أي عنصر من عناصر الشرطة حول النافورة فاقتربا من الرخام وتطلعا إلى التمثال والصورة.

- «خطوة موفقة، لا أرى أي حارس هنا» قالت سمر.
- «نعم أن توقيتنا صحيح، فهم الأن مشغولون بكرة القدم.»
- «أين الشخص الأخر؟»
- «انه قادم بلا شك.»

جلسا على حافة النافورة وداعبت يدهما الماء البارد وانتبهت سمر إلى الصورة وقالت:

- «هل تعلم أن اللون الأبيض هو لون البراءة والنزاهة.»

أستدار قليلا وقال لها بطرف عينه «وهو لون من ألوان الكذب أيضا.»

- «أنك متشائم دائما» وانقطع كلامهما على خشخشة في الأحراش.

خرج شخص مرتديا ملابس سوداء تشبه ملابس سمر وفارس في ظلالها من بين الأحراش الموازية للنافورة وهو يحمل علبة من دبس التمر في كل قبضة. غطّى رأسه بقطعة قماش سوداء ولم يبرز من وجهه إلا عينيه الغاضبتين.

- «أنك دقيق في مواعيدك» رحب فارس بالشاب وحمل عنه إحدى العلب ووضعها على الأرض.
- «من معك؟ لم أتوقع شخصا ثالثا معنا» نظر الملثم باتجاه سمر.
- «أنها زميلتي وتشاركنا نفس الميول» وضع فارس كف يده على كتف سمر مرحبا بها.
- «أنها امرأة، هل أنت مجنون؟ ألا تعرف عقوبة كسر هذه القاعدة؟» وضع الملثم العلبة الثانية على الأرض. تصاعد التوتر في جسد سمر التي اقتربت من فارس تبحث عن أمان. دقت مكبرات الصوت في أنحاء المدينة معلنة النشرة الإخبارية المسائية. أدرك الجميع الوقت المذاع وقال الملثم:
- «هيا سوف تنتهي المباراة في أي لحظة، عاونوني لقد أحضرت المزيد من العلب خلف الأحراش.»

دخل الجميع بين الأحراش وحمل كل منهم علبة ثقيلة ورجعوا بها ببطء نحو النافورة، مازالت أصوات الجماهير تطحن الليل بأهازيجها وطبولها. فتح الملثم العلب بسكينة ضئيلة الحجم أخرجها من جيبه وتوهج السائل على الأضواء المجاورة كسطح بحر يتلألأ بضوء البدر. لم تستطيع سمر تمييز لون السائل الداكن. اقتربت من إحدى العلب متوقعة رائحة الدبس الحلوة، ولكن رائحة الصبغ وما تصاعد من أبخرة نفاذة تسربت إلى انفها فأصيبت بدهشة.

أفرغ الملثم وفارس محتويات العلب واحدة بعد الأخرى في ماء النافورة، وقفت سمر تنظر إليهما وغطت على انفها بكف يدها. لاحظت أثار نقاط على الأرض بلون غامق فتذكرت لون بلاط بيتهم الملطخ بنقاط حمراء حين

نزف أنفها عند الصبا. مرت بومة بيضاء كالبرق فوقهم ونعيقها كالرعد فالتفتوا عاليا محدقين إلى سماء غسلت من نجوم الليل. أخرج الملثم فرشة رسم عريضة الراس وغمسها بماء النافورة، تسلق بعجلة وأصبح موازيا للصورة الملكية وكتب بخط عريض «مجرمون».

سالت خيوط حمراء على اللوحة وانتهت مع أطارها السفلي الذي تشبّعَ بالصبغ فنزلت قطرات كدموع الأمهات على فقدان أبنائهن على الأرض تاركةً أثار الجريمة. تطاير ماء النافورة في الهواء وتدفق رذاذ أحمر دموي في كل مكان فأصبحت النافورة مجزرة لأفعال العائلة الملكية للمدينة. سمعوا صافرة الحكم معلنة نهاية المباراة وتدفق العامة للشارع فركضوا نحو الأحراش غير مدركين لما يحمله المستقبل لهم.

◆◆◆

٢

دوّرت كرة زجاجية بين أناملها بدقة، ضغطت عليها بإبهامها وسبابتها فانسحب الدم الوردي من سلاميتها الشفافة. سجن بيت ضئيل داخل الزجاج وطاف متمايلا يمينا وشمالا كلما حركت الكرة بين أصابعها. أُعجبت بملمسها الناعم وتساءلت كيف حُبس السائل وتمنت لو كان بمستطاعها كسر الزجاج وتحرير البيت المسجون.

مكثت بجوار مكتبها الذي يطل على شباك مقابل لبستان القصر الملكي. امتلأ البستان بمختلف أشجار النخيل وتدلت ثمارها كسلسلة ذهبية على صدر امرأة ذاقت طعم الحياة. جذبت الكرة بمحاذاة عينها المفتوحة وأغلقت العين الأخرى، تبع بؤبؤ عينها فقاعات صغيرة من الهواء تعوم حول البيت. أختلف البيت عن بقية بيوت المدينة التقليدية بألوانه الغريبة وتصميمه الجديد، السطح المثلث حيث ترتكز مدخنة صنعت من طابوق بني في إحدى زواياه. كان البيت أبيض اللون امتلأت مقدمته بشبابيك زجاجية، توسطه باب أحمر اللون عُلق عليه جرس نحاسي. حاولت الفتاة أن تختلس نظرة لداخل البيت لكنها فشلت وحينها لاحظت أظلال أشجار النخيل مقلوبة على الزجاج.

حركت الكرة رويدا وتمعنت بالأشجار المقلوبة وأرجوحة البستان التي قضت وقت فراغها تقرأ فيها كتبها المفضلة. انعكست صورة الفتاة على زجاج الشباك المقابل وظهرت صورة لامرأة فاتنة. كانت في بداية عقدها الثالث،

شعرها أحمر ناري اللون يصل إلى منتصف ظهرها. ما يزال جمالها طفوليا فوجهها يعكس براءة عذراء وتناسقت وجنتاها مع لون شفتيها الورديتين. سبحت عيناها العسليتان ببياض ناصع، تتطلع بما حولها بتمعن، ورثت هذه الصفة من أمها الملكة تمارا التي امتلكت لمسة أنيقة في كل قرار تتخذه من تنسيق الطعام إلى اختيار الملابس.

ارتدت قميصا ابيض شفاف، وتدلى شالٌ صيفي وردي اللون من عنقها الطويلة مغطيا نهديها. كانت مدللة الملك فلم يكن لها أخ أو أخت ينافسها على حب السلطان وبقت الوحدة زميلتها المفضلة في أوقات الظهيرة. قضت وقتها بين تعلم الآداب والمراسيم الملكية ومهامها كأميرة في مساعدة والديها وحبها للفروسية، ولكنها اجتهدت دائما ووجدت وقتا للقراءة. علمها والدها لعبة الشطرنج منذ الصغر وأصبحت غريمة له بكل معنى الكلمة، ولكنها وجدتها لعبة للرجال فلم تستمتع بها. تدقق في حركة كل قطعة وتجتهد لإرضاء والدها بصعوبة فتبدأ كل مباراة بنشوة تغلي بذكريات الطفولة البريئة وتنتهي بإخفاق وتحسر على ضياع وقتهما.

وقعت في غرام دراسة التاريخ وأصبح حبا لا يفارقها، ولهذا التهمت كل الكتب الموجودة في مكتبة والدها. قرأت عن تأسيس المدينة من قبل جدها وعن إله الشمس والقوانين المفروضة على العامة. أُلهمت بشجاعة والدها وكيف دجنَّ المسؤولية كحصان جامح وكبلها بيديه الاثنتين، وكلما ازداد الاضطراب في المجتمع ونخرت دودة المقاومة إحدى أسس المجتمع، وزرعت الرعب في المدينة، أقتلعها الملك بصرامة جاعلا ما تبقى منها مثالا رادعا لبقية عناصر المقاومة. تمردت مجموعات معارضة للحكم الملكي في مختلف العقود، ولكن الشرطة مع كتيبة من جيش المدينة كانوا دوما في المرصاد.

بحثت الفتاة عن كتب أو مقالات عن تاريخ المقاومة لكنها لم تجد شيئا واحدا عنها فلم تبال كونها تنتمي للجانب المنتصر.

قرأت في إحدى الموسوعات حين كانت صبية عن بركة ماء عميقة يستخدمها العامة للسباحة والمرح، لم تفقه كيف يُملأ حوض بالكامل بمساحة غرفتها بالماء وبإمكانها السباحة فيه. رسمت صورة للمسبح على ورقة بيضاء وملأت الفراغات بماء أزرق ورسمت أشجار النخيل حوله. علقت الصورة على شباكها الموازي للبستان فاختلطت الأشجار المرسومة مع أشجار البستان، ابتسمت الشمس بأشعتها على الورقة البيضاء فاختلطت مياه المسبح الزرقاء مع اصفرار الشمس وانعكس ظل أخضر لمستطيل مكعبي على طاولتها.

أيقظتها طرقات على الباب من أحلام اليقظة، وعرفت من لحن الطرقات انه والدها. نظرت لخيالها على زجاج الشباك، ولعبت بخصلة نزلت فوق عينها وقالت:

- «تفضل.»

دخل الملك أولا ولحقه عطره الرجالي ثانيا وغلق الباب برفق. كان يرتدي ملابسه الملكية خلال ساعات العمل الرسمية وخمنت الفتاة من سترته البنية انه سوف يلتقي بمندوب الديوان الملكي. استرخت خطواته التي دلت على إنسان قوي الشخصية أشبه براقص الباليه حافظًا خطواته القادمة عن ظهر قلب. أبتسم حين رآها جالسة على كرسي بجوار طاولتها فوقفت لترحب به برشاقة جسدها وعضلاتها مشدودة التي لم تتذوق التعب أو الإرهاق.

علمتها الفروسية فرد كتفيها والوقوف والجلوس بأناقة، وقوام ممشوق وصدر مرتفع ومندفع قليلا نحو الأمام. اكتسبت توازن خطواتها من حث والدتها المستمر بضرورة تعلم الخطو الصحيح، فأصرت على وضع كتاب فوق رأسها وأمرتها باعتدال قامتها والنظر أماما. احتضنها والدها وقبلته من جبينه الناعم وسمعت أنفاسه واستنشقت عطره الرجالي، زحفت سعادة بريئة في جسدها وعلمت لماذا يزورها والدها في هذا اليوم. جلست على مقعدها وعدلت تنورتها ثم تعانقت ركبتاها وكاحلاها سويا بحزم وانحنى ساقاها جانبا فهكذا علمتها والدتها الجلوس كالأميرات.

- «ماذا تفعلين يا أمنية؟» سأل الأب بحنان تاركا وظيفته خارج الغرفة.
- «إنني أقرا يا والدي» وتلاعبت ببعض صفحات كتاب مفتوح أمامها.

تسرب تيار من الهواء وتحركت الستائر الشفافة بهدوء الريح وطارت ورقة يتيمة من طاولتها كطائرة ورقية وانزلقت بجانب قدم والدها. احنى جذعه الذي لا يركع لأحد وأجتث الورقة من إحدى زواياها. رأت الأميرة رأس أبيها ولاحظت صلعته التي غطاها بالكاد شعره الخفيف.

سألت نفسها إن كانت المسؤولية التي تحملها منذ الصغر تتبخر أثناء الليل من رأسه فسقط شعره، أم هو الهم والكفاح المتواصل للحفاظ على مدينة ورثها وسيطر عليها بفولاذ ونار. يا ترى اذ سقت رأسه بالقليل من الماء هل سوف ينمو الشعر مجددًا؟ هل يرتدي التاج ليغطي على ...»

- «أمنية؟» قاطعها والدها.
- «نعم يا أبي» إجابته بنظرة جديدة.

اقترب منها ووضع الورقة على الطاولة ولمح صورة المسبح المعلقة على الشباك وقال:

- «أحببت أن اعرف ماذا تريدين هدية ليوم عيد ميلادك؟» امتدت ابتسامة كغطاء دافئ عندما تذكر ذلك اليوم الذي أنجبت تمارا طفلة قبل عقدين.
- «لاشي، لا أريد أن أتعبك يا أبي.»
- «ما هذا الكلام أنك في بداية عقد جديد من العمر وهي أحلى سنوات حياتك، أوشكت الدراسة على الانتهاء وبعد ذلك لن يكون لديكِ مسؤولية أخرى. تمتعي بالحياة. هيا أطلبي شيئا.»

تذكرت ما قرأته عن أبيها في كتب التاريخ، كيف رُمي في وسط الأحداث بعد وفاة جدها. وضع كل أحلامه وتمنياته جانبا وحارب الغوغاء والمعارضة بشراسة. قذف داخل دوامة سحبه تيارها لقاعها لكنه سبح ونجى بنجاح.

- «لقد قرأت في أحد كتب التاريخ عن حفلات تقام في مدن بعيدة لا يوجد فيها رمل أو صحراء، بل بساتين خضراء وجبال توجت قممها بالثلوج، يرتدي جميع الضيوف ملابس بيضاء من قمة الراس إلى أخمص القدمين.»

رفع الملك حاجبيه معجبا بالفكرة مبدئيًا ثم أكملت الفتاة:

- «يجلس الجميع على طاولات بيضاء ويوضع الأكل والشراب بصحون وأباريق بيضاء أيضا، وبعد تناول الطعام تبدأ الحفلة بعزف الموسيقى والرقص ما بين الأصدقاء والحضور. ولسوف اهدي كل ضيف هدية بعد انتهاء الحفلة غلفت بورق أبيض كتذكار.»
- «فكرة عظيمة يا أمنية، الأن تدخلين العشرينات من أوسع أبوابها. دعنا نبلغ أمك بهذه الفكرة» رد الملك.
- «هل تعتقد أن أمي سوف...» وقاطعتها دقات على الباب الذي فُتح على مصراعيه، دخلت الملكة تمارا بوقار، خطوة بعد أخرى بحذائها الذي يلامس أرضية الغرفة الخشبية بحذر مصدرا دويا خافتا يلف الغرفة بأكملها.
- «أنك هنا يا مولاي، لقد بحثت عنك في كل مكان» قالتها ووقفت بجانبه.
- «لدى أمنية فكرة جميلة لعيد ميلادها» وضع كف يده على ظهرها مرحبا بها.

تقدمت الملكة قليلا وانحنت احتراما كبجعة ترقص على أمواج بحيرة هادئة، وقف الملك على رؤوس أصابع قدميه وقبلها من خدها الأيمن قبلة مقدسة تعود بتقديمها كذبيحة لتغفر له عن ذنوبه.

- «ما هي الفكرة؟» ابتسمت وبرزت أسنان بيضاء صُفت بحرفية صائغ لقلادة من لؤلؤ منثور.

أخبرها الملك بما تتمناه الأميرة من حفلة وديكور. هزت الملكة رأسها موافقة إذ كانت ماهرة بفن الإيماء. توقفت بين الحين والأخر لتنظر إلى وجه الأميرة الذي أحمر منتظرة جوابا من والدتها. وكما لمحت صحراء في رأس والدها انتبهت لطول أمها بجانب والدها. ارتدت الملكة حذاء بكعب عال مما جعلها أطول من والدها بشبر على الأقل.

ارتدت الملكة فستانا نيلي اللون صنع من قماش غريب الشكل والملمس. ظهر زنداها البيضاوان الرشيقان من أكمامه القصيرة التي انسجمت مع فتحة الفستان فوق نهديها. اعتنت ببشرتها الناعمة فلم تخترق خطوط الزمن تضاريس عنقها الطويلة التي أغرت الملك في أيام شبابه وارتدت حزاما حول خصرها الناعم لوّن بمختلف الألوان متناسقا مع أقراط أذنيها.

لمع الياقوت الأحمر حول أذنيها عاكسا ندرته وغلاء ثمنه، لقد كانت الأقراط هدية الملك لزوجته في ذكرى عيد زواجهما. أشتراها من بعض تجار الذهب الذين يزورون المدينة بين الحين والأخر. أختار الياقوت الذي يلائم تمارا فكانت جميلة الروح وقوية الشخصية. إن كان هنالك شيء ينقصها فلربما شامة على أحد خديها.

- «أنها فكرة رائعة يا أمنية، ولكن علينا الاستعداد حالا.»

لم تجب الفتاة الحالمة فكانت عيناها الزجاجيتان تبرقان كالجواهر وشفتاها منفرجتين قليلا.

- «أمنية؟» رفعت الملكة من صوتها وطرقت أصبعيها معًا.

رد الملك «سوف أترككما لترتبا الحفلة.»

- «سوف نحتاج إلى مندوب من الصحيفة المحلية كي يغطي الحفلة ومراسيمها» ردت الملكة ومسدت بيدها شعر الفتاة.
- «عندي اجتماع مع المندوب، سوف أطلب منه ترتيب كل المستلزمات.»

أقترب الملك من أمنية وأحتضنها وقال لها «هل قلت لكِ كم احبكِ يا عزيزتي. عندما أعلموني أن المولود بنت أصبحت فرحتي أكبر من الدنيا» ثم أكمل «وعندما سألوني ألا تريد صبي يجلس على العرش بعدك؟ قلت لهم أن المدينة بحاجة إلى ملكة بعدي، فالمرأة لديها المبادرة الدبلوماسية والصبر الضروري لتحقيق الرفاه لشعبها.»

ردت الملكة بألفة «تُقاس المدن بحرية المرأة وتقديرها ومنحها السلطة.»

أنحنى الملك وقبل الفتاة من خدها وودعهما خارجًا من الغرفة. أتجه إلى مكتبه الذي كان في إحدى زوايا الطابق الثالث، مر بجانب عدد من الشبابيك المفتوحة على بساتين النخيل من جهة وإسطبل الخيول من جهة أخرى. تمعن في السماء الزرقاء ولم يكن ثمة غيمة واحدة في الأفق.

وقف راشد داخل المكتب الملكي منتظرًا الملك بفارغ الصبر إذ كان يود مناقشة العديد من المواضيع معه. كان قريبا في العمر من سرجون وأكبر منه بسنة أو سنتين وتعود على منظر الشيب في شاربه وشعره. طلبت زوجته أن يصبغ شعره فضحك بسخرية فمركزه كشخصية إعلامية للقصر الملكي يجعل مظهره مألوفا للجميع. بدأ مع الديوان الملكي حين كان في منتصف العشرينات بعد تخرجه من الجامعة والتقطه الملك الأول من دفعته وعينه بوظيفته الأزلية.

أصبح الصورة الرمزية للعائلة ولسانها في أرجاء المدينة، شُتم مع كل قانون جديد وأصبح نكتة مرت على ألسنة العامة كعلكة إن ذاب طعم السكر فيها ترمى في القمامة. لم ينس راشد جذوره فتزوج من امرأة بسيطة، ولما أمر الملك بدفع أجرة العرس رفض بشدة. عاش في منطقة يسكنها ناس من مختلف الطبقات وربى أبنه الوحيد سامي على البساطة وحب للحياة. وحين يتوسل سامي للذهاب مع والده إلى القصر الملكي في صباح كل يوم يرفض راشد الفكرة من أساسها فلم يحبذ له الاختلاط مع أطفال مدللين.

مرت الأيام وكبر راشد مع المدينة وأصبح المقياس الثابت لأهلها مع الصحراء والزمان. مرت المدينة بمراحل عديدة من حروب وانقلابات، وتغيرت الملوك وفرضت عشرات من القوانين على الناس.

نظر إلى سيف سميك معلق على الحائط نحت أسم الملك الأول على شفرته ورسمت زخارف هندسية بمختلف الأشكال. وضع راشد راحة يده على الشفرة وشعر بحدتها المصنوعة بإتقان.

- «أنها ما تزال حادة» أيقظه صوت سرجون من العزلة وانتبه لسرور دافئ في صوته.
- «مرحبا يا مولاي.»
- «عذرا على التأخير، لقد كنت مع أمنية وتمارا.»
- «هل اختارت الأميرة هدية لعيد ميلادها؟» سأل بود فكان هو المسؤول عن تلبية طلباتها.
- «نعم أجلس سوف أخبرك لاحقا، أخبرني لماذا أردت مقابلتي اليوم على غير المعتاد؟»

جلس راشد ووضع ما أحتضنه من أوراق على فخذيه ومسح العرق عن شاربه وفمه ثم قال:

- «لقد كانت هنالك ردة فعل سلبية لتحريم الخمر المصنوع من التمر.»

هز الملك رأسه بإيجابية متفهمًا ثم أكمل راشد «وهنالك مؤشرات لمكونات ومحفزات لحركة مقاومة جديدة» ثم تذكر «وعلينا ترتيب صلاة المطر، فالماء قليل ونحتاج لرحمة من إلهنا.»

تنحنح ليجلو حنجرته وقطب حاجبيه ليعطي نفسه وقتا للتفكير، قاطعه راشد «هل تريدني أن أدبّر شيئا ما يا سيدي؟»

حرك الملك رأسه نافيا وأكمل المندوب «ماذا عن بدء حرب جديدة؟ فلا شيء يوحد مدينة منقسمة أفضل من خطر خارجي عليها. كانت دائما ...»

- «كلا لا أريد سفك المزيد من الدماء» قاطعه سرجون.

قفز راشد بفكرة جديدة ردت له عنفوان الشباب وقال:

- «وماذا عن بطولة لكرة القدم؟»
- «كلا» طرد الفكرة بحركة سلبية من كف يده السميكة.
- «نطرح بعض الفواكه الممنوعة؟ موز مثلا؟»
- «لقد أصبحت هذه الحجج لا تعمل يا رفيقي، علينا ابتكار شيء جديد.»
- «بماذا تفكر؟» أستغرب راشد من جواب الملك.
- «يانصيب.»
- «لم افهم؟»
- «أريد إنشاء يا نصيب، يشتري فيه سكان المدينة بطاقات ليفوزوا بجائزة.»
- «يا لها من فكرة عظيمة وماهي الجائزة؟»
- «أرض الأمل.»

◆◆◆

أعتاد زيارة صديقه في هذا الوقت وسقطت أشعة الشمس بزاوية على جلده الأجدب فانبعثت حرقة في فمه الجاف. أختبأ في ظل إحدى الجدران المجاورة وتسرب صبره كأسطول من النمل، قطرة تلو الأخرى. امتلأ جلده ببثور صفراء حكته كلما نشف جلده فهرشه بأقرب جدار مجاور له. تسأل أين ذهب صديقه العطوف الذي جلب له طعاما بين الحين والأخر. طرق الأرض بحافر قدمه فتناثر الغبار بين سيقانه المرنة.

وقف بجانب حنفية للمياه تتسرب منها قطرات بانتظام مكونة حولها بحيرة طينية. لطع الحصان الحنفية بشغف وذاق طعم حديد مر في فمه وأختلط الطين بحوافره القذرة. أخرج لسانه فانتعشت شفتاه بالماء البارد كشجرة حنت لمطر السماء. أرتفع صهيله عندما رأى صديقه مقبلا من بعيد فلطع الحنفية مرة أخرى وحك جلده بالحائط وصدم حوافره بالجدار لينظفها من الطين، وتمنى أن يكون في أحسن حلته حين يقابل صديقه.

ولسوء الحظ وقفت ذبابة على جفن عينه اليمنى قبل وصول الشاب، اقترب ربيع من الحصان وتحرك الحيوان نحوه. كانت خطواته أقرب إلى الارتجال من التنزه وهمهم مخرجا لسانه. أحتضنه ربيع من عنقه وقال:

- «ماذا حصل لك؟» وحرك كفَّ يده ليزيل الذبابة.

وضع الحصان رأسه بين كفي ربيع ولطعهما ونخر مرحا.

- «نعم لقد جلبت لك طعاما» أخرج حفنة من التمر ووضعها بين كفيه «ماذا حدث لجلدك؟» تساءل ربيع مع نفسه.

أكل الحصان بشهية وفتح ربيع حنفية المياه وترك الحصان يشرب حتى الثمالة وغرست حوافره بالطين. كان الحصان في نهاية مطافه فغارت عيناه واختفت بعض أسنانه. لم يعرف ربيع من كان صاحبه فلقد وجده يوما أمام بناية الصحيفة.

ربت برفق على ظهر الحصان ولاحظ بثورا انتشرت بين شعره الحريري، لمعت جدائل شعره كحقول القمح والشعير بتناسق لا يوجد إلا في الطبيعة.

- «هل تعلم أننا أخوان في هذه الحياة، مشاكلنا مشتركة» قالها وهو يمّسد ظهره ثم أكمل «نعمل بجهد طول حياتنا وعندما نعجز نُترك للموت.»

ترك ربيع الحصان العجوز مترهل العضلات، محدودب الظهر، واتجه نحو مدخل الصحيفة ودخل من بابها الواسع واستقبله فوزي الفَرّاش الذي اعتاد على طعم مشروباته اللذيذة.

- «كيف حالك يا ربيع؟» أزال فوزي بقدومه جو العزلة فسأله ليبدد من ضجره.
- «جيد وأنت؟» استقبله ربيع بجواب فاتر.
- «لست على ما يرام يا أستاذ ربيع، أن ركبتي تضايقاني دائما وكثرة الوقوف لا تساعد. لدي آلام في فقرات ظهري السفلية.»

تذكر حينها أن فوزي يهوى الشكوى من مشاكله الطبية لموظفين البناية ولقد نبهه رئيس التحرير تكرارًا بعدم تضييع وقت الموظفين. فرد ربيع بخجل من برودة جوابه وسأله:

- «هل ذهبت إلى الطبيب؟ أن جدتي لديها نفس المشاكل.»
- «وكيف حال جدتك؟ قل لها أن فوزي يبعث أحر تحياته» قاطعه الفَرّاش.
- «أنها بخير، سوف أخبرها مساء اليوم، عفوا احتاج الذهاب إلى مكتبي.»
- «طبعا يا أبني هل تريد الشاي؟»
- «بالتأكيد لكن قلّل من السكر لو سمحت.»
- «هل تحبه داكنا أم فاتح اللون؟» كان فوزي يعلم جواب ذلك مسبقا.
- «داكن رجاء.»

دخل ربيع مكتبه وجلس على مقعده وتنهد بحسرة، نظر إلى كم الأوراق المتروكة على طاولته وقال لنفسه «يا ليتني أرى يوما واحدا دون شهادة وفاة» ثم تسأل «كيف سوف أكتب كل هذه التعازي».

تنحنح وأخذ يعد الأوراق بين أصابع يده الرفيعة وتذكر انه قد نسى سؤال فوزي عن الحصان السائب. تطلع إلى أسماء شهادات الوفيات وكانوا كلهم من أهل المدينة، ولدوا وماتوا فيها. «يا ترى أين سوف أموت ومن الذي سوف يكتب نعيي في الصحيفة؟»

دخل فوزي الغرفة طارقا الباب وقال:

- «تفضل أستاذي» ووضع قدح الشاي الداكن على الطاولة وتركت حرارة القدح الزجاجي حلقة بيضاء على الخشب الفاتح.

حدق ربيع في قاع القدح الشفاف فوجد تلا من السكر يقبع بداخله فأخذ ملعقة الشاي النحاسية وخلط المشروب، تطايرت حبات السكر كحبات ثلج سجنت في كرة زجاجية.

- «شكرا يا عمي لدي سؤال لك» أخذ رشفة ساخنة من الشاي.
- «تفضل» وضع صينية الشاي على صدره كدرع يحميه من السؤال القادم.
- «أتعلم ما قصة الحصان الواقف خارج البناية؟»

رفع حاجبيه مستغربا من هذا السؤال إذ توقع سؤالا عن صحته أو متى سوف يتقاعد.

- «بصراحة أنا لا اعرف لقد ظهر في يوم من الأيام، مختبئا في ظل البناية ويشرب من ماء الحنفية المتسرب. شكله عجوز مثلي» ضحك بسفاهة كاشفا عما تبقى من أسنانه الصفراء التي لطخت بسواد الشاي والقهوة كقطعة قماش عتيقة رقعت باستياء.

هز ربيع رأسه موافقا وشكره مرة أخرى، خرج فوزي تاركًا ربيع يتعرف على أشخاص دثرهم الزمن ولم يبق منهم إلا شهادة وفاة. وضع ورقة بيضاء داخل آلة الكاتبة بدون تفكير، قاس الهامشين وتأكد من مستوى السطر. علمه رئيس التحرير مبادئ الطباعة في يومه الأول، رن صوت معلمه حين قال له عليك بالتأكد من بكرتي التحبير وضبط المسافات بين السطور.

تصفح شهادات الوفيات وكانوا من كل شرائح المجتمع بمختلف الأعمار والطبقات، كبارا وصغارا فلا يفرق الموت بين الغني والفقير. أخذ أول شهادة وكتب: «جواهر مبارك، ٦٣ عاما، ماتت في نومها. سوف يفتقدها زوجها وأطفالها مع أحفادها». أخذ ربيع رشفة من الشاي ونظر إلى السطر المطبوع، قرأه بصوت عال مرتين ونقاه من عيوب إملائية. لم يحس بمشاعر حميمة تجاه جواهر فتحدى نفسه بكتابة نعي أجمل. أخرج الورقة الملوثة ببصمات الطابعة من حروف وحبر أسود ووضع ورقة جديدة وطبع مرة أخرى.

- «جواهر مبارك، ثلاثة وستون عاما من العطاء. يا جواهر حياتي لقد فقد البيت نوره وفقد الأطفال امًا غالية. حتى وأنت بعيدة عني، اشعر بك في قلبي وأستعرضُ شريط حياتنا معا في عقلي كل ليلة. لن أقول وداعا، بل سوف أقول إلى اللقاء.»

وقف بنشوة أسد مهنئًا نفسه وقال «الآن بدأ الأبداع، ألف رحمة عليك يا جواهر بنت مبارك» رجع إلى مقعده وطرق الطاولة العتيقة بأصابعه. برد الشاي نسبيا فصغرت الحلقة البيضاء وأصبحت هلالا نحيفًا. أخذ شهادة ثانية ولم يهتم بصاحبها مثل جواهر فكتب وهو يطرق مفاتيح الكتابة ويسمع رنة جرس الطابعة مع نهاية كل سطر.

- «يوسف هاشم، ١٦ عاما توفي بعد صراع مع مرض مزمن، الدفن بعد العصر.»

وهكذا مر ربيع على مختلف الأسماء والأجناس والأعمار. ركض الوقت سريعا فشهادة بعد أخرى، وازدادت الأوراق المطبوعة حتى توقف عند

شهادة شدت انتباهه. كانت لصبي في السادسة من عمره ولم يعتد على رؤية شهادة وفاة بهذا العمر.

- «يا ترى لماذا مات صغيرًا، هل أصابه مرض؟ هل سقط من مكان عال؟ هل توقف قلبه عن الخفقان؟»

دارت الأسئلة كنحل دؤوب داخل خلايا مخه. يموت معظم سكان المدينة بسبب الشراهة إذ يأكلون بشغف وتلذذ. حتى اجبر ذلك الملك الأول لإضافة «الشراهة» إلى القواعد الذهبية لكن وزارة الأخلاق وجدت صعوبة في تطبيق هذا القانون.

- «انه صبي» وقف بحسرة وتمنى لوكان لديه شباك واحد في مكتبه يطل على الخارج ليرى نخلة تطرح ثمارها كهدية لإله الشمس. يا ترى هل هنالك عدالة في حكمتك يا رب؟ تعطي وتأخذ كما تشاء؟ تشرق صباحا وتغيب مساءً تاركا عبدك دون ضمان؟ هل سوف تحمينا من حيوانات مفترسة تريد التهامنا ليلًا وهل تساعدنا على اجتياز مطبات الحياة؟ ولكن هل للحياة طعم بدون كفاح ونضال؟

وضع ربيع يده على الجدار الموازي وفقد توازنه للحظة فجلس مرة أخرى، صاح بصوت مكبوت «فوزي» دخل الفَرّاش مبتسما والصينية تطوف فوق أصابعه وقال:

- «أمرك أستاذ.»
- «لو سمحت قدح من الماء البارد وشاي آخر» وضع يده على زر قميصه ورغب بفتح ياقته لكنه توقف للحظة. أقترب فوزي من الطاولة ليأخذ القدح القديم ورأى شهادة الوفاة للصبي وقال:
- «هذا جميل المسكين» تغيرت نبرة صوته وتنحنح بشجون.
- «هل تعرفه؟ ماذا حصل له؟» سال ربيع.
- «انه جميل ابن قاسم، أمه خبّازه في المنطقة» ثم أكمل «يا للأسف ما أحزن أن يموت الطفل قبل والديه.»

- «هل تعرف كيف مات؟» بدأ يفقد الصبر تدريجيا.
- «ذهبت إلى الفرن لشراء حزمة من الخبز فوجدته مغلقا وعندما سألت جيرانهم قالوا إن اخوه قد قتله.»
- «ماذا تقول؟» واتسعت بؤرتا عينيه باستغراب.

أكمل فوزي الكلام وأطراف أصابعه تدلك حافة القدح وقال:

- «قال الناس أن جميل كان يلعب مع اخوه الكبير جمال في الشارع وحينها بدأ شجار بينهما. أخذ جمال المنجل وضرب رأس أخوه بقوة، تدفقت بعض قطرات دم وردية وركض إلى والدته باكيًا، تركت العجين والفرن وعالجت أبنها بضمادات بسيطة معتقدة أن الخدش سطحي وشعرت بالراحة عندما توقف الجرح عن النزيف. ولكن عندما استيقظوا صباحًا وجدوه ميتا في فراشه. استدعوا الطبيب الشرعي وبعد مجموعة من الإجراءات الطبية التي استغرقت عدة أيام، وجدوا عقدة دم متخثرة داخل الدماغ وهذا ما سبّب جلطة دماغية أدت إلى الوفاة.»
- «وأسفاه» رد ربيع مندهشا فلم يسمع بشيء من هذا القبيل.
- «أن الرب له حكمة في كل شيء.»
- «نعم، نعم» امتزج رد ربيع بسخرية ثم أكمل «شكرا يا عمي لقد أوضحت كل شيء. لو سمحت اجلب الشاي بسرعة لدي صداع يشق رأسي إلى نصفين.»
- «حاضر» وخرج فوزي من الغرفة مدمدمًا.

لم يعرف ربيع ماذا يفعل بعد ذلك وتسأل مع نفسه «هل هنالك كلمات كافية لتعزية أم عن فقدان ابنها، هل يذهب بنفسه لرؤية الأهل؟ لقد أنتهى وقت العزاء لذلك سوف يكون وجوده غريبا، ماذا عن جمال؟ هل حبسوه؟ هل يعاقب بنفس درجة المجرمين بعد أن قتل اخوه بالصدفة؟ أسئلة كثيرة يا إلهي» وحينها ومضت عيناه بفكرة جديدة وقال لنفسه «سوف اذهب إلى الفرن لأشتري رغيفا من الخبز واسأل عن أم جمال بنفسي.»

رجع فوزي بقدح جديد من الشاي الداكن وكأسا من الماء الذي تكثف البخار على سطحه بسبب حرارة الغرفة. تراكمت القطرات فكونت بحيرة على مدار قاع الكاس، خرج فوزي بخفة ووضع ربيع ورقة بيضاء في الآلة الكاتبة واستعار لحظة ليفكر بتمعن فلم يكتب نعي لطفل من قبل، هل يكون رحيما أم قاسيا؟ وبدا بالطباعة.

- «نعي لطفل برئ: لقد توفى جميل قاسم فجأة عن عمر لم يبلغ السادسة وكان محاطا بوالديه وتوأم روحه أخوه جمال. فلن يكون هنالك جميل بدون جمال ومنظرهما سويا يدل على اكتمال خلقهما. لتطوقك الملائكة الربانية إلى الأبد ولتنام في مهدك الأخير بأمان.»

أخذ رشفة من كاس الماء البارد وداعبت أصابعه الماء المتناثر على سطح الطاولة محاولا كتابة شيء مفهوم، ولكنه انتهى بخزعبلات أشبه بضربات فرشاة رسام فاشل. سمع طرقتين على الباب ودخل رجل معتدل القامة تشع طاقة هائلة من عينيه وقال «مرحبا.»

وقف ربيع احتراما ومسح أصابعه المبللة بجانب بنطلونه بخفة وطلب من الرجل الجلوس. لقد لمحه من قبل في زوايا المكاتب، رجل لا يحب الكلام كثيرا وتتعسر الابتسامة على فمه، لكن ربيع فسر الأمر بأنها صفة من صفات الكهل. كان الرجل في منتصف الخمسينات ولم يكذب وجهه ذلك، بدى ذقنه المحلوق أخضرًا كتربة مبللة وزحف الصلع إلى صدغيه. كان يرتدي قميصا أزرق اللون طويل الكميين ويضع ثلاثة أقلام رصاص في جيب قميصه الأمامي.

ترك الرصاص سوادا حول أصابعه الرقيقة وما بين أظافره ولم يدرك ربيع ماهي وظيفته في الصحيفة، لكنه انتبه لشاربه المضفور كحبل متين يستخدم لشد السفن إلى المرافئ، فلم يعد الشباب الأن يربون شاربا كهذا بعد الأن.

دفع الكرسي بيده اليسرى وجلس الرجل بارتياح وبعد بعض الآهات قال:

- «اسمي طلال وأحببت أن أسلم عليك. متى بدأت معنا؟»

دخل الشك في نفسه فلم يعرف لماذا يزوره الرجل فرد بتردد:

- «اسمي ربيع. لقد بدأت معكم منذُ أسبوعين، هل تحب أن تشرب شيئا؟»
- «لا داعي لأن تتعب فوزي فهو رجل مرهق.»
- «كما تطلب يا أستاذ» شعر بجفاف حنجرته، ولكنه أحس بالخجل وهو يشرب الماء البارد أمام الرجل الغريب.
- «ربما تتساءل لماذا جئت لزيارتك؟»
- «بصراحة نعم.»
- «لقد علمت أنك تكتب نعي الوفيات في صحيفتنا وهذه وظيفة لرجل مسن. فما رأيك بتعلم مهنتي؟ لقد كبرت كما ترى وأحب أن أتقاعد وأريدك خليفة لي بعد رحيلي.»
- «وهل يقبل رئيس التحرير؟»
- «لقد تكلمت معه أولًا وأوصى بك.»
- «عذرًا، ولكن ماهي مهنتك؟»
- «أنني أصمم الكلمات المتقاطعة منذ ثلاثين سنة ولم يبق لدي قوة نفسية لذلك، بدأت شعلة النار في أعماقي بالتضاؤل.»
- «لا أعرف كيف العب هذه الأحجية حتى أستطيع أن أصممها.»
- «لا عليك، سوف أعلمك كل شيء» ووضع الرجل أصابع يده اليسرى على الطاولة متأملا.
- «أن كتابة النعي تجعلني كئيبا فليس هنالك كلمات في الدنيا تكفي لنعي طفل أو أم.»
- «دعنا نبدأ غدا» وقف طلال وسلم على ربيع بيده اليسرى.

أرتبك ربيع بعد مد يده اليمنى ثم سلم على طلال باليسرى. شعر بإحساس غريب يدور في أحشائه، فلم ير يد طلال اليمنى إطلاقًا طوال زيارته فكانت مندسة في كم قميصه.

ضاق تنفسه وانكمشت رئتاه، أخذ رشفة من الماء ليبلل ريقه الناشف. ازدادت وحدته بعدد الثواني وغشاه حزن غلّفه باكتئاب ثقيل، تغيّر مكتبه إلى زنزانة صغيرة الحجم تتحرك جدرانها نحوه ببطء. بحث عن ساعة جدارية معلقة على الحائط، ولكنها كانت عارية من عقارب طويلة أو قصيرة لتدله على الوقت.

هرع بالخروج من مكتبه الذي أصبح أقرب إلى قبر وتبع ضوءًا يتيما إلى الخارج، توقف بجانب الباب وأخذ نفسا عميقا. كان الحصان في مكانه يحك جلده بالجدار وسمع صوت غناء فوزي في المطبخ، نظر حوله وقال لنفسه «كيف يمكن للإنسان أن يبتكر شيئا جميلا في مكان قبيح كهذا؟» انقطع حبل أفكاره بصوت لم يألفه.

- «ربيع؟»

نظر جانبا وكان رئيس التحرير يدخن غليونا وقال له:

- «هل لديك قميص أبيض؟»
- «نعم» رد ربيع باستغراب.
- «تعال إلى مكتبي بعد الاستراحة.»

◆◆◆

أربع سنوات قبل ولادة ربيع

كان خليل شارد الذهن عند الحلاق عندما سمع شابا مراهقا يتفاوض مع المارة بصوت عال «المسلة لا جريدة ولا مجلة، أشتري نسختك اليوم» وكرر هذه الجملة بمختلف النبرات. اندمج الحلاق بقص شعر زبونه المفضل إذ كان ذلك أسهل وسيلة للحصول على أخر الأخبار من رئيس تحرير الصحيفة الوحيدة في المدينة. اعتاد خليل على قص شعره في أول خميس من كل شهر، أحبَّ السرية التي يعامله بها عقيل صاحب المحل.

هنالك أربعة حلاقين في المدينة، ولكن عقيل أقربهم إلى الصحيفة، ورث المحل أبا عن جد فتعلم الحرفة منذ الصغر بقص شعر زملائه من المدرسة. عريض المنكبين وصدره مرتفع قليلا، ترك أزرار قميصه العليا مفتوحة فخرج شعر صدره الأشيب عشوائيا. نبضت عضلات ذراعه مع كل ضربة مقص وبرزت الشرايين من خلال جلده الأسمر. غطى الشعر الكثيف ذراعيه كحقول الذرة ونبضت عروقه بانسجام على نغمات المروحة الهوائية. يُسمع صوت المكبرات الصوتية بين الحين والأخر لكنها كُتمت بصخب السوق.

صرخ الشاب «أخر أخبار المقاومة، اليوم إعدام رئيس العصابة، اشتري المسلة». سُعد خليل بإصرار البائع ومهارته بجذب القراء وارتسمت نصف ابتسامة على شفتيه للحظة ثم مسحها بحرفية فلقد أعتاد التعامل مع تعابير الوجه كما يتعامل مع الجمل والكلمات الزائدة حين ينقح المقالات اليومية بقلمه الأحمر بلا مبالاة.

نظر إلى وجه الحلاق في المرآة الذي كان مستغرقا في عمله، مقص في يد ومشط أسود في الأخرى. تشابهت تضاريس وجهه مع من عاصره من الرجال. شق الزمن نفسه في جبينه كأنهار تتدفق نحو بحر تصب فيه، وغار شعره من معاملة صاحبه لرؤوس زبائنه فاحتج وتسلل تدريجيا مع الشعر المقصوص على الأرض تاركا خلفه أرضا مهجورة لذلك أصبح عقيل أضحوكة المدينة وسمي بالحلاق الأقرع.

سأل عقيل وهو يضع لمساته الأخيرة:

- «هل أمسكوا بمن لوث مياه النافورة؟ أتمنى لو تفتح مرة أخرى.»
- «نعم لكنهم لا يعرفون إن كان جزءا من مجموعة أو كان لوحده، فما يزال التحقيق مستمرا.»
- «لا أحد يهرب من الشرطة، سوف يجدونهم جميعا. لا بد أنهم عذبوه واستخلصوا جميع المعلومات منه قبل إعدامه.»
- «بالطبع، ولكن ليس هنالك مبرر للإعدام الشعبي. كيف سوف تشعر أمه حين ترى أبنها يُشتم من قبل المارة.»
- «بالتأكيد، وأين سوف يعدم؟»

تنحنح خليل وهو ينظر إلى الحلاق منتهيا من قص شعره الكثيف وأجاب:

- «في ملعب كرة القدم.»
- «اللعنة سوف يمتزج العشب الأخضر بالدماء. هل تعتقد أنهم سوف ينظفون المكان خلفهم؟»
- «بصراحة ليس لدي علم بذلك.»

وقف خليل وتمعن في المرآة لبرهة، ثم أخذ إحدى المقصات الصغيرة وقلم شعر شاربه بأناقة. دفع حسابه وخرج باتجاه المقهى، ورأى البائع يتوسل بالمارة لشراء صحيفة واحدة. احتاج خليل لهذا الروتين الأسبوعي فبعد حلاقة الذقن أو الشعر يتمشى نحو المقهى ويلتقي أصدقاءه من الأدباء والشعراء. ارتبكت قدماه قليلا ومشى بخطوات فيها نكهة الحماس، إذ كان متشوقا

للقاء زميله المندوب الملكي حتى يتسمع أخر أخبار الملك المريض. مرت سنة كاملة والمرض ينهش بلحمه كصقر فلم يبق طبيب أو ساحر لم يستشر من قبل العائلة الملكية. قُيّد إلى فراشه وسلم سيطرة مطلقة على الأمن العام لابنه سرجون الذي اعتبر عملية النافورة صفعة شخصية له ولعائلته.

أصبح البحث عن المقاومة أول أولياته، فحرث الأرض باحثا عن كل معارض وزرع العيون في كل زوايا المدينة. امتلأت المدينة بالرعب تدريجيا، وأصبح الأمن عملة نادرة بين نزلائها. تمشى خليل وتمعن بلون السماء الذي امتزج بخيوط ذهبية فيها ظلال حمراء. هبت نسمة هواء باردة رطبت الجو الحار، وامتد الغسق على مدى البصر، غابت الشمس ببطء فاتن تجلل أهل المدينة فيه. تنزه الكبار في شوارعها ولعب الصغار في أزقتها، وفاض ضجيج زبائن مقهى البلدية على جانبي الرصيف.

أندمج ضجيج الناس مع زمجرة المكبرات، فاجتهدت الحناجر المبللة بالشاي والقهوة بتسليط الأفكار العابرة بتركيز مبهر. تلاطمت جلجلة الأقداح مع دحرجة النرد على إحدى أوجهه السداسية وتغير عدد الطاولات مع عدد الزبائن الذين وزعوا حسب المهنة أولا وشغفهم ثانيا.

دخل خليل المقهى وأستقبل بتحيات مرحبة من مختلف الطاولات واتجه نحو طاولته المفضلة التي رُكنت في إحدى الزوايا. فضل هذه الطاولة عن غيرها لمجاورتها لشباك يطل على الشارع وبُعدها النسبي عن بقية الطاولات، ولكن أفضل حسناتها قربها من المطبخ. طلب قهوة وبعض الطعام الخفيف ليمضي وقته منتظرا صديقه. تمعن بمن حوله وشعر بفخر عندما وجد بعض كبار السن يقرأون الصحيفة. يتفادى أي نقاش عن مقالات الصحيفة خارج ساعات العمل فلكل إنسان رأي ومن الصعب إرضاء جميع متطلبات القراء، فمنهم من يفضل زيادة في المقالات السياسية والتقليل من قسم يوميات المدينة. إذ لا يعرف جميعهم أهمية رئيس التحرير للصحيفة، أنه قبطان السفينة والواعظ الأول للسياسة الراهنة فهو من يقرر المساحات المنشورة ويقبل بنشرها أو رفضها.

وعندئذ تذكر مراسيم الإعدام التي سوف تجري مساء اليوم فلقد أرسل مراسلين ليغطيا هذا الحدث غير المسبوق، فهو لا يتذكر إعداما شعبيا كهذا من قبل.

لا يبعد ملعب كرة القدم إلا بعض دقائق مشيا على كل حال وربما بإمكانه أقناع راشد بالذهاب معا. أخذ رشفة من فنجان القهوة وأكل طعامه بأمان ولمح المندوب الملكي وهو يعبر الشارع قادما. انتبه لارتدائه لمعطف جديد والتفتت بقية العيون في المقهى إليه فلم يعتادوا على منظر الأشياء الثمينة في هذا الجزء من المدينة.

استقبل راشد بنفس الحيوية عند دخوله المقهى ورحب بالجميع وجلس بجوار خليل والدفء ينبض في أعماقه فلقد كان برفقة صديق قديم.

- «كيف حالك يا راشد؟» توقف خليل عن مضغ الطعام.
- «بخير يا صديقي، لقد بدأت الأكل قبلي؟» نزع راشد معطفه ووضعه برفق على حافة الكرسي.
- «عفوًا لم أتناول الطعام منذُ الصباح، هل هذا معطف جديد؟»
- «كلا لقد امتلكته منذُ مدة طويلة» ومد يده إلى البطاطس المقلية.
- «لم أراه من قبل، شكله جديد» وقرب صحن الطعام لمنتصف الطاولة.
- «انه عتيق، لماذا اكذب عليك» قالها بسخرية وهو يمضغ الطعام الدافئ.

مر النادل بجوارهما فأمسكه راشد من ذراعه بأحكام وطلب منه شايًا حارًا ورد النادل باحترام ورجع إلى المطبخ بسرعة. مضغا الطعام وامتنعا عن الكلام فكان هذا وقتهما المقدس الذي يخلو من كل مسؤوليات الحياة، لا صحيفة تحتاج إلى طاغية ولا حكومة تحتاج لمندوب. رجع النادل بقدح من الشاي والبخار يتأرجح مع تيار الهواء القادم من مروحة عتيقة علقت فوق زاويتهما الخالدة. فرغت الصحون ولم يبق سوى بقع زيتية وبقايا نوى الزيتون الجافة.

- «كيف حال الرضيع؟» رجع خليل إلى الوراء وارتكز على حافة الكرسي.

- «سامي لا ينام الليل مطلقا» مسح راشد يده بمنديل ترك بجانبه.
- «ومن نصحك بإنجاب المزيد من الأطفال في هذا العالم البشع؟»
- «وهل تعتقد انه كان لدي رأي في هذا الموضوع؟ لن تتعلم حكمة الحياة الا بعد الزواج.»
- «سوف أبقى عازبًا فلقد تزوجت الصحيفة وهي تملأ كل فراغ في حياتي.»
- «لا اصدق هذا الكلام، خليل أنك رجل وسيم ولديك وظيفة جيدة كل ما عليك ان تجد فتاة ملائمة لك.»
- «على أي حال يا صديقي أريد أن أحضر الإعدام، هل تحب بالذهاب معي؟»
- «بالتأكيد دعنا نذهب سويا.»

أكمل راشد ما تبقى من شايه وأخذ قطعة من رغيف الخبز ومسح بها ما تبقى من زيت والتهمها بشهية ثم أرتدى معطفه بمهل متأكدًا من أغلاق كل الأزرار على صدره. سلما على بقية الزبائن واتجها إلى الملعب بلا مبالاة. نزلت الشمس بأكملها وغرقت نجوم السماء بالظلام. وقطعت قطة سوداء طريقهما تسترت بالليل ولم يكشفها إلا بريق عينيها كالماس. تمشى الصديقان بين الأزقة التي ترعرعا فيها فألفا شوارعها الضيقة واعتادا على الروائح الحامضة. قال خليل مباغتا:

- «سامي، سامي كلب حرامي.»
- «سرق اللقمة من أمامي» أكمل راشد بعفوية وضحكا سويا.

برزت كشافات الملعب في الأفق الذي خلا من قرقعة الطبول وضجة الجماهير مما جعل منظره مريبا. شدَّ راشد معطفه على صدره وأسرعا بخطواتهما، شعرا بالجو المشحون كلما اقتربا من الملعب. أحسَّ خليل جيدًا بما يحدث مساء اليوم، إذ أن ذلك سوف يبعثُ برسالة طارئة لبقية عناصر المقاومة، وهي أن ولي العهد ليس لديه وقت للهراء. اهتم راشد بردّ فعل الناس فالإعدام العلني خالف كل الآداب والأخلاق التي نشأوا عليها منذ الصغر.

كان خليل مستعدا عقليا ونفسيا وأنجذب بالفطرة إلى الحدث ولم يترك منزله بدون قلم رصاص وقلم حبر مع دفتر ملاحظات قبع في قعر جيبه. داعب القلم بين أصابعه باحثا عن دفء وضغط على جسده فأستدار كخاتم بين أنامله، عندها تذكر فارس وسمر وتساءل مع نفسه هل سوف يجدهما بسهولة؟

«هل فارس هو الصحفي المناسب لهذا الحدث؟ أصبحت كل مقالاته محبوكة من نسيج معارض لحكم العائلة ولقد حثّه دائما على تغيير نغمة المعارضة حتى لا يقع في أي خطر. وماذا عن سمر؟ هل كان ارسال فتاة في بداية حياتها المهنية إلى إعدام قرارا جيدا؟ لقد لاحظ انجذابها روحيا وجسديا لفارس في السنة السابقة ولذلك أحبَّ جمعهما في مهامٍ معا وحتى أسماهما بالثنائي المتناقض. فارس متشائم الروح وسمر متفائلة المزاج.»

اقتربا من بوابة عملاقة يهدر من خلالها هواء بارد فيداعب الأعلام المرفوعة والصور الملكية، لاحظ خليل صورة ضخمة للملك وهو يحيي الجمهور بيده اليمنى مرتديا زيا مدنيا، تشع على وجهه ابتسامة صادقة ذكرته بحب الأب للابن. توقفا ونظرا إلى مجموعة من المدنيين واقفين بجانب إحدى أهداف المرمى وحولهم خمسة رجال من وزارة الأخلاق مرتدين زيهم العسكري.

- «دعنا نجلس هنا» قال خليل وهما يجلسان على إحدى الدرجات الباردة وفقدا الشعور بمؤخرتهما بعد فترة وجيزة.
- «أتعلم أني لا أتذكر أخر مرة جئت بها إلى الملعب» قال خليل باحثا عن نار تدفئه في أحشاء جيوبه.
- «لقد كنتُ هنا في أخر بطولة لكرة القدم. جئت لتقديم الكأس» سحب راشد الجملة كلمة بعد الأخرى وارتعشت أسنانه.
- «دعنا نبقى هنا بعيدا عن بقية الناس» ثم تساءل في وجدانه «أين فارس وسمر يا ترى؟»

نظر خليل باتجاه هدف المرمى وتمعن باحثا عن كادر الصحيفة وسط حشد الناس ووجدهما يجلسان على حشيش الملعب يتناولان مشروبا حارا يتدفق بخاره كدخان قطار يقطع سكة الحديد بعجلة.

لوح بذراعه لهما لكنه فشل في جذب انتباههما وقال راشد «دعنا نذهب إلى هناك، نكون أقرب إلى الحدث» وأشار بأصبعه نحو الهدف.

رد خليل بسلبية طاردا الفكرة «لا أريد أن أكون مساهما في هذه المسرحية، بل متفرجا فقط.»

- «دعني أخبرك عن أخبار الملك، فلا أحب قراءة أخبار جديدة في الصحيفة.»

أبتسم خليل وأخرج دفتره ليكتب ملاحظاته فهو لا يتوقف عن العمل حتى في مساء الإعدام.

- «عجز كل الأطباء والسحرة عن معرفة سبب علته الصحية وحتى سألنا الكاهن الذي أستخدمه الملك بين الحين والأخر لقراءة كف اليد وتفسير كوابيسه. وبعد الفشل المتواصل طلبنا من إحدى المدن المجاورة الاستعانة بأفضل طبيب لديهم وهو الذي وجد المرض» قالها راشد بنبرة متفاخرة إذ كانت فكرته أن يتم إحضار طبيب آخر ثم أكمل «وبعد فحوصات شاملة استمرت لعدة أيام ودراسة عينات وجدوا أن لدى الملك ورم في المريء.»

لم ينطق خليل بكلمة واحدة فرتب الأحداث في مخيلته بينما ما تزال عيناه تصطاد زملاءه ثم أصغى إلى راشد مرة أخرى.

- «يؤثر الورم على المعدة والجهاز الهضمي كله، لذلك لا يستطيع المريض تناول الطعام والشراب. الجوع والمرض توأمان جعلا من جسده غربالا ولم يبق منه الا جلد طرز على عظام هشة.»
- «هل سوف يموت قريبا؟» سأل خليل باحتراف.

- «لقد أعطاني الطبيب سنة على الأكثر فانخفاض وزنه يؤثر على مناعة الجسم وتوقع الطبيب أن مرضا بسيطا كالزكام سوف يقتله قبل انتشار الورم» رد راشد بحزن.
- «يا لها من نهاية بشعة، وماذا عن ولي العهد؟»
- «ما تراه اليوم هو البداية، هل تعرف ما هي هوايته المفضلة؟»
- «كلا» رد بسرعة نافيا دعوة للتخمين.
- «الشطرنج.»

هز خليل رأسه متفهما فأول ضحايا لعبة الشطرنج هم البيادق وما يراه مساء اليوم يؤكد ذلك.

- «على كل حال يا عزيزي...» وتوقف خليل عن الكلام.

ازدادت أهازيج العامة ودخل شرطيان يدفعان سجينا معصوب العينين وعلا التصفيق والتطبيل، ازدادت شراسة الشرطيين مع السجين فركلاه بأقدامهما وبصقا عليه بحقد. وقف خليل وراشد كشاهدي عيان على جريمة أصبحت قانونا كتب بالدم في دستور المدينة.

قاد الشرطيان السجين إلى هدف المرمى من خلال حشد من الناس وأخذ أحدهما حبلا متينا وربطه بأحكام على عارضة المرمى. شد الحبل عدة مرات ليتأكد من قوته، تقدم شخص من عامة الناس عارضا مساعدته فهز الشرطي رأسه موافقا. كان النظر لمشهد صامت غريب الأطوار لخليل وراشد، سلب السكون السجين من إنسانيته فأصبح كالدمية يرمى بين العسكر والعامة.

- «يا ترى هل سوف يوقفهم أحد ما؟» تساءل خليل مع نفسه.

نظر نحو فارس وسمر فوجدهما واقفين متسمرين بلا حركة فلقد خدّر الجو البارد جميع المشاهدين. وقف السجين فوق كرسي ضئيل مكفوف العينين منتظرا حبل المشنقة ليحشر عنقه ويسحق شرايينه. هلّل شهود العيان حين أحكم الحبل الغليظ على رقبة السجين وأبتعد الشرطيان عنه، تمايل السجين مع النسيم موازنا نفسه على أطراف أصابع قدميه.

- «أشعر بالبرد هل تعتقد انه سوف يبقى واقفا لمدة طويلة؟» تساءل راشد محتضنا معطفه.

قرص البرد وجه خليل واغرورقت عيناه، نزلت دمعة لسعتها ريح شمالية تصهل كحصان جامح وحينها ركض أحد من عامة الناس وركل الكرسي بعيدا. سقط الجسد ورن صدى العظام المتهشمة حول جدران الملعب. تملك خليل شعور بالغثيان فلم يعهد سماع قصم رقبة إنسان من قبل ورسخ مشهد ركلات الجسد العفوية وهي تبحث عن كرسي في أعماق ذاكرته لعقود طويلة.

وجد سمر تدفنُ رأسها في حضن فارس كحمامة دست رأسها تحت جناحيها وأحتضنها حبيبها ليحميها من كابوس حقيقي. توقف الجسد عن النبض وتركته الروح مهجورا ليتحول إلى مادة لأساطير المدينة وقصصها.

وقف خليل وقال «أنني بحاجة إلى سيجارة.»

ردَّ راشد بنبرة منتصرة «كش ملك.»

◆◆◆

٣

بدأت مكبرات الصوت بالضجيج في أرجاء المدينة عند ساعة غير مألوفة معلنة دعوة الملك سرجون لإقامة صلاة المطر يوم غد. طلبت الدعوة ممن لديه القدرة على الصلاة بالإكثار من التوبة والاستغفار لعل إله الشمس يستجيب لدعواتهم وييّسر من طلباتهم. فُتحت بعض الشبابيك لبرهة ثم أُغلقت حينما علم نزلاء البيوت أن الأمر إجباري، إذ كانت طاعتهم للملك تشبه ظل إنسان يتبع صاحبه إلى نهاية المطاف.

أصغت الملكة تمارا في غرفتها لإعلانات المكبرات تتردد على مسامع المدينة التي بُنيت كقصائد نثر فهي تتكون من بنايات قصيرة لم يلتزم المعماري عند تشييدها بوزن أو قافية معينة. نظرت لانعكاس قرطي أذنيها واحدا تلو الآخر. تستمع تمارا بهذا الوقت من المساء حين يخلو القصر من الضيوف والعمال ويتقلص حجمه ليصبح بيتًا يذكرها ببيت طفولتها. أصبحت مراسيم إزالة المكياج تمرينا علاجيا ترجع به إلى فتاة مراهقة، أزالت تاج رأسها وملابسها الرسمية، غمست قطعة من القطن في سائل طبيعي ومسحت جفنيها بها. دلكت كل جفن بحركة دائرية وضغطت عليه لمدة وجيزة. تنفست ببطء وغمرها انتعاش عندما فتحت جفنها وكررت الأسلوب ذاته مع العين الأخرى، ولكن بقطعة قطن جديدة. وبعد أن تخلصت من كل المكياج غسلت وجهها بسائل أُعد لها من قبل الطبيب الملكي.

كرست كل طاقتها لإيقاف تأثير الزمن على جمالها، وتمنت لو كان باستطاعتها عكس عقارب الساعة لترجع كما التقاها سرجون في أيام شبابها لفعلتها بدون تأنيب للضمير. وكل ما فعلته من تمارين رياضية والالتزام بالطعام وتلوين الشعر والعناية بالوجه يؤكد بذلك، لكنها بقت مرتاحة البال فلن يجد سرجون امرأة بحسنها أو بصبرها الواسع فكانت غريمة له في كل قرار يُتخذ في المدينة وغالبا ما ينتهي كل نقاش بينهما بسجال طويل.

علمها والدها ألا تكون ضعيفة الإرادة ولسوف يشكل عنادها الجاف في صباها اقوى صفاتها. أما صبرها على كسل سرجون في بداية زواجهما واستهزائه بمنصب الملك فلا يُقدّرُ بثمن. فليس هنالك ما يكفي من التماثيل أو اللوحات ليظهر دورها وتمنت حذف كلمة «وراء» في المقولة الشهيرة وتغيرها إلى «بجانب» كل رجل عظيم.

اقتربت من المرآة وتمعنت بجفن عينها الأيمن وفتحته بأصابعها المرهفة كجراح يفتح جرحا متقيحا. تسلقت شعيرات دموية طفيفة من باطن جفنها الداكن نحو بياض عينها كمرجان أحمر. أغلقت العين العارية نفسها لتحافظ على ما تبقى لها من شرف وأخذت تمارا منديلا صنع من قماش بحجم راحة يدها وغمسته بماء بارد. ربتت بالمنديل المبلل على جفنها المسدل فارتاحت عينها وأرتخى جفنها كمحارة وقعت في حب صياد وعندما فتحت فمها لتقبله باغتها وسرق قلبها ولؤلؤتها.

مشطت شعرها بمشط عاجي أهدته والدتها إليها حين كانت في العشرين من العمر، وعندئذ لم يكن الزواج على بالها إطلاقًا. عاشت مع والديها وأختها الصغيرة في مدينة بعيدة. يعود توقد ذهنها إلى العمل مع والدها في محل الذهب مما جعلها تتفوق في دراستها. حثها والداها على إكمال دراستها وعندما أهملت واجباتها اليومية ذكرّها والدها بأن أساس كل إنسان هو التعليم، فلم يرد لها بأن تقع في نفس أخطاء الحياة.

تقضي أمها الأمية معظم وقتها في البيت صباحا، بين مهام الطبخ والتنظيف، وعندما تغيب الشمس تجلس على كرسيها المريح وتتمتع بإزالة الشوائب من حبيبات العدس. ما تزال رائحة حساء العدس الأصفر في الليالي الباردة في خياشيم تمارا وملمس بقايا البصل المقلي بين أسنانها.

كانت هواية والدتها الوحيدة الحياكة كبقية نساء المدينة، تقعد جنب الشباك وتحوك مختلف الملابس. أهدت ابنتها لحافا ليوم زفافها. حاكته لها على امتداد أيام خطوبتها وقالت لها انه سوف يجلب لها الحظ السعيد. عندما ولدت أمنية قبل عقدين كانت هدية ميلادها الأول معطفا صوفيًا ليحميها من شتاء المدينة القارص. كان المعطف أحمر اللون وتناثرت على قماشه السميك دوائر سوداء متناسقة. استيقظت من أحلام اليقظة وارتعش جسدها شوقا لتلك الأيام، فما تزال تلك الطفلة التي تركض في الحارة كي تجلب الطعام إلى دكان أبيها وقت الغداء. وضعت تمارا المشط على المنضدة ودوّرت خاتم زواجها في أصبعها.

يقع محل والدها مع بقية المحلات في سوق الذهب، وكانت تذهب إليه بعد المدرسة وفي العطلة الأسبوعية. ترجع إلى البيت ظهرا فتغسل وجهها وقدميها وتلبس ملابس ملائمة لجو السوق. يعجُّ السوق بالرجال من مختلف الأعمار وغالبا ما تُثير رؤية فتاة مراهقة بينهم الشهوة التي تمتدُّ كشرخ في مبادئهم وتقاليدهم. لذلك نصحها والدها بالاحتشام وارتداء ملابس بألوان باهتة حتى لا تجذب انتباه الآخرين، كانت ترتدي على الدوام فستانا رمادي اللون يصل إلى أخمص قدميها وتغطي شعرها بفوطة رمادية.

تمشي باتجاه المحل مطأطأة الرأس مثل بجعة انكسر كبرياؤها تحمل الطعام «بسفرطاس» نحاسي اللون. كانت الأطباق مزينة بمختلف الأشكال الهندسية بينما نقش النحاس بزخارف أنثوية. أصبحت يداها كميزان الذهب تستطيع معرفة الطعام من وزنه. كان حمل الطعام صعبًا عندما تكون الأطباق مملوءة بالرز والمرق مع بعض اللبن وبضع تمرات ورغيف خبز. كان

عليها استخدام كل طاقاتها لحمله باتزان طول الطريق، وكانت تشعر بأنها محظوظة حينما تكون الأطباق خفيفة في بعض الأيام.

يسمع والدها اصطكاك الملاعق والأشواك فيستقبلها مرحبا بها بحرارة خارج المحل محتضنا إياها بقوة، أما إن كان الغداء فاصوليا بيضاء مع الرز وتكون قد اشترت له مسبقا بصلا أخضر من البقال عندها يكون استقبالها ملكيا. ابتسمت تمارا لكن شفتيها رفضت السعادة وقاومت البكاء فعضت على شفتيها ونزلت دمعة حارة يتيمة على خدها، مسحتها بقطعة من قماش ملابسها وتمنت لو أن بالإمكان إزالة الألم بهذه السهولة. ترحمت على والديها ودعت لإله الشمس أن يسبغ الرحمة على روحيهما فلقد اشتاقت لأكل أمها ورائحة ملابس أبيها. وقفت وركنت همومها بجانب منضدة الزينة، وتمشت نحو دولاب ملابسها وعندها صادفها انعكاسها على مرآة جانبية تفحصته بتمعن وترك انطباعًا سيئًا. فتحت باب الدولاب بخفة يد وابتسمت ابتسامة خفيفة عندما رأت ملابسها بألوانها البهيجة. لبست قميص نوم أبيض وانهارت على فراشها، غطت جسدها بلحاف وعانقت مخدتها بشدة. سالت دمعة من جفنها المغلق مارا بتدويره أنفها وبللت شفتيها الظمآنتين، مسحت دموعها بالغطاء وتذكرت دكان أبيها.

دُلعت بلقب الدعسوقة من قبل والدها لعشقها البحث عن هذه الحشرة المرقطة في الأحراش. حثها على تعلم صنعة صياغة الذهب لرقة أصابعها ونعومة لمستها في نقش الذهب وصقله فلقد ورثت صبر أبيها ومهارته في صناعة الخناجر وتشكيل الفصوص. علمها المهنة لكي تساعده حينما يتقدم في السن وتثقل يداه، ورثت مهنة الصائغ أبا عن جد فكانت عائلتها من الأسر التي ارتبطت بهذه المهنة. توقع لها والدها نجاحا مذهلا مع زبائن المحل وخصوصا النساء. اندفعت تمارا لقضاء معظم وقت مع والدها واستلذت بسماع قصص الزبائن وأخبار زملائه من الصياغ وحفظت دهاليز السوق عن ظهر قلب.

عشقت ملمس الأدوات الدقيقة وهي تتمرن على قطع الفضة والنحاس ولم تنس اليوم الذي صممت فيه قرطا وحيدا لاذنها من فضة وأخفته تحت شعرها خلسة. أنبها ضميرها ليل نهار واستبدَّ الوسواس كالجراد في حواسها ولم تستسغ طعم الذنب المر فقررت بالاعتراف لوالدها بكل شيء. طيّب من خاطرها في البداية وحذرها بشدة فكسب ثقة الزبائن من أولويات الصائغ. اشتاقت لمحل والدها الذي كان يتألق مع بقية محلات الذهب في السوق، كان سقفه مزينا بعشرات من أضواء ساطعة سلطت كل طاقتها على الذهب المعروض تحتها. يدخل الزبون المحل فيثير انتباهه تألق المجوهرات كموجات البحر تتلألأ تحت ضوء الشمس، يتلاشى الوقت ويفقد معناه فلا يفرق الناس بين الصباح والمساء. علمها والدها الفرق بين لهيب النار الحمراء والزرقاء لآلة اللحام وكيف عليها بالاستماع للنار كموسيقى فتصغي لهسهسة النار والتحكم بكمية الأوكسجين حتى تصل إلى الشعلة المرغوبة.

كانت تلعب بمقبض قنينة الأوكسجين في وقت فراغها وتضع هدفًا لنفسها بالوصول إلى شعلة نار زرقاء بإتقان تحكمت بها كجراح شق طريقه ببراعة. شمت تمارا أظافرها المصبوغة وتذكرت رائحة البوراكس وهي تطحنه بهاون المحل بكل قوتها وألم ذراعيها ليلًا. تتكسر البلورات وتذوب بسرعة حين تضيف الماء إليها كما علمها والدها وكانت تستعمل فرشاة ذات شعر خشن لطلي المجوهرات قبل استخدام آلة اللحام. أصبحت تمارا ماهرة في مهنتها، وأتكل والدها عليها، وأصبح لديها زبائن من النساء اللواتي يفضلن خفة يدها في تصليح المجوهرات المكسورة.

أخرجت رأسها من تحت اللحاف وأخذت نفس عميقا، جففت دموعها وتورمت شفتاها فأصبحتا أقرب إلى ثمرة ناضجة. سمعت دقات سرجون الثلاثية على الباب ليستأذن الدخول. خافت وتوقف تنفسها للحظة وأبقت جفنيها مفتوحين كسمكة تبحث عن هواء في قعر قارب لصيد السمك. فُتح الباب بهدوء وتوقعت وقع خطواته الثقيلة مما زاد من توترها رويدا رويدا.

صرخت رئتاها من طعنات سكاكين في صدرها وتشنج جسدها محاربًا، ولكنها كبلته بجسارة ولوت أصابع قدميها تمردًا. استغربت من السكون الأزلي في الغرفة ثم سمعت الباب يغلق مرة أخرى بهدوء فأحتفل جسدها وامتدت الاحتفالات لأصابع قدميها فارتخت وبلّلها العرق.

رفعت رأسها قليلا ووجدت كل شيء على ما يرام فقلبت سطح المخدة الندي رأسا على عقب وبحثت عن مكان بارد لتهدأ من روحها المضطربة. تذكرت كيف كرهت المدرسة بسبب غيرة بعض البنات منها بسبب أناقة ملابسها ورصانة شخصيتها، ذكاؤها يباري جمالها في كل خطوة، لذلك تخطت كل المشاكل السطحية مع بقية الطلبة. وبين محل الذهب والمدرسة لم يكن لديها المزيد من وقت فراغ تكرسه لهواية معينة.

تذكرت كيف في إحدى الأيام قبل أن يُصبح سرجون ملكًا دخل أحد الجنود المحل يبحث عن قدح ماء له ولزميله. وعندما سأله والد تمارا عماذا يفعلون في مدينة بعيدة عن مدينتهم ردَّ الجندي بأنهم كتيبة من الجنود يتدربون على مناورات عسكرية ولهذا عاشوا وناموا في الصحراء المجاورة لمدينتهم. وكان قائد الكتيبة ولي عهد الملك الأول الأمير سرجون بنفسه. ملأ والد تمارا جرة من الماء البارد وأرسلها بيد الجندي له ولزملائه. لم تنس تمارا وهي في مطلع العشرينات من عمرها مظهر الجندي بملابسه العسكرية وسط محل الذهب، إذ ضخمت الأضواء الساطعة كل شيء قبيح فيها. داس بحذائه الصحراوي القذر على رخام الأرض الذي كانت تكنسه يوميا فترك بصمة كبيرة في قلبها ولاحظت شراسة بدلته العسكرية التي بهت لونها بسبب حرارة الشمس.

انشغلت تمارا وعائلتها بمجريات الحياة ونسوا زيارة الجندي للمحل وبعد أسبوع كامل رجع الجندي برفقة زميله هذه المرة. وقف زميله خارج المحل منتظرا إشارة من الجندي ودخل العسكري ليملئ الجرة بالماء البارد. استقبله والد تمارا بحرارة وأشرَّ لزميله بالدخول أيضًا، دخل سرجون المحل

والتقطت عيناه تمارا لأول مرة، ضربت صاعقة عقله مما جعل قلبه يتوقف عن الخفقان لبرهة وأنارت أضواء المحل الباهرة كبرق خلفه. لم ير فتاة بهذا الجمال الفاتن من قبل فسحره وجهها الملائكي.

أنتبه الجندي لصمته فقدمه لوالد تمارا وابنته:

- «هذا الأمير سرجون، قائد الكتيبة» حنى رأسه قليلا.

سكت سرجون وفقد القدرة على الكلام، تلعثم وجفَّ فمه مضطربا. أصبح لسانه أكبر من فمه وتبعثرت المفردات من قاموس كلماته. احمرت وجنتا الجندي بالخجل فمستقبل المدينة يقع على كتفي هذا الفتى الخجول، لكن ذكاء تمارا كان حادا كالسكين فقدمت قدحا من الماء البارد لسرجون. فرح والد تمارا بتصرفها النموذجي الذي دل على تربيتها الصحيحة. شكرها سرجون ولم يزد على هذه بكلمة واحدة، خرج مع الجندي وبيدهما جرة الماء.

تطلعت تمارا مدة أسبوع كامل لرؤية سرجون ورفيقه بحرارة، أعدت قدح الماء وانتظرتهما بفارغ الصبر، وكلما مرت ساعة من الزمن، رمت الماء الفاتر وملأت قدحا آخر، ولكن قدرها قد كتب بخيبات من الأمل. مر أسبوعان بأكملهما من الانتظار الشارد، وركنت تمارا القدح جانبا، وانشغلت بمشاكل البيت والمحل. أتكل والدها عليها في تلبية كل متطلبات المحل فأصبحت تديره بإتقان، إذ كانت التجارة تجري في عروقها، وبفضل ذلك، أصبح باستطاعتهم التوسع وشراء محلات الذهب المجاورة لكن مستقبلها اتخذ مسارا آخر عندما جاء سرجون في بداية الشهر.

- «اعذريني» خرجت أول كلمة من فمه حين رأى تمارا.
- «لقد كنت بانتظارك» أجابت دون ابتسامة.
- «أعلم بذلك» رد سرجون وبقية الكلام يحاول التدفق كالبركان.
- «لقد أخذت كتيبتي لمكان بعيد في الصحراء لنتدرب على مختلف المناورات. عشنا في خيم ولم نأكل الا التمر واللبن مدة أسبوعين. اشتقت لقدح ماء من يدكِ.»

نظرت تمارا نحو والدها الذي هز رأسه موافقا وأعطت سرجون ما يشاء. دخل والد تمارا إلى مكتبه تاركا إياهما سويا، ابتسم سرجون وقال:

- «أريد أن أراك خارج المحل؟ فما رأيكِ؟»
- «مستحيل» ردت تمارا وعقصت حاجبيها بسلبية.
- «هناك تل صغير يبعد بضع دقائق من هنا، سوف أنتظركِ مساء اليوم.»
- «هل أنت مجنون؟ لا توجد فتاة تخرج من دارها لتلتقي برجل ليلًا أو صباحًا.»

أعجب سرجون برصانتها وبقوة شخصيتها، فرد عليها:

- «كيف يمكنني أن أراكِ؟» أريد أن أتعرف عليكِ.»
- «سوف أجلب أمي معي إلى التل غدا» قالتها بلا تردد.
- «في أي وقت؟» سألها متحمسًا.
- «ظهرا.»

في تلك الليلة لم ينم كلاهما، كانت معاملة سرجون لرفاقه متوترة، وكلما فكر بتمارا ازداد ارتباكًا فلم يعرف فتاة مثلها من قبل توازيه في كل صفاته الشخصية. وحينها انتبه صديقه الجندي الذي زار المحل أولًا وقال له:

- «لماذا لا تأخذ لها علبة من الشكولاتة فكل البنات يحبون الحلوى.»

ارتاب سرجون ولم يرد على زميله بحرف واحد. أما في بيت تمارا فكانت أمها تسألها كل الأسئلة التي تُسأل في موقف كهذا، كيف شكله، من أي عائلة وكيف تعرفتي عليه، ولكن تمارا انشغلت بهّمٍ واحد، ماذا سوف يجري لمحل والدها في غيابها. ردت أمها بسهولة بأن والدها سوف يدير المحل كما كان يديره في العقدين السابقين ولا داعي لأن تُشغل نفسها بهذه الأمور وطلبت منها الاستحمام وتسريح شعرها.

حلَّ اليوم الموعود، وذهبت تمارا إلى محل الذهب كالمعتاد، تفاداها والدها طوال الصباح منهمكًا بصياغة الذهب والفضة. انتظرت وقت الغذاء بفارغ الصبر وبقت تتخيل صوت والدتها في أذنيها. رجع والدها إلى مكتبه بعد تناول الغذاء سويًا وبقت تمارا تنتظر والدتها خارج المحل. لمحتها من بعيد فدخلت وودعت والدها بقبلة على خده بعجلة وركضت باتجاهها.

تمشيا سويا نحو التل الذي نمت في قمته شجرة وحيدة غالبا ما يلعب الأطفال حولها. بدأ قلبها يدق بنشوة لم تعرفها شرايينها العذراء، وذكّرتها والدتها بأهمية السمعة والأخلاق في مدينتهم والحفاظ على سمعة العائلة. لم تسمع تمارا سوى طرقات لمطرقة تدوي في أذنيها وتضخم توترها على عدد الدقائق.

توقف كل شيء عندما رأته واقفا بجانب الشجرة مرتديا ملابس مدنية، قميصا أبيض مفتوح الياقة وبنطلونا بني اللون. حمل صندوقا أسود خلف ظهره. وعندما وصلا لقمة التل سلم على والدتها بكلتا يديه باحترام وعرف عن نفسه ثم صافح تمارا بلطف. وجدت والدتها بقعة على سفح التل وتركتهما لوحدهما.

- «أحببت أن أهديك هذه الهدية» قدم لها الصندوق وامتلأ وجهه تحسبا لمشاعرها.
- «شكرا» أخذت تمارا الهدية ونظرت باتجاه والدتها.

فتحت تمار الصندوق وتناثرت مشاعرها السارة في كل مكان كطفل يرى قوس قزح لأول مرة.

- «يا إلهي كيف!»

طارت دعسوقتان من الصندوق إلى راحة يدها العارية، فاحتضنتهما وجعلت من كفيها كوخا لهما، ارتجفت قليلا واضعة الصندوق على الأرض بحرص. امتلأ الصندوق المرصع بالمجوهرات بمختلف ألوان الدعسوقات، وعندئذ أدركت أن سرجون سوف يكون الزوج المثالي لها.

انفتح باب الغرفة لمرة أخرى وخرجت تمارا من ذكرياتها وأحست بثقل جسد سرجون بجوارها. وضع يده على خصرها فألتفت إليه.

- «أين كنت؟ لا أستطيع النوم.»
- «ذهبتُ لزيارة أمي في غرفتها» لم تستطع تمارا قراءة ملامح وجهه في الظلام.
- «وكيف حالها؟»
- «مازالت تهذي في منامها.»
- «سوف أرسل أمنية لها صباحا، فسوف تستمتع بالاستعداد للحفلة.»

هز سرجون رأسه بالموافقة وأقترب منها.

- «قبلني» أمرته بنبرة تدل على اشتياقها لحنانه.

وضعت راحة يدها على رأسه ولمع خاتمها الأحمر المرصع بأحجار سوداء في الظلام.

◆◆◆

انتهى ربيع وجدته من تناول وجبة العشاء ولم يبق إلا القليل من الزيتون الأخضر وبضعة أوراق نعناع مبللة جثمت على صحن صغير. أكل ربيع ما تبقى من رغيف الخبز وجمع الأطباق ليغسلها. تمددت جدته على الأرض ولفت نفسها بلحاف صنع من شعر الجمل لونه بني رملي. سأل ربيع جدته وهو يغسل الأقداح والصحون:

- «ما رأيك بشاي يا جدتي؟» متأملًا جوابا إيجابيا.
- «كلا لقد تأخر الوقت. أريد أن انام مبكرا لكي أصلي صلاة المطر صباحًا.»

لم يحب ان يدخل في سجال مع جدته حول جدية صلاة المطر وإن كان هنالك من يصغي لها، لكنه علم جيدًا بأهميتها لجدته.

- «ما رأيكِ بشاي كركديه؟ أنها ليلة باردة وسوف تنامين كالقطة بعد تناوله.»
- «فكرة جيدة، هل تريد أن أساعدك؟»
- «لا داعي، أعرف أين تضعين أوراق الكركديه» قاطعها ربيع وبدأ بالبحث عنها.
- «أنها في الدُرْج الثاني.»
- «وجدتها.»

أخرج ربيع مرطبانا بحجم قبضة يده أُغلق بأحكام. وجد في قعره أوراق ناشفة بمختلف ظلال اللون الأحمر من وردي عذري إلى احمر بندقي. وضع ربيع بعض الأوراق وماء في إبريق الشاي، ووضعه على شعلة الطباخ المتمايلة منتظرا هدير الغليان. اتجه ربيع نحو جدته وجلس بجوارها.

- «كيف حال العمل؟» سألته جدته بحنان.
- «لقد نسيت أخباركِ بما حدث اليوم.»
- «ابشر؟»

- «لقد دعاني رئيس التحرير إلى مكتبه وسألني أن كان لدي ملابس بيضاء؟»
- «لديك ذلك القميص الذي أهديتك إياه في عيد ميلادك.»
- «نعم ولذلك أخبرته بموافقتي. هل باستطاعتنا تأجير بنطلون أبيض من خياط؟»
- «بالتأكيد، أذهب إلى السوق وأبحث عن خياط المدينة، ولكن لماذا كل هذه الملابس الأنيقة؟»
- «لقد تم اختياري للذهاب إلى حفلة في القصر الملكي كمندوب صحفي.»
- «أين؟» سألته بتحفظ.

استمع ربيع لهدير إبريق الماء فوقف وأتجه إلى المطبخ وخفف النار ثم قال:

- «القصر الملكي، أن الأميرة أمنية تحتفل بعيد ميلادها العشرين بحفلة استثنائية يرتدي فيها جميع الحضور ملابس بيضاء من الرأس إلى أخمص القدم.»
- «يا لها من غطرسة، ولماذا يريدك رئيس التحرير أن تذهب إلى حفلة كهذه؟»
- «ترغب الأميرة بتغطية أجواء الحفلة وكتابة مقالة عن تبرعها بالطعام الزائد إلى الفقراء والمتسولين.»

ضحكت جدته باستهزاء وقالت:

- «أين الشاي يا أبني؟»

أطفأ ربيع النار ووضع ملعقة من السكر في كل قدح وسكب السائل الحار فيهما. حمل القدحين بحذر وجلس بجوار جدته التي تمتعت بدفء القدح وقالت له:

- «لا تكتب إلا الحسن عن الأميرة وأهلها. كن حذرا لا نريد مشاكل.»

- «بالتأكيد لكنني سعيد لرؤية القصر من الداخل. لقد اعتدت على رؤيته من الخارج كبقية سكان المدينة.»

أخذ رشفة من الشاي وتمتع برائحة الأعشاب البرية التي تدفقت في جو الحجرة فأضافت للمكان دفء مألوفا وازداد بهجة عندما رأى جدته تتناوله بشهية. قالت جدته:

- «شاي رائع يا ربيع» مدحته بنكهة من السخرية.
- «سوف أتعلم الطبخ أيضًا» قالها بجدية.
- «اترك الطبخ لي يا عزيزي أنك شاب مشغول بين الحفلات والفتيات» ضحكا سويا وتمتعا بلحظة صمت نادرة.
- «هل تعرفين أنني مشتاق لحكاية من حكاياتك يا جدتي.»
- «هل تقصد قصة للأطفال؟» نظرت جدته بتعجب.
- «نعم.»
- «سوف أقص لك حكاية كنت تفضلها حين كنت غلاما.»

أستعد ربيع بفرك يديه معًا وتربع على الأرض بجوارها.

قالت الجدة «كان يا ما كان في قديم الزمان كان هنالك واحة في صحراء تمتد على مدى البصر. يوجد في الواحة بركة زرقاء يجاورها نخيل مثمر. يمر التجار بها ليرتاحوا ويشربوا من مائها. اعتاد قطاع الطرق المرور بها لينهبوا نزلاءها من كل ممتلكاتهم. وفي إحدى الأيام مر صديقان (محظوظ ومنحوس) بهذه الواحة بعد خمسة أيام من السفر المتواصل، نزل الصديقان من أحصنتهما واحتفلا بارتواء شرايينهما. تمددا تحت ظل النخيل حتى شبعت عظامهما من شمس السماء الدافئة. أرتاح الحصانان وأطفا ظمأهما بعد سفرة ليس لها نهاية معلومة. بعد غروب الشمس تقاسم الصديقان أماكن النوم: نام منحوس تحت النخلة ونام محظوظ فوقها مستمتعًا بالهواء الطلق في ليلة صحراوية.

توقفت الجدة للحظة وأخذت رشفة من الشاي، استعجلها ربيع قائلًا:

- «وماذا حصل للصديقين؟»

تنحنحت الجدة ثم أكملت «وبعد أن نام سكان الواحة من بشر وحيوانات، مر موكب من قطاع الطرق عليهما. أخطأ الصديقان بترك شعلة النار، فشع جمرها وتراقص لهيبها في الأفق مما لفت نظر الشريرين. زحفا بهدوء لكيلا يستيقظ الحصانان على وقع خطاهما.»

«قرر رئيس العصابة القفز على منحوس فكان سهل المنال وأشبعاه ضربا وسرقا كل ممتلكاته من الذهب والفضة ولم يبق لديه إلا حصانه ونعاله. أشرقت الشمس وصهل الحصانان وهما يشربان الماء ويأكلان التمر، أستيقظ محظوظ ونزل ليصبّح على رفيقه. وجد وجه منحوس مليئا بكدمات زرقاء وحمراء، ممزق الثياب فقال له:

«ماذا حصل لك؟» لقد كنت على ما يرام مساء أمس.»

أخبره منحوس بما حدث له، وقضيا يوما آخر بجانب الواحة، وغسل منحوس جروحه وضمدها بخرق صنعت مما تبقى لديه من ملابس. وحين جاء الليل نام محظوظ فوق النخلة ومنحوس تحتها.»

توقفت الجدة عن الكلام وأخذت رشفة أخرى، غرقت أوراق الكركديه إلى قعر القدح كذكريات مشتتة في رأسها. نظرت باتجاه ربيع الذي وجد مناما على الأرض بجوارها وأكملت:

«جاء قطاع الطرق في الليلة التالية وضربوا منحوس مرة أخرى وسرقوا ما تبقى لديه من ملابس، وسيفه وحصانه الغالي وتركوه عاريا ينوح كحيوان جرح كبريائه. أشرقت الشمس كالمعتاد واستيقظ محظوظ من نوم عميق وامتلأت رئتاه بالهواء الطلق، نزل ليسلم على منحوس فوجده باكيًا عاريًا كوّر جسده حول نفسه كقنفذ وعندما سأله عما حصل إجابه بأنهم سرقوه مرة أخرى.»

- «يا له من منحوس، صحيح اسم على مسمى» قاطع ربيع جدته.
- «انتظر يا ابني» ردت عليه ثم أكملت القصة.

«تعاطف محظوظ مع صديقه وعرض عليه أن يعيره جزءا من ملابسه وكمية من النقود ليشتري لنفسه طعاما وشرابا عند أقرب قرية قادمة، ولكن بسبب بُعد المكان عليهما قررا البقاء لليلة أخرى ليستعيد الحصان قوته، وذلك لأنهما سوف يتقاسمان ركوبه غدا ولهذا قرر محظوظ النوم تحت النخلة وجعل صديقه ينام فوق النخلة.»

- «عظيم.»

ابتسمت الجدة وأكملت «جاء الليل وبعد تناول العشاء أخمدت شعلة النار برمي تراب على جمرها. صعد منحوس لأعلى نقطة في النخلة، دعا ربه بنوم عميق. جلس محظوظ تحت النخلة ووضع سيفه تحت رأسه مستعدا لقطاع الطرق. أنتظر ذبول الجمر الأحمر كنجوم بعيدة وغفا بسلام.

جاء قطاع الطرق للمرة الثالثة وهذه المرة توقفوا ونظروا حولهم وقال رئيس العصابة لرفاقه:

«لقد جعلنا حياة هذا المسكين الذي ينام تحت النخلة جحيمًا، اتركوه نائمًا بسلام ولنتسلق النخلة ونسرق الشخص النائم فوقها فلقد كان محظوظًا في الليلتين السابقتين. وكما اتفقوا صعدوا وضربوا المسكين للمرة الثالثة وسرقوا كل ممتلكاته الجديدة.»

ضحك ربيع بشدة واضعًا يده على معدته وألتوى على الأرض كثعبان يصارع أرنبًا. تفاجأت جدته من ردة فعله وقالت له:

- «لقد كانت هذه قصتك المفضلة حين كنت غلاما، يبدو أنك تسمعها لأول مرة.»

أخذ نفس عميقًا متمالكًا نفسه ومسح دموع الضحك من عينيه، قال لها «لم أسمعها من قبل، يا إلهي لا أذكر أخر مرة ضحكت بهذه الشدة. أجمل نهاية ليوم كريه.»

- «ممتاز دعني أذهب إلى النوم فعلي النهوض مبكرًا. اسمعني جيدًا يا ابني كلما شعرت بضيق النفس تعال وسوف أحكي لك قصة من أيام شبابك» ردت جدته. ثم أكملت بنبرة طليت بجدية «عليك بأن تجد عملًا أخر فما زلت فتى شابا على كتابة الوفيات.»
- «لقد نسيت إخبارك، لقد زارني رجل يعمل في الصحيفة ويريد تعليمي مهنته ولذلك بسبب عزمه على التقاعد عن قريب» إجابها ربيع.
- «وما هي مهنته؟» سألت الجدة وهي تقف بصعوبة على قدميها.
- «كلمات متقاطعة.»
- «أي شيء أحسن من كتابة نعي الوفيات، أنني ذاهبة إلى الفراش، تصبح على خير ولا تسهر مثل كل ليلة.»
- «تصبحين على خير يا جدتي.»

تركته جدته مستلقيًا على الأرض بجوار أقداح الشاي واتجهت نحو غرفتها، نهض ربيع مترنحًا ووضع ما تبقى من أقداح فارغة بجوار المغسلة. قطع لنفسه قطعة من قمر الدين وتسلل إلى غرفته. دخل الغرفة على أطراف أصابعه وغرقا جفناه المسبلان بالنعاس وجلس على فراشه كالتمثال. كان ضوء الغرفة مبهرًا مما جعل كل شيء في الغرفة حاد المنظر. سقط ظل لقدح قديم مملوء بأقلام على الطاولة كجسد عنكبوت طعن بعدة سيوف في خاصرته. ولكن ما جلب أنتباهه وأخرجه من سباته هو انعكاس الضوء على الشباك فرأى نفسه وغرفته بأكملها على الزجاج. وقف بتمهل وسحب الستارة الخضراء على المسرح الزجاجي وأتجه إلى الحمام.

وبعد غسل يديه بلا مبالاة لفت نظره إلى القدح المقلوب بجانب المرآة منذُ الصباح فمازالت الذبابة نائمة بداخلة بسلام. استيقظت روح المغامرة

كبحيرة سوداء تشرق أشعة الشمس على سطحها وتراقصت تموجات الماء تبحث عن دفء ليحتضنها وعندئذ فتح ربيع عينيه بوسعهما. تساءل مع نفسه هل أنها نائمة أم ميتة؟ طرق القدح بعقلة إصبعه عدة مرات لكن الذبابة لم تتحرك من مكانها. تمددت كلمة اللعنة على جبينه وعض شفتيه بجدية. ضرب القدح بقوة متفائلًا لكنه فشل في إيقاظها من أحلامها. «يا ترى بماذا تحلمين أيتها العنيدة؟ زبالة تمتد على مدى البصر يمر بها نهر من المياه الآسنة» مرددًا في خلده.

مرت لحظة الغضب على جسده كنغمة موسيقية حركت أطرافه بلا إرادة وحينئذ دفع القدح خطأ فارتطمت حافة القدح بالذبابة وطارت هلعًا باحثة عن طريقة للهروب. طارت عدة مرات من جهة لأخرى ومن قعر القدح المقلوب إلى فتحته المغلقة وبعد كل المحاولات الفاشلة سكنت على إحدى الجدران. انتعش ربيع وتدفق عصير الحياة في شرايينه وتقلصت عضلاته فارتفعت شرايينه الزرقاء كأنها شقت طريقها في قارة صحراوية لا يوجد فيها إلا شعر ذراعيه المنتصب.

أستعد كحيوان مفترس وقلب القدح بهدوء غالقا الجزء المفتوح براحة يده. تلألأت عيناه بنشوة الحياة وابتلت راحة يده المضغوطة وشعر بلزوجة تتدفق حول حافة القدح مما جعله يدير القدح عدة مرات ليبردها. رجع إلى مكتبه بجوار سريره وجلس على كرسيه واضعًا القدح المقلوب على سطح المكتب الخشبي بجوار ظل القدح القديم.

أنصت بتمعن لوقع أقدام جدته باتجاه مدخل الغرفة وكما توقع لم يسمع أي صوت قادم من غرفتها. حتى صرير المنزل الذي بني من خشب قديم لم يحدث كما اعتاد سكانه في الليالي الباردة. تصاعدت دقات قلبه تدريجيا محركًا قمامة صغيرة حُشرت بين المكتب والحائط وهناك لمعت خيوط لشبكة عنكبوتية على الضوء الباهر كما تركها أخر مرة.

اقترب ومكث بجوار الشبكة وبحث عن عنكبوت أسود متقلص الجسد ينام في أعلاها، «لماذا لا تترك الشبكة ظلا لها على أحد الجدران الموازية؟» تساءل ربيع باحثًا عن ظل العنكبوت. اختلطت إمارات القلق بالرعب واشتد به هاجس الليل فكيف سوف يعلل تصرفاته لجدته اذ أمسكت به متلبسًا بالجريمة. نزلت حبة عرق باردة من إبطه على طول جذعه فمسحها بقماش قميصه. ركز نظره وبحث عن تلك الحشرة بتمعن ثم وجدهُ مختبأ بظل المكتب، ضئيل الحجم نائما كجنين في رحم أمه وتقلصت سيقانه الطويلة إلى الداخل.

- «استيقظ يا عزيزي فلقد جلبت لك طعامًا لذيذًا لا بد أنك جوعان.»

قالها ربيع بصوت هادئ ورجع إلى مكتبه ونظر إلى الذبابة السجينة. أخذ لقمة من قطعة قمر الدين وفرك ما تبقى بين أصابعه ثم لطعها لتزداد لزوجتها. رفع القدح قليلا ومد أصابعه الطويلة مفترسة الذبابة كلوامس أخطبوط وعندها وقعت الذبابة بين أصابعه اللزجة وانتهى مصيرها فورًا.

- «تعال يا عزيزي، تعال واكسر صيامك.»

أقترب ربيع من الشبكة بمهل واضعًا الذبابة عليها بهدوء، اهتزت الشبكة بخفة وارتعشت غريزة العنكبوت بحذر. خرج العنكبوت من سباته الليلي وانفتحت سيقانه ولمعت عيونه المتعددة بشهوة حيوانية. ضحك ربيع باستهتار جنوني وقال:

- «صحة وعافية.»

ضحك بشدة حتى وخزته بطنه من الألم وتصلب كالصنم وتسمر في مكانه حتى أنتهى العنكبوت من الحصول على غنيمته السهلة. لطع ما تبقى من لزوجة بين أصابعه ثم قرر بأن يغسل أصابعه من الدبق. دخل إلى الحمام ووقف أمام المرآة ونظر إلى انعكاسه للحظة، كان الضوء باهتًا فقبح كل شيء فيه. أصبح قميصه عتيقًا ولون بشرته غريبًا واختفت لمعة شعره الدهنية. فتح الصنبور وانتظر بخار الماء، صبر حتى غطى البخار جزءا من

المرآة وأصبح ملمس الصنبور حارًا. أغلق قبضتيه بقوة تحت الماء الساخن كامتحان لنفسه ولم يتغير انعكاس ملامح وجهه على المرآة بدرجة واحدة، غسل وجهه بالصابون عدة مرات متأملا أن يصبح انعكاسه وسيمًا.

خلع قميصه ورماه على الأرض واقترب من المرآة ومسح البخار براحة يده وبقيت بقع لأصابع كمخالب حيوان مفترس. ركز على صدره وذراعيه وتمايل يمينا وشمالا متمنيًا نتيجة أجمل وانتشرت الخيبة في صدره، وشعر بوخزة في صدره كرمح يدخل في فؤاده وتساءل مع نفسه هل كان محظوظا أم منحوسا. التقط قميصه من الأرض ووضعه فوق جسده ورجع إلى غرفته.

أخرج قصبة جوفاء تشبه الناي من إحدى أدراج مكتبه، حرّك كرسيه بجوار الشباك بحرص. فتح الستارة والشباك فلسعه تيار هواء بارد، حدق في الظلماء التي أغرقت المدينة بأكملها وتلاشت آلامه رويدا رويدا مع كل زفير، وضع الناي بجانب فمه ونفخ حياة في داخله، بكي الناي الحزين وابتلت عيون المدينة على ألحانه الجريحة.

◆◆◆

ثلاث سنوات قبل ولادة ربيع

اصطبغت المدينة بالحزن، وارتفعت رايات سود في أرجائها، نُصبت لافتاتٌ على مختلف المباني الحكومية ورُفعت صورٌ للملك الأول الراحل. اختاروا صورا لجلالته حين كان شابًا وسيمًا وكتبوا أشهر مقولاته بجوارها «تزرع تحصد» والأخرى التي رددها الأولياء على أطفالهم «لا تؤجل عمل اليوم إلى الغد». شُيّع الملك بجنازة كبيرة لم يغب أي امرئ عنها، وغصّت الشوارع بمختلف طبقات المدينة. اختلط عويل النساء بأنين الريح وتبللت جفون العيون. صنع الأطفال في المدرسة أعلامًا سود، وضعوا صورة الملك عليها كي يرفعونها عند قدوم موكب الجنازة. وقف الرجال بصمت وقد أثقل الحزن رؤوسهم كمرساة سفينة فانحنت رقابهم بوقار.

توقفت الحياة على مدى ثلاثة أيام حداد، وبقت الصحيفة المحلية تسليتهم الوحيدة، امتلأت صفحاتها بصور الملك الأول وبانوراما للمعارك والإنجازات خلال عهده. وقف ولي العهد سرجون في كل صور الجنازة بوقار وتصلبت ملامح وجهه خالقة ابتسامة غامضة تعوم ما بين الحزن والغضب. باشر ولي العهد بعد فترة الحداد بالفترة الانتقالية ما بين العهدين التي وصفت في كتب التاريخ بالسلسة للغاية. إذ أبقى الملك سرجون على معظم صور والده وعُوقب كل من يحاول أزاحتها بصرامة، وبعد فترة وجيزة، انشغل سكان المدينة بمعارك الحياة ولم يلاحظوا انتشار صور الملك سرجون كالفطريات رويدا رويدا.

كان للملك سرجون شأنا أخر، بدأ عهده بتصفية داخلية، إذ باشر بحرب على المخدرات وكل من تداولها. وامتلأت الصفحة الأولى للصحيفة بصور لهجمات

عناصر وزارة الأخلاق والتربية على أوكار الجريمة. عُلقّت صور المجرمين في السوق وعلى أبواب المحلات، وذيعت أسماؤهم الكاملة من خلال مكبرات الصوت على مدار الساعة كعقاب لهم ولعائلاتهم. لطخت أسماء العوائل المذنبة بالعار مما دفع بكل أصدقائهم وأقاربهم بالنفور عنهم. وضعت أشدّ عقوبة لتجار المخدرات وهي الإعدام شنقًا بدون محاكمة فأصبح سرجون الوالي والحاكم في آن واحد والأب الروحي لكل من سانده ودافع عن مبادئه.

أصبح الإعدام الشعبي مشهدًا مألوفًا لسكان المدينة، وتحوّل ملعب كرة القدم مسرحا للجريمة. استمرت الحرب على المخدرات لبضعة أشهر، وتغلغلت عناصر الشرطة في مختلف الأزقة، وتم إعلان حضر التجوال بعد الساعة التاسعة مساءً وذلك لتسهيل الأجواء والسيطرة على الشوارع. أختبئ المجرمون في أوكارهم وفرغت الشوارع من العامة وصهلت الريح فيها بدون مقاومة. اتخذ سرجون قرارًا استراتيجيًا عندما استخدم هذا الاندفاع للتخلص من المخدرات، لإزالة صور والده القديمة تدريجيًا وغيرها من شعارات ضد المخدرات. تداول شعار «الإيمان أحسن من الإدمان» على السنة الأطفال لمدة طويلة. ورث سرجون المندوب الملكي من والده فأصبح راشد عيونه في كل مكان، أصغى إليه بانتباه واتبع كل نصيحة منه، لذلك ازدادت شعبيته في الشارع مع كل قانون جديد ونسى الناس ملكهم الأول تدريجيا.

لكن كان هنالك تيار مضاد يغلي في بناية ذات طابقين تقع في الجزء الجنوبي من المدينة. يستعمل الطابق الأرضي كمحل للبقالة صباحًا وثمة درج داخلي يؤدي إلى الطابق الثاني. وعادة ما يجتمع بعض عناصر المقاومة في الطابق الثاني بعد أغلاق المحل مساءً. استخدموا اللافتات الملكية للتمويه وإخفاء ما يحدث خلف النوافذ. خلا الطابق الثاني من كل أثاث إلا طاولة خشبية وضع عليها فانوس نفطي. غطت اللافتات معظم الأضواء الخارجية وتسرب ضوء القمر الأزرق من خلال خندق رفيع بين صورة الملك وحافة الشباك.

يحتفظ قيس بالمفتاح الوحيد للطابق الثاني في البناية التي يملكها والده. كان الوالد يعمل في محل البقالة صباحًا ويترك إغلاق المحل لابنه الوحيد. كان قيس في منتصف العشرينات من العمر، معتدل الطول وكثيف الشعر، أنيق الملابس ولديه أسلوب جذاب في التعامل مع الناس ورثه عن أبيه منذ الصغر. لديه لحية ناعمة سوداء بدون شارب، أنفه مرتفع قليلًا يدلُ على دلال الأب لابنه الوحيد، وحاجبان غليظان رسما بحبر أسود. أحب قيس الملك الأول وعلق والده صوره على جدران المحل للبركة، ولكنه لم يجد شيئا يعجبه في أسلوب الملك سرجون خاصة بعد اعتلائه العرش.

لم يهتم قيس بسياسة المدينة خلال مرحلة المراهقة، ولكنه ولد بعقدة بشرية كبقية زملائه، وتمنى أن يكون جزءا مهما لا يتجزأ من مجموعة أو نظام ليشبع ملله الشاسع. ذابت هذه العقدة حين اختلط بطلاب سياسيين في المرحلة الجامعية واستيقظ من غيبوبة العادات والتقاليد، اتسعت آفاقه وتفتحت عيناه على الفساد وسرقة الأموال وانتهاز محبة الناس وابتزاز خيرات الأرض لصالح الحكام. تنبه إلى أنه قد ولد في الطبقة العاملة وسوف يعيش ويموت فيها فلن يكون باستطاعته تملك العقارات ولسوف تصادر البناية منه بعد وفاة والده، حتى الموتى يدفعون ضريبة للعائلة الملكية. مازحه زملاؤه ولعبوا على الجشع الإنساني في داخله: «ألا تريد أن تعيش في قصر بنفسك؟ ألا تريد أن تلبس أجمل الملابس وتأكل أفضل الولائم» وعندما أجاب بالإيجاب على كل الأسئلة فرحبوا به وأنظم لهم دون مشاكل تذكر.

حثّه صديق طفولته فهد على الانضمام لمجموعتهم. ولد فهد لعائلة تضررت تحت العهد الملكي فلقد صودرت أراضيهم واضطر والداه لبيع بيتهم بثمن رخيص وانتقلوا إلى حي فقير. ذهب فهد وقيس إلى نفس المدرسة الابتدائية واختلط مع بقية الأطفال ساهيا عن الجاه والثراء. استمع فهد لأخبار العائلة الملكية من خلال والده الذي ملحها بالعلقم. شتم الملك الأول صباحًا ومساءً وعندما وجد صورة العائلة على الصفحة الأولى من الصحيفة

قلبها راسا على عقب ثم قص الصورة بالمقص ورسم بقلم الحبر ذيل حصان أو قرون حيوان على إحدى شخصياتها ثم رماها في سلة النفاية مساءً.

بعد المرحلة الابتدائية، استمرا بالتواصل في الجامعة، والتقوا عميد شعبة الطلاب غازي الذي كان ضئيل الجسد يرتدي نظارات سوداء مدورة انسجمت مع أناقته كطالب في بداية حياته الجامعية. أرتدى قميصا أزرق سماوي اللون وربطة عنق زرقاء مرقطة بخطوط سوداء كالثعبان مع سترة سوداء، شعره قصير مجعد يتناسق مع حجم رأسه الذي أعطاه هيبة تباهي ذكاءه. كان عصامي الشخصية بالفطرة منشغل بدراسته طوال الوقت، لذلك لم يكن محبوبًا من قبل الفتيات. لم يحبذ الكلام كثيرا، ولكن عندما ينطق بكلمة واحدة يصغي الجميع إليه، وأبهر قيس وفهد بعفوية كلامه المنطقي. جاء بفكرة الالتقاء في الطابق الثاني أسبوعيًا واختار ليلة الخميس بالذات وذلك لانشغال عناصر الشرطة بالتجول في وسط البلد بالقرب من المقهى وعندئذ يصبح تسللهم عبر حظر التجول سهلا للغاية.

أعجب قيس وفهد بميول غازي السياسية المعارضة للعائلة الحاكمة، إذ تطابق معهما في الفقر، وعاش وتربى في الأحياء المجاورة. وعد نفسه حين كان غلامًا انه لن يعيش حياته كوالده عاطلا جالسا على الرصيف قارئًا للصحيفة طوال اليوم. عشق غازي الكتابة وملأ دفاترًا صغيرة بمختلف الملاحظات عن حياته في المدينة. اضطر قبل عدة سنوات للعمل كي يكسب القليل من المال لدفع الإيجار والملتزمات اليومية فوجد عملا في الصحيفة بسهولة إذ أُعجب خليل بذكائه وسرعة بداهته.

عمل كموظف غير متفرغ، وكان يقضي صباحه بين محاضرات الجامعة وعيشه في دهاليز الصحيفة وهناك التقى بفارس. أعجب فارس بسلاسة كتابته للمقالات واعتماده على معلومات دقيقة من أحد دفاتره الصغيرة. كان فارس عنيدًا في ميوله السياسية، ولكنه يستمتع بالنقاش مع غازي لعدة ساعات. ترك كل نقاش دفئا عميقا داخل صدره فلقد وجد إنسانا مثقفا يشاركه وجهة النظر.

وفي يوم من الأيام طرح غازي فكرة زيارة فارس للاجتماع الأسبوعي وأعطاه عنوان البناية وقال له «إن أحببت لقاء المزيد من المثقفين فتعال ليلة الخميس.»

ارتبك فارس في بداية الزيارة إذ وجد باب البقال مغلقا والبناية تغرق ببحر الليل، وجد نفسه محاطا بطلاب جامعيين يشاركونه بنظرياتهم ومستعدين لإشعال نار المقاومة. تردد في بداية الأمر، إذ كان أكبرهم عمرا وعلمته الحياة دروسا لا تُعلّم في مباني الجامعة، أن الكلام أسهل من الفعل، لكنه لم يجد ضررا من الاستمرار بحضور هذا الصالون الثقافي. أصبحت مقالات غازي أكثر جرأة بالهجوم على العائلة أسبوعيًا. لم ينتفع من هذه الشهرة الفارغة، فلقد كان يكتب لناس جهلة لا يقرؤون وان قرأوا فلا يمتلكون الشجاعة الكافية لتحريك صخرة واحدة. أن كان هناك عملة واحدة تتداول بين الناس فهي الجُبن، وبني اقتصاد المدينة كليًا عليه ولذلك أصبح الجميع أغنياء بسببه.

وفي ليلة من ليالي الخميس، قرروا شن عملية لتخدش من صورة العائلة، وافق غازي ورفاقه بحضور فارس على الهجوم على نافورة الميدان. لم يكن هناك بديل أفضل، وإن صممت العملية بإتقان فلن يعرف من فعلها، وهكذا قرر فهد وفارس تلويث النافورة بالصبغ الأحمر ليرسلوا رسالة نارية لولي العهد سرجون.

مرت السنوات وأصبح ولي العهد ملكًا، كان والد قيس يغلق الدكان مساء كل يوم متجهًا إلى داره، معتمدا على ابنه في عدّ النقود والحفاظ عليها في خزانة الدكان كالمعتاد. ترك قيس قفل الباب مفتوحًا واتجه نحو الطابق الثاني، ألفت عيناه الظلام ووجد الفانوس كما تركه أسير الغرفة. حمل قيس الفانوس الذي تمايل يمينًا وشمالًا وشعر بحركة النفط داخل القارورة. أشعل الفانوس بعود ثقاب وتراكض لهيب النار محاولا الهرب من سجنه، وطغت ابتسامة على وجهه في الظلام الذي امتلئ بالدخان الأسود في أركان الغرفة. استرخى جسده على حافة الطاولة منتظرا رفاقه بصبر، فلقد أعتاد على دقة مواعيد غازي. انعكس ظل قيس على إحدى الجدران فرسم جسده كحيوان

أليف مترهل العضلات ومحدب الظهر كسنام جمل. لم تكن تلك الخصلة الوحيدة التي ورثها من الجمل، بل كان لديه صبر عظيم دربه بالملل اليومي الذي غرقت روحه فيه.

تسمر في مكانه مستمعًا لتنفسه الثقيل، ونظر إلى الباب كالبومة في الظلام واعتاد على رائحة الدخان الممزوجة بهواء الغرفة. سمع دبيب أقدام صعدت السلم بائتلاف فعلم أنها خطوات غازي. تجانس وقع خطواته التي ميزتها نغمتها العسكرية. فُتح الباب ودخل غازي بحذر وتطلع حول الغرفة بشك غريب.

- «مرحبا يا غازي» قالها قيس بانفعال.

دخل غازي حاملًا حقيبة سوداء تميل من كتفه الأيمن واتجه نحو الطاولة على وقع خطوات لا تسمع، رد على قيس:

- «كيف الحال يا قيس؟ أين البقية؟» وضع الحقيبة على الطاولة ووقف بجوار زميله.
- «لا أعرف، دعنا ننتظر لبضع دقائق.»

أخرج غازي دفترا متوسط الحجم من حقيبته وتدلى من خارجه حافة لصورة ملونة، سمعا دوي خطوات على السلم فقال قيس موضحًا:

- «لقد جاءوا.»

دخل فارس وسمر سويًا وابتسم الجميع متبادلين السلام. وقفوا حول الطاولة وانعكست ظلالهم المتداخلة على جدار مجاور معلنا بداية الاجتماع. عدل غازي نظارته بسبابته وباشر الكلام، استمع الجميع ولم يقاطعه أحدًا على الأطلاق فتكلم والدفتر أمامه عاكسًا وهج النار على غلافه البراق.

- «هل سمعتم بأخر الأخبار عن الحرب على المخدرات، لقد انتحر عدد كبير من المدمنين بدون أي سبب، وأضاف أخر بيان رسمي ملكي بأنها عقوبة إلهية نزلت من إله الشمس عليهم.»

- «نعم لقد كتبت مقالة عن هذا الموضوع، ذهبنا أنا وسمر إلى العمارات المشتبه بها ولم نجد أي شيء يدل على الجريمة، أصبحت ظاهرة غريبة. هل من المعقول أن تأنيب الضمير دفع بهم إلى الهاوية» رد فارس.

أنتظر غازي بصبر انتهاء الجميع من الكلام، ولم ينطق قيس بكلمة واحدة لكنه كان يهز رأسه بين حين وأخر مؤيدا كل من نطق بحرف.

- «لقد ذهبت إلى البناية بنفسي وبدأت بالتحري، لدي زميل يعمل في القسم الجنائي وحصلت على صور لمدمنين وممتلكاتهما. أنظروا إلى هذه الصور.»

أخرج غازي صورا من دفتره ووزعها بانتظام على الطاولة. صور مختلفة لمدمنين وهم نائمين في فراشهما. صورة تركز على ذراع أحد المتعاطين وصورة أخرى فيها كيس صغير الحجم احتوى على مادة بيضاء. حرك غازي صورة الذراع بخفة إلى وسط الطاولة وتحت ضوء الفانوس ركز الحاضرين عليها.

- «هل تلاحظون شيئا غريبًا في هذه الصورة؟» لم يجب أحد فكانت صورة لذراع إنسان وشمت فيها حفر خضراء وزرقاء أقرب إلى فوهة بركان. أكمل غازي:
- «هذا ساعد إنسان مدمن لسنوات طويلة، أنظروا ما فعلت الإبر باللحم والشحم. كيف يمكن لمدمن مخضرم كهذا أن يخطئ بتقدير الجرعة المعتاد عليها. هناك شيء غريب في الموضوع.»

اقترب فارس من الصورة مستخدمًا ضوء الفانوس لكن غازي حوّل تركيز الجميع إلى صورة أخرى وقال:

- «أما في هذه الصورة نجد المتعاطين نائمين بسلام، ولكن أنظروا إلى المنضدة بجوارهما. هنالك كيس صغير» وضع صورة مكبرة لكيس صغير يتوسط الطاولة ثم أكمل:
- «لقد وجدت الشرطة كيسين فارغين وإبرتين مستخدمتين وقدح ماء لتذويب المخدرات، وكما ترون إمامكم وجدوا كيسا إضافيًا أخر

للاستخدام في وقت لاحق. لا يدل هذا كله على الرغبة المتعاطين بالانتحار.»

- «فلماذا انتحرا؟» سألت سمر.

إجابها غازي بمشاعر باردة «سؤال عظيم، دعني أشرح لكِ ماذا وجدوا في الكيس الثالث. قال صديقي في المكتب الجنائي بعد تحليل العينة وجدوا ان المخدر أصلي ونقي للغاية. تخيلوا كان أكثر من ٩٠٪ نقاوة، ومن المستحيل لتجار المخدرات الحصول على مخدر كهذا. عندما تدخل المخدرات من خارج المدينة تكون نقاوتها ما بين ٧٠٪ إلى ٨٠٪ وبعد خلطها بالسكر والطباشير أو مسحوق للغسيل تنخفض نقاوتها إلى ٣٠٪. كل كيس صغير يحتوي على غرام واحد من المخدر يكون فيه ثلث من المخدر النقي في المعتاد. ولكن هل تعرفون ماذا يحدث لمدمن عندما يأخذ جرعة من مخدر تكون نقاوتها أكثر بثلاث مرات؟»

لم يجب أي منهم وأكمل غازي:

- «الجريمة الكاملة، هل تعلمون أن الانتحار من الجرائم الوحيدة التي لا يعاقب مرتكبها جنائيًا» قالها منتصرًا وقبل الانتهاء من الكلام سألته سمر:
- «ومن أين جاءوا بهذه المخدرات؟ من مدينة أخرى؟»
- «عندما سألت زميلي المحقق قال إنهم لم يروا مخدرا بهذه النقاوة من قبل فهو يعرف السوق وتجاره، مما يدل على شيء خطير.»
- «ماذا؟» سأل فارس بنبرة مجهولة.
- «أعتقد أن الملك سرجون طرح المخدر للمدمنين للتخلص منهم بسهولة وسرعة» عدل نظاراته ثم أكمل «نظريتي تؤدي بي إلى الشك بالملك.»
- «ولماذا يؤذي أبناء شعبه؟» قالتها سمر بتعجب.

- «حتى يعلن النصر في حربه على المخدرات ويصبح محبوبًا أكثر لكل من تضرر. تخيلي ماذا سوف يفعل حينها، يشيد تماثيل في كل مكان ولافتات تؤيده وتناصره.»
- «ألا يكون من الأسهل أرسال جميع المدمنين إلى المراكز الصحية للعلاج؟» قالتها سمر بغريزتها كصحفية.
- «سوف تمتلئ المستشفى والمراكز الصحية بالمدمنين والفقراء وعندئذ تخيلي الضغط على الكادر الطبي بكل أقسامه، أسهل بأن يتخلص منهم ويبدأ حكمه ببداية جديدة.»
- «صفحة بيضاء» رد فارس.
- «بالضبط» وافقه غازي.

بدأ لهيب النار بالانخفاض وتموج الدخان ولفظ أنفاسه الأخيرة واختفى النور من وجوههم وقال غازي حينها كأنه تدرب على هذه اللحظة:

- «لن أنسى منظر جسد فهد مفارقًا الحياة متدليًا ومتمايلًا مع هبوب الريح في تلك الليلة السوداء.»
- «طبعا» رد فارس وهز سمر وقيس رأسيهما موافقين.
- «هل تريدني أن أكتب...» توقف فارس عن الكلام عندما هزَّ غازي رأسه بالرفض.
- «لا أريدهم أن يعرفوا أن تيار المقاومة مازال نشطا في مدينتنا.»
- «وبماذا تأمر يا غازي؟» قالها قيس كخادم يسأل سيده قبل الذهاب إلى النوم.

انطفأ الفانوس وحلَّ الظلام، اختفت الظلال، ولم يبق في الغرفة إلا رائحة النفط الخفيفة. خرج كل منهم متجهًا إلى دياره متفاديا حظر التجوال.

◆◆◆

٤

شق الفجر ليل السماء وأضيئت نوافذ البيوت في الأزقة معلنة بداية يوم جديد، فتحت بعض الستائر لتتفرج الطبيعة على مسرح الفيض البشري. تدفق لون الشمس الدافئ مختلطًا بلون الليل البارد، أشرقت ابتسامة الشمس على سماء المدينة، ولونت شفتيها بصفار يدل على تفاؤل لبداية يوم جديد. تبخر ما تبقى من الليل الداكن فتوهج سراب أخضر في الأفق البعيد.

زقزقت الطيور بمختلف أشكالها مع بداية الصباح، وغلب لحن الشجن على معظم الأصوات الحزينة، وسمع صوت ام وهي تجيب أطفالها بزقزقة هادئة. فتحت بعض المحلات أبوابها، وغُسلت الأرض بالماء لإزالة الغبار والنفايات. أختلط صوت البشر مع زقزقة الطيور، وقرع البقال المتحرك جرسه جالبًا معه خضراوات وفواكه طازجة لنساء المدينة. دقت المكبرات في كل الأزقة معلنة بداية الاستعداد لصلاة المطر وأنتشر ومض من الذعر في قلوب الطيور والبشر.

صفت السماء من كل غيوم الليل التي ذابت كشعر بنات في فم السماء الزرقاء، وتدفقت نسمة هواء دافئة دلت على بداية يوم حار آخر. خرج نمل أحمر من بؤرة صغيرة وتحرك كجيش منظم بحثا عن ظل وطعام. واحدة تلو الأخرى، كانت النملات تتبع قائد الكتيبة الشجاع بتناسق. تحركوا بمسار واحد نحو المجهول متفائلين واضعين كل أحلامهم على كتفي النملة القائدة. قطع طريق النمل جسد مطاطي أسود ترك ظلا على الأرض الساخنة فأنجذب الفيلق بأجمعه نحوه. أحاطوه من كل الجهات متأملين طعم السكر اللذيذ

فتجرأ قائد الفيلق بالتقرب من الجسد المطاطي وتذوقهُ نافرًا من شكله، ولكنه فوجئ بطعمه الفاتر.

تمتع سرجون بقدح من الشاي خارج قصره، مترقبا قدوم الكاهن، وشعر بحرارة اليوم على ذقنه المحلوق وعنقه العارية. ألهمه المنظر الخلاب الذي ظهر أمامه، إذ امتدت السماء الزرقاء وبساتين النخيل على مدى البصر لتذكر الإنسان بحنينه إلى الطبيعة. أنتظر الكاهن بفارغ الصبر وأرتدى ملابسه التقليدية للقيام بصلاة المطر، قميص بني فاتح نصف كم مع بنطلون أزرق غامق مع نعاله الأسود المطاطي. لم يكن يحبذ عرق قدميه عندما يكون خارج القصر وتشاءم من وجود لزوجة بين أصابع قدميه، لذلك ترك ارتداء الحذاء والجوارب لآخر لحظة. اكتسح ظله الطويل الأرض بكل جلالته وشعر بوخزة خفيفة على سطح قدمه اليمنى التي كانت كافية لجذب أنتباهه، وأحنى عنقه الغليظة إلى الأسفل.

وجد نفسه محاطًا بجيش من النمل يحاصر نعاله وتسلقت بعض النملات الجريئة ساقه العارية وعضتها استطلاعا. فزع سرجون وقفز جانبًا وألقى بالشتائم على النمل، ضرب كف يده قاتلًا ما تبقى من نمل شجاع. تناثرت جثث النمل على التراب الحار، وتلوى الجرحى بألم ودعوا ربهم بنهاية سريعة. أخذ سرجون قدح الشاي ورمى ما تبقى منه على النمل ودخل القصر بعجلة. غرقت جثث النمل بسائل حلو الطعم أسود اللون وأمتد الفيضان على الأرض وغرق المزيد منهم. توقف الجيش بحثا عن طعام، فلقد جاءتهم رسالة بتغيير المسار والبحث عن مأوى، انتشرت الرسالة على عدد الثواني وشاع الذعر بين النملات وركضوا باتجاه بؤرة بيتهم في التراب.

رجع سرجون وبيده إبريق ابيض يتدفق البخار من فوهته، ما حدث بعد ذلك لم تتوقعه أي قارئة فنجان، توقف سرجون فوق بيت النمل وسكب الماء الفائر بأكمله عليهم. أختلط الماء الحار بالتراب الناعم فتخثر طين لزج امتلأ بجثث النمل، اختفى بيت النمل وأصبح طينا محاطا ببركة من الماء

العكر. شقت بعض النملات طريقها عبر خط النار محاولة الهرب والرحيل عن ديارها، ولكن سرجون كان لهم بالمرصاد ودهس على ما تبقى منهم بنعاله. تناثرت نقاط الطين على قدميه وجزءًا من بنطاله، فركها بكف يده ولاحظ وجود نقطة حمراء اختبأت بين الشرايين الغليظة والشعيرات المجعدة. تحسس بشرته عند موضع العضة فازدادت النقطة احمرارًا وورمًا.

- «لقد عضتني نملة.»

تلطخت راحة يده وأصابعه بالطين الناشف الذي تصلب بسرعة بفعل حرارة جسده. رأى الكاهن متجهًا نحو القصر فدخل ليغسل قدميه ويرتدي حذاءه الرسمي، وحينها لاحظ ورما حول نقطة الدم. حكها بباطن إبهامه بخشونة فشعر براحة فورية تشق طريقها خلال قدمه كنجمة تضيء الليل الأسود.

- «يا سافلة.»

لبس واستعد للقاء الكاهن الذي وقف بجوار بقعة الطين، رفع رأسه وقال:

- «أعذرني يا مولاي لقد تأخرت عليك» حنى رأسه احتراما.
- «لا داعي للاعتذار، هيا اشرع بالاستعداد.»
- «حالا.»

اتجه الكاهن نحو حقيبته وأخرج مستلزمات صلاة المطر، كان حليق الراس والشارب، وبسبب قصر عنقه التي لم يظهر منها إلا تفاحة أدم، تخيل الناس التصاق رأسه بجذعه. اختلفت هيئة رأسه عن بقية سكان المدينة، اذ تعود الناس على شكل بيضوي، إما رأسه فكان كرويا أشبه بفاكهة صيفية. أرتدى قميصا رملي اللون بلا أكمام، فجذبت عضلات ذراعيه الانتباه عن صلعته، تباينت تضاريس عضلاته كجبال عالية امتلأ سفحها بصخور خشنة. نبضت شرايين زرقاء تحت جلده الأسمر كمياه جوفية، وأضفى العرق لمعة وهمية لعضلاته التي ظهرت أكبر حجمًا. تباعد ذراعيه عن جذعه بمسافة متساوية

حسب قانون الجاذبية، وأرتدى بنطالا يجانس لون قميصه الذي شده على خصره بحزام جلدي. وضع وشاحا على صدره تتوسطه علامة تدل على مركزه في القصر الملكي، تاج ملكي وبجانبه صورة رمزية لإنسان يعبد الشمس.

تربع على الأرض بجوار حقيبته، ونظر إلى الأفق الذي خلا من أي غيم، حاول تذكر أخر مرة رأى فيها سحابا يحجب السماء، ولكن ذاكرته خانته، فلم تكون قواه العقلية أفضل مواصفاته، لذلك حبّذ استخدام العضلات قبل العقل. شعر بحرارة الأرض تلدغ أصابعه وهي تجتث ترابها الأحمر ولم يداهمه الذعر فلم تكن هذه تجربته الأولى أمام الملك. اعتاد الناس الانتظار لعدة أيام قبل نزول المطر وكل ما كان عليه أن يؤدي دوره بالاستسقاء. تناثر رذاذ العرق على جبينه وألتصق ببشرته متجانسا معها. سالت بعض الحبيبات إلى وجهه، وهنالك وجد الماء المالح مصبًا في عينيه. مسحهما بكف يده الذي احمر من التربة أشبه بحنة مراسيم الزواج. أختلس نظرة إلى الملك فوجده راكعا يحك قدمه بشدة وعندها تنفس الصعداء للحظة ثم فتح حقيبته.

وضع كل أدواته على الأرض بعناية، أخرج نايا خشبيا أولًا وطبلًا ثانيًا. كانت معظم أدواته عتيقة المنظر من جلد الطبلة الممزق إلى ناي أقرب في شكله إلى عصا من آلة موسيقية. تقدم الملك نحوه، وقبل أن يسأله عن جاهزيته، أخرج الكاهن قبعة ملأت بالريش وقلادة رصت فيها مختلف الأحجار الكريمة. التفت نحو الملك وقال:

- «أنا مستعد.»

فتح أزرار قميصه مرتديًا القلادة على صدره العاري فالتصقت بجلده الأسمر وانعكست وجوه الأحجار المصقولة التي أصبحت جزءا من جسده الحجري. ارتدى قبعة غريبة الأطوار كأنها جاءت من مدينة أخرى أو خرجت من زمن ماضي تشبه ذيل ديك رومي. صفٌ بعد صف من الريش الطويل لونت مقدمته بالقليل من الأبيض ونصفه الأخر بالأسود. كان النقش جميلا يشبه مروحة يدوية تستخدمها النساء في عشية أيام الصيف. أصبح وسيمًا

عندما وضع قبعته على رأسه فاختفت صلعته وتضخمت عضلاته وأصبح أشبه بطاووس يغري ما في السماء والأرض.

أشر الملك لمساعديه بفتح مكبرات الصوت استعدادا لبث صلاة المطر، وقف جانبا متفرجًا على الكاهن وهو يلتقط الناي بخفة استعراضية ليباشر بالعزف والرقص بحركة دائرية. عزف ألحانا تُذّكرُ الإنسان بشغفه لنسمات الربيع وهي تقرص وجنات الأطفال صباحًا، وتلتفُ حول فساتين الفتيات مداعبة شعورهن. ازدادت بهجة الطيور بهذه النغمات فغردت معا، وعندها اختلطت أصواتها مع لحن الناي فأصبحت كزغاريد السيدات في الأعراس والأفراح. تأثر الملك بهذا المشهد وتذكر حبه للعب تحت الأشجار في البستان حين كان غلامًا والاستمتاع بزقزقة العصافير. بثت هذه الأصوات الشجية في كل أرجاء المدينة فسمعها الناس صغارًا وكبارًا، واشتعلت شرارة في أرواحهم لحب إله الشمس الذي حماهم من كل ظلم وسوء.

رسم الكاهن دوائر مختلفة الأحجام في التراب مصليًا للسماء، وتمايل الريش يمينا وشمالا وسال العرق ببطء كالشمع. أبتل شعر إبطه الأسود ملتزقًا بالعرق وأصبح سرحًا، نامت الشعرات على بعضها كحقول الشعير التي كسرت سيقانه بإعصار. أخذ الطبل ووضعه تحت إبطه بمهارة طبال، واختلط الغبار بعرق جسده فألتصق الطبل على جسده وأصبح طرفه الخامس. ضرب جلد الطبل مرة واحدة ليفحصه ويتأكد من شده، اهتز الجلد ورد عليه برنين تردد في كل زوايا المدينة.

أبتسم سرجون مفضلًا هذا الجزء من المراسيم منذ أن كان أميرًا مراهقا فأرتبط رنين الطبول بالحفلات التي أقامها والده في الأعياد الرسمية. ذكرته تلك النغمة الرنانة برقص الفتيات وجمالهن وهن يهززن خصورهن النحيلة ويتلاعبن بفؤاده بحركة خفيفة من قدم أو ساق فيتمنى ارتفاع فساتينهم ويرى ما اختفى تحتها. كم كان يحب الحب والنساء، ولكن تمارا أسرت قلبه وعقله وأصبح سجينا في قلعة حبها.

ضرب الكاهن الطبل عدة مرات مصدرا رنينا هز المدينة بأكملها، رقص ودق الطبل بمهارة ومال جسده بطريقة دائرية أنثوية، وتناثر الغبار على قدميه العاريتين. تفرج الملك وعمال القصر على الكاهن مؤديًا طقوس الصلاة. رفع الملك رأسه عاليًا باحثًا عن غيمة، وقلده العمال فرفعوا رؤوسهم كضفادع تبحث عن ناموسة لذيذة. غيّر الكاهن من إيقاع الضربات وازدادت كثافة الدقات تدريجيا مما دل على دخول المرحلة الأخيرة من المراسيم. عدل الملك قامته ونفخ صدره مستعدًا لدوره، وقف بجوار الكاهن مرددًا دعاء المطر:

يـا إلـهــي يـا إلـهــي	يـا مجـيـب الدعـــــواتِ
أنـــزل المطـــر علـــينا	وأملا أرضنا بالخضـــروات
يا كريم يا رب السماء	يـا عظيم املأ واحتنا بالماء
يـا إلـهــي يـا إلـهــي	يـا كـثـير البـركـــــــات
يا إله الشمس يا حارس مدينتنا	خُذْ جزءا من عمرنا وأعطه لملكنا
اشتاقت عروقنا للماء	انزل المطر علينا هذا المساء

ترددت الصلاة على مسامع الشعب مثلما ترددت أنغام الناي، واختلطت مع الكلمات التي تدفقت من المكبرات ورددها الصغار وهم يلعبون في الشارع. أصبحت الصلاة جزءا من اللهجة العامية التي تستخدم بين عامة الناس وينطقها لسانهم بدون استرجاع من مخزن الذاكرة. رفع الرجال والنساء راحات أيديهم إلى السماء كزهور عباد الشمس ودعوا إلى الرب بإخلاص، أغلقوا عيونهم وعضوا على شفاههم حتى تدل صلاتهم على الندم ونقاوة القلب. أصبح هذا جزءا من مشهد التمثيل المطلوب من قبل الملك، فكلما فعمت الصلاة بالتوبة والاستغفار كلما استمع الرب لها، شرخت السماء بكلمات الغفران كبرق قسم سقف السماء بالنصف. توغلت عناصر الشرطة

بين الشعب يفتشون عن كل إنسان تجنب الصلاة، وعقوبة من لم يصل يقدرها الملك بنفسه، لذلك اندفع الجميع بالاشتراك في هذه التمثيلية.

بعد أن كرر الكاهن دعاء المطر عدة مرات، اختلس نظرة نحو الملك الذي أمره بالتحرك جانبًا. أخذ سرجون موقعه في وسط الدائرة، وكرر الدعاء بصوته المعهود. كانت هذه إشارة نهاية الصلاة، وعندها تنفس الجميع الصعداء وانتظروا خطابه، أنهى الملك الصلاة بالتزام الصمت لبرهة، وأخذ دور البطل في هذا المشهد ووقف كصقر نفش ريشه ونفخ صدره. رفع سبابته اليمنى عاليا كأنه يلقن أطفال المدرسة درسًا وقال:

- «يا أبطال الحرب، يا حماة السلام، يا شعبنا المنصور، يا أحبائي من صغار وكبار لقد ظمئت العروق وعطشت الجذور، أدعو معي لربنا، رب الشمس حارس مدينتنا لينزل المطر بردًا وشتاءً فهو بركة الرب ونعمة الحياة، أدعوا معي.»

سُمع صوت الدعاء في الشارع والأزقة وردد الناس مع ملكهم «يا رب» التي دوت بين جدران المدينة، وأرتد صداها على جدران القصر الملكي، ابتسم الملك على ردة الفعل فشكر المواطنين وأعلن نهاية الصلاة. وقف الكاهن جانبًا محني الرأس منتظرًا أمرًا من سيده.

- «أحسنت صنعًا، شكرًا يا كاهن.»
- «عفوًا يا مولاي.»
- «متى تتوقع نزول المطر؟»
- «ثلاثة إلى أربعة أيام يا مولاي.»

غمغم الملك وتطلع إلى الأفق الذي غُطي بحجاب من سراب تلتهمه حرارة الصحراء، وقف الكاهن منتظرًا.

- «عليك بالذهاب يا كاهن» حك قدمه بإبهامه راكعًا ولم ينظر باتجاهه.
- «مع السلامة» تحرك الكاهن فخلع الوشاح وجمع ما تبقى من أدواته ووضعها في حقيبته وعندها قاطعه الملك:

- «يا كاهن؟»
- «نعم يا مولاي؟»
- «هل تعتقد أن إله الشمس موجود؟»

تلعثم الكاهن ولم يعرف كيف يجيب على سؤال كهذا فلم يسأله أحدًا عن أيمانه مسبقًا.

- «بالتأكيد ألا تراه إمامك، ألا تشعر به وهو يدفئ جسدك ويحميك من كل مكروه، الم ينصر ويساند والدك في حروبه. جدد إيمانك وأنظر إلى شروق الشمس وغروبها.»
- «ولكنه لا يصغي لصلاتي، فتوقفت عن الصلاة.»
- «ومن قال لك انه لا يسمع دعواتك؟ أنظر حولك أنه الجمال في كل المناظر الخلابة، أنه الخضار في النبات والروح في الحيوان. بدونه لن ينمو عشب واحد على هذه الأرض الجدباء. أنه رب رحيم، تخيل لو كان لون النبات أحمرا سوف تتعب عيوننا من النظر إلى البساتين والأشجار، ولذلك خلق النبات أخضرا لكي يكون جميلا وحلو المنظر.»

أنصت الملك لكل كلمة خرجت من فم الكاهن التي زرعت بذرة الإيمان في صدره مجددًا ونمت جذورها وترعرعت وتسلقت أوراقها بين قفصه الصدري وازدهرت الأزهار الصفراء والحمراء وملأت الفراغ الذي كان يضايقه لفترة طويلة.

◆◆◆

أستيقظ ربيع على دقات طبول تدوي من مكبرات الصوت، واهتزت ستارة النافذة مع كل نبضة، تسرب خيط الشمس الذهبي من فتحة عامودية رفيعة كشق جراحي وسطعت على مساحة ضئيلة بين عينه وخده الأيسر. قرر إغلاق الستارة فوجد ذراعه ما تزال نائمة بجواره، ورأى بعين واحدة مفتوحة كواكب ومجرات من الغبار تحوم في الهواء. ضجر من بداية يوم آخر، فوضع رأسه على الوسادة مستعدا لمواجهة عبء يوم جديد. كره الصباح منذُ الصغر وعشق السهر وسكون الليل. دفع صخب الناس المتفائلة به إلى الجنون صباحا واشمأزَّ من هديل الحمام وصياح الديك عند بزوغ الفجر. وكان هنالك شيء واحد كرهه أكثر من كل هذه الأصوات وهو صوت الطبخ في الصباح الباكر، من اصطدام أدوات الطعام مع الأطباق وغليان الماء ومختلف أصوات التقطيع والفرم والطبخ بكل أشكاله.

اعتبر نفسه نرجسي الشخصية برقة ورقة شجرة تعوم على سطح بركة من الماء في إحدى برك الشارع. جاءته فكرة كتابة الشعر مع شروق الشمس يوميًا فوضع قلما وورقة بجواره عند كل غسق، ولكن النعاس كان يسلبه من كل أحاسيسه، فبقت الورقة بيضاء عذراء وبجوارها حبيبها قلم الرصاص. تنفس الصعداء متنهدًا وفتح الستارة بسبابته فوجد السماء زرقاء بلون الخرز والكف اللتين تستخدمهما جدته لإبعاد الحسد. لاحظ اختفاء السحاب وقال لنفسه:

- «لماذا تصلون يا جهلة؟ لن ينزل المطر ولو ذبحوا كل خروف وعجل في المدينة.»

كانت أذنه اليسرى أكثر حساسية من أختها، وثمة طنين يصدر منها بين حين وآخر مما دفعه لأن يغلقها براحة يده كحفرة أرنب، أغلق عيناه وأصغى لموجات البحر التي غرق وجدانه بها. وبعد فترة وجيزة، دوت دقات قلبه تصاعديًا فاستيقظ من غيبوبته المصطنعة. أحس على وجع بين أضراسه، عندها زحف لسانه بعملية جاسوسية للاستطلاع على ما هو غريب بين

ضرسه ولثته. التف لسانه كحلزون مقلوب على الأرض، ولمس ضرسه اللزج وما حاوطه، لكنه رجع خالي الوفاض. ضغط على ضرسه بمفصل إبهامه بقوة، عندها شعر بارتياح فرجع يداعبه بلسانه.

خاف ربيع من الألم، وتمدد بجذعه على طول الفراش كقطة تتشمس على سطح بيت دافئ. ازدادت دقات المكبرات على عدد الدقائق مما دفع به للنهوض بسرعة كما لو كان نائما على جمر. لقد خطط لهذا اليوم أن يكون مختلفًا عن بقية الأيام، فلقد نوى زيارة الخياط قبل الذهاب إلى الصحيفة، وعلم أن الذهاب إلى السوق مبكرًا سوف يأخذ منه نصف ساعة على الأقل، ومع ذلك يبقى هذا أقصر مدة من زيارته ليلًا. وبسبب حساسية أذنه، ومشاعرة الشفافة، قرر زيارة الخياط صباحًا، تجنبًا لرائحة الأكل المشوي المختلط بعرق الناس، وهم مندفعين متجنبين المحلات والمياه الآسنة. كانت عيناه تتعبان من الأضواء الساطعة المعلقة في السوق بلا نظام أو ترتيب من قبل بلدية المدينة.

تمدد ربيع متمتعًا بدفء الشمس واتجه إلى حمامه لقضاء حاجته. بعد الانتهاء من المراسيم الصباحية، خرج من غرفته مرتديا قميصا أزرق طويل الأكمام مع بنطلون أسود. هكذا تخيل نفسه كصحفي مهم فأصبح باستطاعته الكلام مع رئيس التحرير بسلاسة. تسمر في بداية الممر المظلم متصنتًا عند باب جدته، سمعها ترتل دعاء المطر بصوتها الشجي، تدفق الدفء في فؤاده وتذكر الحليب الحار الذي أعدته جدته له حين كان غلامًا. ترك مشاعر الحنين في الممر، واتجه نحو النور باحثًا عن طعام في المطبخ. كان على عجلة من أمره، فأخذ قطعة من الكعك المغطى بالسمسم وأغلق الباب خلفه بلا مبالاة.

خرج على أطراف أصابعه بحذر فكان دعاء المطر على وشك الانتهاء، ووقف الناس منتظرين خطاب الملك، أحكم قبضته داخل جيبه وأندمج مع بقية الناس مرددا الدعاء بحيوية مصطنعة. كان الدعاء من أول النصوص التي تدرس للأطفال في المرحلة الابتدائية فتحفظ غيبًا وعلى التلاميذ تعلم

الاملاء أيضًا. تذكر ربيع عندما عبر الشارع باتجاه السوق حين ألقي القبض عليه متلبسًا كاتبًا نسخة جديدة من الدعاء، ولكنها ملأت بالسخرية والألفاظ الرديئة. قبض عليه أحد المدرسين يومها وجره لمكتب مدير المدرسة من أذنه اليسرى مبتهجا كقطة وجدت وكرا للفئران، أضيئت ذاكرة ربيع باحمرار خدي المدرس من السعادة، وارتعاش صوته وهو يطلع المدير على ما حدث. ربت المدير على كتفه بلطف وهنأه وقال:

- «أتركني مع ربيع لو سمحت.»

خرج المدرس وأغلق الباب بهدوء، وقف المدير بجوار ربيع صامتًا فأجابه الطفل بغض النظر وعقف رأسه للأسفل كأنما منجذبا بقوة مغناطيسية، قال المدير:

- «ماذا حدث يا ربيع؟ إنك من أشطر الطلاب في صفك.»

لم يتكلم الطفل وارتعش جسده مقاومًا البكاء.

- «لا تبكِ، قل لي ما حدث؟»

أخرج الطفل ورقة صغيرة من جيبه وأعطاها للمدير بدون أي حركة من رأسه. أخذ المدير الورقة وباشر بقراءتها. ابتسم المدير محاولا اختلاق شعور من الجدية تتوغل فيه ضحكة عفوية.

- «هل كتبت هذا الدعاء بنفسك؟»

هز الطفل رأسه بالإيجاب ومازال نظره يبحث عن شيء في باطن الأرض.

- «لديك موهبة يا أبني لكنك تضيعها في كتابة هراء كهذا. عليك باختيار قصاصك بنفسك. الضرب بالعصا عشر مرات أو كتابة قصيدة لمديح الملك. ما رأيك؟»

أختلط صوت الطفل بالدموع المالحة وقال:

- «القصيدة، أختار القصيدة، سوف اكتبها حالًا.»

- «ممتاز سوف أنتظرك صباح الغد وعليك بقراءتها أمام المدرسة يوم الخميس مع رفع العلم. حسنًا هيا أخرج من هنا وأذهب إلى صفك.»

تمشى ربيع بين المحلات، ورأى الناس تصغي لخطاب الملك، رجال بمختلف الأعمار واقفين خارج محلاتهم ملهمين بما يتلى عليهم وكان منظرهم أقرب إلى رقعة شطرنج خلت من القطع ولم يبق سوى بيدق أو حصان منفصلين بمربعات شاسعة. خرج الدخان من أفواههم وانحنت سيجارة بين أصابع اليد كدليل على رجولتهم كخاتم أو صولجان يقدم للشباب في فترة المراهقة. نفر ربيع من رائحتهم الكريهة وتفاداها قدر المستطاع فمال جسده يمينًا كمصارع ثيران متجنبا الحفر والمياه الآسنة وشمالًا متجنبًا الدخان والناس.

صفق الناس مع انتهاء الخطاب ورددوا بكل طاقتهم «يا رب» فأرتج التراب والغبار وطار عصفور يستحم في إحدى البرك باحثًا عن مكان آخر. أنتهى الشارع في فم السوق الذي سكنه هدوء صباحي فلا يُسمع الا صوت المراسيم الصباحية تتردد في مختلف الدكاكين. دخل ربيع السوق متأملا، وشعر بطمأنينة تتدفق بين أصابع قدميه وارتخت العقدة من قبضة يده.

بحث عن لافتة تدله على محل الخياط في البداية، لكنه انجذب لجو السوق المسحور، وسُحب إلى الباطن خطوة بعد الأخرى. اختلطت اللافتات بين الدعايات والمقولات الملكية التي كتبت بخطوط مختلفة وألوان متعددة. دخل عميقًا في السوق، فازداد الضجيج تدريجيًا وسمع صوت الحديد يطرق بخفة مع كل دكان يفتح بابه بادئًا رزقه، مسحت الأرض من الغبار ورشت بالماء فتعطر الجو برائحة الأرض والتربة. لمح ربيع فتاة نحيلة الجسد تغطي شعرها بوشاح أسود تمشت بجانب الحائط منحنية الرأس، تابعها خلسة وهي تحاول أن تطير بجناحيها المكسورين عدة مرات وحين فشلت دخلت إحدى المحلات وأغلقت الباب خلفها.

اختفت رائحة الأرض العذبة، ونسجت خيوط جديدة حول ربيع كشبكة عنكبوت أغرته نحوها، ذاب لُبّه وترسب العرق على جبينه كمسبحة حينما

رأى الفرن أمامه. لم يميز ما رآه أمامه في البداية، فرائحة الخبز الحار ومنظر التنور الطيني أخذ عقله أسيرًا. بلع ريقه الناشف وبحث عن أسم الفرن. علقت لافتة كتب عليها «فرن المحبة» وبجواره لافتة سوداء تنعي أبن صاحب الفرن (جميل).

- «يا إلهي يا لها من صدفة» تكلم ربيع مع نفسه.

وقف أمام المخبز لعدة دقائق مختلسا النظر عبر الزجاج باحثا عن أصحاب الفرن. دخل بعض الزبائن ونظروا إليه باستغراب. نادته معدته جوعًا وامتلأ فمه بلعاب فلم تكن قطعة الكعك كافية. اخترقت نكهة الخميرة أحاسيسه، وسُحب إلى المحل رويدا رويدا، دخل ومع كل خطوة انتابه شعور غريب بأنه يدخل عالما آخر. وقف ربيع مع بقية الزبائن في وسط المخبز منتظرًا دوره، لسعته رائحة الخميرة مع روائح البهارات التي حاول حزرها. نظر جانبًا فوجد صفوفا كاملة من الصمون الحار متلاصقة واحدة بالأخرى كطابوق بيت رتب باعتناء لبناء حائط. القى نظرة مختلسة على الزبائن فرأى امرأة مسنة ذات حدبة تحوم حول التنور مرتدية ملابس سوداء من الرأس إلى أخمص القدم.

تجعد وجهها من حرارة الجمر مما جعل حزر عمرها صعبًا، أضافت حطبا للنار فتوهج التنور بإعصار من الدخان وأنعكس طيف اللهيب على جدرانه. أخذت كرة مدورة من العجين أعدتها مسبقًا من صينية امتلأت بكرات مشابهة وعجنتها بتصفيق يديها بانسجام فكبرت العجينة بين أصابعها وأصبحت خفيفة مدورة. وضعتها على وسادة قديمة وأدخلتها داخل التنور بسرعة، وضربت جداره الداخلي بها، فالتصقت العجينة بأكملها. كررت العملية عدة مرات ورفعت كميها ومسحت جبينها بهما واتجهت نحو الزبائن لتحاسبهم.

التفت ربيع إلى أحد الجدران فوجده عاجا بصور عائلية، أطفال يلعبون في الشارع، وأطفال عراة يشربون من صنبور ماء، رجل وامرأة يبتسمان

باتجاه مجهول، صور لمختلف الزبائن داخل الفرن وخارجه، رجل يلعب لعبة الطاولة مع أصدقائه. ومع كل هذه الصور، وجد ورقة ضئيلة قصت من الصحيفة عرفها من طبيعة الورق المطبوع علقت بدبوس نحاسي. لم يفقه لماذا هنالك ورقة بيضاء مربعة ترك حبرها أثرا بأن صاحبها أعتنى بها. ألهمه وجدانه شعورا غريبا عندما قرأ كلمات النعي الذي كتبها بقلمه، ولكنه لم يربطها بنفسه. سحبت المرأة الخبز الحار من التنور محتمية بقطعة قماش قديمة، ورمت الخبز على صينية حديدية مستديرة بجوارها. تدفقت الرائحة الطازجة مرة أخرى وفرح الزبائن منتظرين دورهم بفارغ الصبر.

- «شكرًا جزيلًا أم جمال.»
- «أهلًا وسهلًا.»
- «تحياتي إلى أبي جمال.»
- «بالتأكيد.»

رُسمت السعادة على وجوههم وهم يخرجون واحدًا تلو الآخر، وعندما يغلقون باب الدكان خلفهم، يدّقُ جرسٌ نحاسي عُلق من سقف المحل يرن كلما ارتطم الباب به. خرج ربيع من أحلام اليقظة على صدى الجرس، وقرر شراء حزمة من الخبز ليشارك زملاءه بها. تقدم خطوة ولسعت حرارة الفرن وجهه مقتربًا من ماكينة النقود، نظرت المرأة إليه بصمت تنتظر طلبه.

- «مرحبا.»
- «بماذا تأمر؟»
- «حزمة من الخبز لو سمحتي.»
- «عشرة قروش.»

اتجهت إلى الفرن الذي اعتنت به كما تعتني الام بطفلها. وضع ربيع قطع النقود الفضية على الطاولة وأنتظرها لتخبز من جديد. سال العرق من جبينه، وشعر بأن الفرن استنزف كل هواء الغرفة، وجدها تعجن بكل طاقتها وتساءل مع نفسه:

- «هل بإمكاني أن أسالها عن أبنائها؟ أم أن الوقت محرج وسوف تغضب من تفاهة تدخلي.»

وضعت الوسادة داخل الفرن بدون كلل أو ملل ورجعت تُحضّر عجينة أخرى. وقف ربيع كتمثال مقاومًا كل الروائح الشهية وقال في خلده «كان عليَّ الذهاب إلى الخياط، لقد تأخر الوقت وسوف يتساءل الجميع لماذا تأخرت».

أعتاد على صوت تصفيق يديها، وتمنى لوكان باستطاعته مساعدتها بأي وسيلة ووصل إلى قرار بعد نزاع داخلي بأن يحاورها فبدأ بالشكليات:

- «البقية في حياتك يا عمة» لم تسمعه المرأة فكانت تسبح في محيط امتلأ بالمآسي وانشغلت بعملها.
- «أم جمال» قالها بصوت عال. التفتت المرأة مستغربة، وحاولت تذكر شكله فلم تراه من قبل.
- «البقية في حياتك أم جمال.»
- «حياتكم الباقية.»

ركزت عليه بعيون فارقتهما الحياة وأصبحتا كخرزتين سوداوين تعومان في ماء اصفر. أراد تفسير سبب وجوده فقال لها:

- «لقد كتبت النعي بنفسي ومررت من هنا...»

فُتح الباب باكتراث، ودق الجرس فسرقت رنته ما تبقى من كلمات ربيع، ودخل رجل هرم مرتديًا ملابس تقليدية ترك الزمن حفرا وتلال على وجنتيه. اختلطت تجاعيد وجهه بجروح الحياة، ولوّن الشيبُ شاربه الناعم وحاجبيه فأصبح أليف المنظر، ولم يبق إلا بريق التمرد يشع من عينيه، تدلت سيجارة بيضاء من منتصف فمه انسجمت مع شواربه الرمادية. تنافس أنفه مع لغده في الحجم، وأصبح مركزا للثقل، انسجم سماره مع لون قميصه الماروني وسترته رملية اللون التي زادت من وقاره وحضوره الملحوظ.

سحب موج الخجل التراب من تحت قدميه، وتصلب القلق كحجارة ملساء ضغطت على صدره، وجد ربيع زاوية ليحتمي بها، فداهمه شعور أن الرجل ليس بزبون، بل صاحب المحل، ورآه يفتح بابا صغيرا بجوار ماكينة النقود، ويدخل إلى مطبخ الفرن، استقبلته المرأة بعطف ورسمت على شفتيها أملا وقالت:

- «بشّر يا أبو جمال؟ هل وجدته؟» وقفت بجوار التنور وعيناها تتنقلان كرقّاص ساعة بين التنور وزوجها.
- «لقد سألتُ عنه في كل المخافر ولم أجد شخصا واحدا يعطيني جوابًا مفيدًا» تنحنح مع كل كلمة.

أخرجت المرأة الرغيف بعجلة ورمته على الصينية بلا مبالاة، وعندها لسعت الحرارة أحد أصابعها، فلطعته مستخدمة لعابها كسائل مبرد. مسحت أصبعها بملابسها الرثة، ووضعت مجموعة الخبز على ورقة صفراء من أوراق الصحيفة القديمة، وجعلت منها حزمة أعطتها لربيع دون كلام. استمع لحديثهما، واستمتع بحرارة الخبز تتسرب من خلال الورق الرقيق وعطر الجو بنسمة حبر ذائب مع رائحة الخبز العطرة.

- «قال لي أحد أعضاء الشرطة بأنه في السجن ينتظر حكم الملك.»
- «هل باستطاعتي أن أراه ولو لفترة وجيزة؟» قالتها المرأة متفائلة.
- «لا أدري سوف استمر بالبحث بعد الظهر» التفت الرجل نحو ربيع وسأله:
- «هل تأمر بشيء أخر؟»
- «انه الصحفي الذي كتب النعي» قالتها المرأة لتلطف الجو المتوتر.
- «أهلًا وسهلًا، هل باستطاعتنا مساعدتك يا أبني.»
- «كلا، لكنني أحببت أن أزوركما شخصيًا، فلقد تأثرت كثيرًا عندما قرأت الخبر بنفسي. البقية في حياتك» مدَّ يده ليصافح أبو جمال وإجابه الرجل بوجوم «حياتكم الباقية.»

- «إذا احتجتما لمساعدتي اتصل بي في الصحيفة» أخذ ورقة صغيرة من حزمة الخبز وكتب عليها عنوانه.
- «شكرًا جزيلا، هل تعرف جمال شخصيًا؟»
- «كلا.»

صمت الجميع وأحسَّ ربيع بتأخر الوقت، وحينها دخل عدد من طلاب مدرسة مجاورة فامتلأ المكان بضجيجهم، أستأذن ربيع منهم لكن صوته تبخر بين طلبات التلاميذ. دق جرس الباب وخرج من المحل حائرًا، رسم الخجل على وجنتيه وتعرقت يداه بغزارة. وجد متسولا جالسا على الأرض، مستندًا بظهره على جدار مواز، مبتور الساقين، رُسم البؤس على جفنيه، وتشبعت عيناه بالظلم، وضع علبة مفتوحة أمامه فيها بضعة قروش. أخرج ربيع رغيفا من الخبز، ووضعه بجواره، فشكره المتسول ودعا له ولأهله فسأله ربيع:

- «هل تعرف أين الخياط؟»
- «نعم تمشى لعشرين مترًا بهذا الاتجاه وسوف تراه على يمينك.»
- «شكرًا لك».

◆◆◆

سنتان قبل ولادة ربيع

كان اليوم مهمًا في تاريخ المدينة الحديث بعد عدة سنين من وفاة الملك الأول واعتلاء سرجون العرش، إذ أصبح تأمين مستقبل المدينة مهمًا للغاية. وجد سرجون نفسه يسرح في جنة أنثوية بعد فترة الخطوبة بأشهر قليلة، فلقد أضفت تمارا لذة على حياته الفارغة، لذلك قرر عقد قرانهما بأسرع وقت. استخدمت هذه المناسبة لتجديد حب الشعب للعائلة الملكية، وبعد تخطيط وتنظيم لاستقبال الضيوف جاء يوم العرس الملكي. امتلأت المدينة بلافتات تباركُ للملك وزوجته بهذه المناسبة السعيدة، وزرعت زهور الكاميليا للزينة في أرجاء الأحياء الشعبية لتضيف بهجة للجو العام. لم تتأقلم هذه الزهرة التي فضلتها تمارا على أية زهرة أخرى مع مناخ المدينة الجاف، لذلك أمر الملك بالبحث عنها، وجلبها من مدن مختلفة بعيدة لإثبات حبه للأميرة.

استشار سرجون والدته حين اعتزم الزواج من تمارا، ففرحت وطلبت منه أنجاب الأطفال بسرعة ليصبح هنالك ولي للعهد بعده. ذكرته يومها انه لن يجد فتاة تسعده مثل تمارا، وأن بُعدها عن أهلها سوف يكون لمصلحته فيصبح عقلها وذاتها ملكه، ونبهته يومها أن جسدها الرقيق قد خُلق لينجب خليفة له. أرتاح باله وأزاح الهم كغطاء غلف قلبه، وأراد إرضاء والدته بكل وسيلة، وخصوصا بعد وفاة والده. أهدت الملكة مجوهراتها التي ارتدتها يوم عرسها لتمارا كتميمة لحظ سعيد، ولكن تمارا رفضت بإصرار، إذ وعدت والدها بأنه هو من سوف يصوغ مجوهرات الزواج بنفسه، واضطر سرجون للتدخل يومها لإرضاء الطرفين، واستطاع أقناع تمارا بارتداء تاج والدته الثمين.

نظرت إليه تمارا بخجل وقالت له «سوف أجعلك سعيدًا يا مولاي»، تدفقت سعادة مطلقة في شرايينه فلم يسمعها تناديه بمولاي من قبل.

لم تخلوا الاستعدادات من المشاكل بين الرغبة في دعوة عدد هائل من الضيوف، وترتيب القصر لاستضافتهم، وبين تجميل وتنظيف شوارع المدينة لتبدو حديثة العمارة. أصبحت إدارة العرس الملكي من أكبر التحديات التي واجهها راشد خلال خدمته للعهد الملكي، وأراد إثبات جدارته لمولاه. هبت نسمة باردة على المدينة بعد عشرة أيام من المناخ الجاف كهدية من الرب مباركًا العروسين بحياة مُلأت بالحب والسلام. وقف سرجون أمام المرآة يتمعن في وسامته، وداعبت الريح ستائر غرفته. ارتدى بدلة بيضاء صممت خصيصًا له من أمهر الخياطين في الخارج: قماشها أبيض ناصع المنظر وناعم الملمس فأزداد حسنًا وجمالًا، ولم تحسن البدلة من مظهره وحسب، بل عدلت من أخلاقه وهذبت لسانه. ازدادت رغبته في الحياة، إذ كان في بداية عهد جديد من حياته لم يتذوق طعمه مسبقًا، واعتبر زواجه من تمارا أقرب إلى حركة ذكية في لعبة الشطرنج عندما يقتل الوزير ويُوضع الملك في خطر في آن واحد، فزواجهما سوف يعزز مركزه كقائد مع أنجابها لولي العرش، وفي الوقت نفسه يبين للناس انه واحد منهم يأكل ويشرب ويتزوج ويحتفل معهم.

وبالتأكيد مثل كل عريس اهتم بمظهره اليوم فترك لحيته طويلة لبضعة أيام قبل موعد العرس وعندما حلقها أضاء وجهه بهالة من النور ميزته عن بقية الرجال. أهدته أمه خاتم والده ليرتديه اليوم كرمز للشمس، فلا يوجد في حلقة الزواج بداية أو نهاية وهكذا شعر بحبه بدون حدود لتمارا. ارتدى الخاتم في بنصر يده اليسرى واستغرب في البداية من وجوده بشكل دائمي ملامسًا إصبعيه، فأختل توازنه وبلمسة سحرية من يده اليمنى داعب الخاتم بدرجة أو أثنين ومع كل استدارة استرد توازنه وثقته بنفسه. عدّل رباطه الأبيض، وأكمل أناقته بابتسامة بريئة. دخل راشد ومعه التقرير اليومي الذي يحبذ اطلاع الملك عليه يوميًا ولم يتوقف سرجون عن إدارة المدينة حتى في يوم عرسه.

- «ابن الحلال، لقد تساءلت إين اختفيت؟» قالها الملك ولم يرفع نظره عن المرآة.
- «عذرًا يا مولاي، لقد تأخرت إذ احتاج منظم قاعة الاحتفالات لمساعدتي.»
- «أجلس ماذا تجلب من أخبار؟»
- «كل شيء على ما يرام لقد وزعت عناصر الشرطة والحماية في كل شارع سوف تمر به العربة.»
- «دعنا من هذه التفاصيل، قل لي هل تحب رباط عنقي؟»
- «بصراحة يا سيدي أخاف أن تزعل مني.»
- «تكلم يا راشد، اني أخذ نصيحة من صديق وليس مندوبًا.»
- «بصراحة أنني أفضل الوردة السوداء مع البدلة البيضاء فالرباط الأبيض يندمج مع القميص ولن يراه أحد، ولكن الوردة تجلب الأنظار لجمال عنقك.»
- «فراشة» وتحسسَّ عنقه متغزلا بجماله.
- «نعم.»
- «معك حق» نزع الملك الرباط وبحث عن وردة سوداء في درجه.
- «ولا تنسى ارتداء أوسمة الشجاعة التي حزت عليها حين كنت رئيس كتيبة الجيش، سوف يتلاءم الذهب مع بدلة السهرة.»
- «كان عليك أن تصبح مصمم أزياء» قالها سرجون والخبث يتطاير من عينيه.
- «شكرًا سيدي.»
- «أكمل التقرير اليومي» قالها الملك مستبدلًا إكسسوارا بآخر.
- «لقد نشرت القوانين الجديدة في الصحيفة، وهناك رد سلبي من الإدارة، فلقد أخبروني أن قانون (إذا كسر رجل عظمة رجل أخر فعقابه بكسر ذات العظمة) سوف يكون مرغوبًا جدًا من قبل العامة، ولكن قانون (إذا ضرب الابن أبيه فتقطع يده عقابًا) مبالغ به.»

غمغم الملك ورد من وراء حنجرته « نعم وماذا بعد؟»

- «لقد استقبلوا القوانين الأخرى بسلاسة ورحبوا بقانون (إذا تهاوى بيت فوق ابن صاحبه فأن ابن الباني يُعدم).»
- «الحقيقة أن هذا القانون إنذار لكل البنائين الذين يغشون بناء البيوت الطينية، لقد أرتفع عدد الضحايا من البيوت التي تهدمت بسبب الريح في الآونة الأخيرة وماذا عن قانون الأطفال (يحظر إعماء الأطفال ليصبحوا متسولين أفضل)؟»
- «لقد أستقبل بالترحيب وجاءتني تحية خاصة من رئيس دار الأيتام.»
- «جيد وماذا عن قوانين التي تتعلق بالخيانة؟»
- «قالوا لي أن الموت بالخازوق أفضل رد لجريمة كهذه.»
- «ممتاز هل هنالك شيء أخر أحتاج لمعرفته قبل دخولي إلى القفص الذهبي؟» قالها بفكاهة والابتسامة تمتد على خديه.
- «نعم سيدي.»
- «ماذا الأن؟»
- «لقد جاءني تقرير في المدة الأخيرة أن هناك خلية مقاومة نشطة في الجزء الجنوبي من المدينة ولها تأثير حقيقي على الرأي العام، فيها عدة أعضاء ونعتقد أنهم مسؤولين عن عملية النافورة.»

أنتهى الملك من ترتيب الوردة السوداء حول عنقه وأنصت لما يقوله راشد.

- «لقد طلبت تقريرًا كامل عن هذه العصابة.»
- «وهل حصلت على معلومات جديدة؟»
- «كلا يا سيدي، لكنني أردت اطلاعك على أخر الأخبار.»
- «دعنا نلتقي مرة أخرى بعد مراسم الزواج.»

هز راشد رأسه موافقًا، قاطعه الملك:

- «راشد؟»

- «نعم سيدي؟»
- «أريد أن أجعل منهم مثالًا لكل من يحلم بانقلاب أو بلمس شعرة واحدة من عائلتي.»
- « بالتأكيد.»
- «دعني أطرح عليك فكرة جديدة جاءتني في المنام» ثم أكمل «أريد بناء تمثال لتمارا ولنفسي في إحدى معابد الصلاة للاحتفال بالعرس الملكي، أريد أن تتعامد الشمس على وجه التمثالين في الذكرى السنوية لعرسنا. تشرق الشمس على الأصنام معلنة بداية الاحتفالات السنوية، ما رأيك؟».
- «أنها فكرة رائعة يا مولاي.»
- «أختر معبدا مع الكاهن يدل على الخصوبة والحب أو ربما ضع التمثالين في معبد الزراعة.»
- «كما تأمر.»

نظر الملك لانعكاس راشد في المرآة وهز رأسه ببطء، عدَّ راشد هذا أمرا بالرحيل، فخرج على أطراف أصابعه، تاركًا الملك متأملا مستقبله كرجل متزوج. داعب خاتمه واستدار كعبد بين أصابعه وتساءل في خلده هل سوف يشتاق لأيام العزوبية، أصبحت تمارا أغلى شيء يتمناه في الدنيا. أخرجته دقتان على الباب من تأملاته والتحم هاجسه بكيانه، وفُتح الباب بخفة معهودة، ودخلت الملكة الأولى وواكبتها تمارا خلفها. ارتدت الملكة فستانا وردي اللون، فُصّل لها ليتلاءم مع جسدها وعمرها. إما تمارا فارتدت ثوب عرس أبيض صمم لها فأحتضنها بجاذبية، التصق بلحمها، وتعانق خصرها الطري مع القماش الناعم كانسجام مفاتيح البيانو البيضاء والسوداء.

أبتسم سرجون لابتسامتهما، ولاحظ التاج الملكي على رأس عروسته.

- «أليست جميلة، لقد أحسنت الاختيار» قالتها أمه بفخر وربتت على ذراعه.

- «لقد غيرت ربطة العنق، فكرة جيدة» وعدلت تمارا الفراشة منحنية قليلا.
- «هل حان الوقت؟»
- «نعم علينا بالذهاب» قالتها الملكة.

احتضنت تمارا يد سرجون بيدها، واتجهوا نحو الباب، جُذب سرجون بجمال وجهها وعنفوان شفتيها ونعومة إكسسواراتها التي صاغها والدها فتجانست مع لون بشرتها وأضافت لمسة أنثوية جعلتها أقرب إلى شهاب مندفع بجبروت في السماء قاطعًا الظلام بنوره تاركًا خلفه آثارا من الذكريات. خرجوا سويًا وأغلقوا الباب على خريف الماضي واتجهوا نحو بداية موسم جديد من المستقبل. دقت مكبرات الصوت معلنة بداية المراسيم الملكية للزواج.

اختلط فارس وسمر مع مجموعة من الناس كممثلين عن الصحيفة المحلية لتغطية أضخم خبر في تاريخ المدينة المعاصر، امتلأت الشوارع بمختلف الطبقات صغارًا وكبارًا، جلست الجدات على رصيف الشارع يتلين على أحفادهن قصصا رومانسية عن زواج الملكة الأولى من الملك الأب وكيف كان أجمل عرس في حياتهم. لعبت الصبيات لعبة البيت فتظاهرن بأنهن أميرات في محنة منتظرين فارسا مقنعا لإنقاذهن. تدفق المزيد من الناس مع زيادة أصوات الأطفال والنساء في الشارع، وازدادت نشوة الشوق في نبراتهم وارتفاع أصواتهم. تصلب الرجال كأصنام تحت أشعة الشمس، وتحركت رؤوسهم بإيماءة نحو نسائهم كبَنْدُول نافرين من أصواتهن العالية.

تكلم فارس بصوت هادئ:

- «لا أستطيع أن أراهما، هل تعرفين أين ذهبا؟»
- «قالا انهما سوف يبحثان عن مكان عال ليجعلاه مقرًا لهما.»
- «انني متشائم من هذه العملية، أعتقد أننا أخطأنا. إن فشلا سوف يصبحان طعامًا للخازوق.»

- «أنك متشائم طوال حياتك، ضع ثقتك بهما. لقد تدربنا على العملية عدة مرات.»

تنهد فارس وبحث يمينًا وشمالا بتوتر كطفل يبحث عن لعبة مفقودة وضعت إمامه. قُرعت الطبول والموسيقى في الشارع، وتلاها صوتا الملك سرجون وزوجته وهما يتبادلان المراسيم التقليدية للزواج. سُمع صوت الكاهن مرتلًا الصلوات، وطلب من الزوجين تبادل الحلقات، انتهت المراسيم بالتصفيق وسمعت الأهازيج بين السماعات والمتفرجين.

- «يا ترى هل وجد قيس طماطم عفنة؟»
- «لقد خزن كل ما هو فاسد من الخضراوات على مدار أسبوعين.»

هز رأسه بإيجاب مطمئنًا وتطلع إلى الناس وهم يرقصون يدًا بيد كخرزات مسبحة.

- «إلا تعتقدين أن هنالك مجازفة في رمي الطماطم على موكب الملك في يوم زفافه؟»
- «بالتأكيد لكن غازي خطط لكل شيء، سوف يرميان الخضراوات من مكان عال ويختبآن في جحر أعده مسبقًا» قرأت سمر ما في ذهنه فورًا وأكملت «ولا تخف من عناصر الشرطة، لقد تنكرا بملابس الشرطة ليندمجا مع بقية الأفراد وهكذا يدخلان ويخرجان بسهولة.»
- «نعم، نعم!»

أختلط الغبار بأجساد الناس الراقصة الندية، وتسربت رائحة نسجت مركباتها من العرق وروائح المياه الآسنة. وكلما طفح العرق على جبينهم ازداد ولاؤهم للملك، فأصبح الرقص دليلا ثابتا على حبهم المزيف، لذلك تسابق الشباب على الاجتهاد بالرقص والتصفيق، فاليوم من أهم الأيام لإثبات وطنيتهم. إثبات أنهم مزيفون مصنوعون من ورق رخيص يمكنك السيطرة عليهم ونقل أفكارك لهم بورقة كربون زرقاء.

تحركت سمر متفادية الغبار، وحينئذ سمعت أصوات عجلات وحوافر حصان تدق كعقارب الساعة، أشرت بذراعها لفارس تطلب منه الاقتراب منها.

- «لقد جاء الموكب الملكي» قالتها سمر بسعادة.
- «أرى حصانا أبيض ومركبة بيضاء يقف العروسان عليها.»

ازداد الضجيج حولهما، ورمى الناس باقات زهور وزعت عليهم مسبقًا، وطغت رائحة الكاميليا في الشارع وازدادت الأهازيج باقترابهما. أختلس فارس نظرة إلى سطح إحدى البيوت التي عجت بعناصر الشرطة الذين جلسوا كنسور في أعشاشهم ولم يميز رفاقه من بينهم. مرَّ الموكب أمامهما، ولوح الملك وزوجته للناس باحترام، وحينها نمت الشجاعة في فؤاده ومسك بيد سمر برقة. تمعنت في وجهه، فأجابها بنظرة طافحة بالمشاعر فضغطت على يده بالمقابل.

خرجت كلمات من شفتيه لكنها غرقت في بحر التهريج، فهمت من هبوط جفنيه ماذا يريد، ومع ضجيج الحضور وهتافاتهم الوطنية، لاحظ فارس رجلان يرتديان ملابس عسكرية يرميان أشياء غامضة نحو الموكب. دقت صافرات الشرطة، واختلط التوتر بالتخبط، وهرب الرجلان عبر إحدى الأسطح ولحقهما كل من وقف على سطح أو زاوية شارع. تجنب العروسان ما رمي عليهما من خضراوات عفنة، وتساقطت بجانب العربة، والتهمها الحصان كمقويات للرحلة الطويلة. استمرت الهتافات والأهازيج، وركض الناس خلف الموكب محتفلين بالأجواء السعيدة، وغطى عطر الحب على الحضور كشبكة أسماك مفروشة فوقع الجميع في الفخ وانتشر حب العائلة الملكية كالعدوى. قبّل سرجون زوجته من خدها، ولوح إلى الجماهير مودعًا، ثم تركت القافلة الشارع متجهة نحو ضاحية أخرى.

وقف فارس ممسكًا بيد سمر لوحدهما وسألته:

- «لماذا تنظر إليّ بهذه النظرة؟»
- «أنظر إليك بهذه النظرة لأني أحبكِ» ترك يدها وسُحر بعينيها الفاتنتين.

- «ليس الوقت مناسبًا، هيا علينا بالهرب.»
- «أريد أن أتزوجكِ.»
- «دعنا نجد مخبئا لنتكلم بهدوء.»
- «هل باستطاعتهما الهرب؟»
- «لا أعرف، لكن غازي ثعلب ماهر.»

دخلا دهاليزا بين البيوت، مبتعدين عن الشارع العام وكانت فكرتهما بالعودة إلى الصحيفة لكتابة مقال الغد.

- «لم يصيبا الملك أو زوجته يا لها من خيبة» قالها فارس ماشيًا بسرعة أقرب إلى الركض.

لم ترد سمر عليه وحاولت أن توازيه مشيًا.

- «أريد أن أزور أهلكِ لأطلب يدكِ منهم.»

توقفت سمر ونظرت إليه بجدية محاولة معرفة إن كان صادقا في مشاعره.

- «أنني أحبكِ يا سمر.»
- «فهمت! ولكن ليس لدي أهل لتخطبني منهم.»

لم يفهم فارس الكلمات التي مرت على مسامعه، فبقي فمه مفتوحًا، ولكن سمر قرأت وجهه وقالت:

- «لا أعرف أهلي، لقد وجدوني في سلة خارج دار الأيتام وتربيت وترعرعت هناك.»

لم يعرف فارس كيف يجيبها فحسب كل الاحتمالات في رأسه إلا هذا الجواب.

- «أهل ما زلت تحبني؟»
- «اعذريني لم أتوقع» رد بسرعة محاولا إخفاء المفاجأة المرسومة على وجهه.

- «أذا أردت أن تخطبني فعليك بزيارة دار الأيتام لتتكلم مع مربيتي.»
- «بالتأكيد.»
- «هيا دعنا نخرج من هذا المكان فحدسي يقلقني.»

♦♦♦

٥

فتحت أمنية باب قفص الطيور لتملأ صحن الطعام مجددًا والقارورة بالماء. لمست الحمامة البيضاء بيدها الناعمة وشعرت بعظام جناحيها اللذين يحميان جسدها الطري. مسدت على رأس الحمامة بلطف، ورأت انعكاسها في إحدى العينين التي تألق الضوء فيها كحجر كريم. أعجبت بلون الريش فلم تر بياضا ناصعًا كهذا في الطبيعة من قبل، وأُلهمت بجمال منقارها الوردي. «هل تستطيع قراءة أفكاري؟» تساءلت مع نفسها وهي تداعب المنقار بأنامل أصابعها، واجتاحتها رغبة عارمة بتقليم براثنها. أنشقت ثلاثة مخالب غليظة كأغصان شجرة ليمون، ونبت ظفر حاد في نهاية كل مخلب، فكان ملمسها أقرب لتربة الأرض الخشنة.

فتحت درجا بجوارها، وأخرجت مقص حديد استخدمته لتقليم أظافرها، وهزت الحمامة رأسها يمينًا وشمالًا جاهلة ما يدور حولها. انتشرت نشوة غريبة في شرايين امنية، عندما بدأت الحمامة بالهديل، وتمعنت بجمال الحيوان الأليف بين يديها، وحينئذ أخذت المقص ذي الشفرة الحادة وقصت أول ظفر بلا مبالاة. ارتعشت الحمامة في كفها، وتنصتت إلى دقات قلبها المستهترة، دفعت جناحيها بكل قوة، وتشّعب الريش بين أصابعها. تمالكت امنية أحاسيسها وحنان قلبها وقصت الأظفر الثاني ببرودة أعصاب. تساقطت الأظافر القذرة على الأرض، وظهر لون وردي لجلد طري وحينها جاءتها فكرة انفجرت في فضاء مخيلتها كألعاب نارية فسحبت مبردًا من نفس الدُرْج وضعته بجوارها. قصت امنية الأظفر الأخير لكن الحمامة استبقتها

ودخلت في حالة من هستيريا فيها لمحة من الجنون، أرتفع صوتها عاليًا وتشنج رأسها من جانب لآخر. وبعد صراع استغرق عدة ثوان سيطرت امنية عليها بكل قوتها وقصت الظفر عنادًا لكنها أخطأت في تقديرها فقطعت جزءا من اللحم.

تدفق الدم ببطء كما تنفث فقاعات الماء من ينبوع وانتابها الذعر بشدة. أنبها ضميرها، وتذوقت طعم الخيبة الذي اعتادت عليه كلما حاولت الاجتهاد في الحياة، كانت نيتها حسنة، ولكنها جرحت حيوان أليفا. تحول الهديل إلى صراخ مذعور ونقرت الحمامة ذراعها بكل قوة فخدشت الجلد واللحم وحررت الحمامة نفسها من قبضة سجانها فتناثر دمها كحبات المطر، لزج الملمس وبغزارة. تناثرت حبيبات لزجة على الأرض متقاربة كجزر في محيط رخامي شاسع، وتلطخت أطراف الحمامة بالدم فأصبح ريشها وردي اللون.

طارت الحمامة بعشوائية لتنقذ نفسها، وبحثت عن مخرج لتنجو من هذا المأزق، فلقد قضت معظم حياتها في قفص ذهبي. رأت نافذة تطلُّ على بستان يعج بالخضرة والنخيل وشعرت بأنها قريبة من الحرية، أما امنية فلقد أنتابها الغضب حينما تلطخت بعض دعوات الحفلة البيضاء ببقع الدم فركضت خلفها محاولة التقاطها بأي وسيلة. تساقط الريش كرماد النار وأصبحت غرفتها قفصا كبيرا لهما في آن واحد. ندبت حظها السيء ووعدت نفسها بألا تكرر الخطأ مرة أخرى. طارت الحمامة باتجاه النافذة بسرعة مستخدمة كل ما تبقى لديها من طاقة فحلقت نحو الحرية بشغف وحاولت امنية إيقافها ملوحة بذراعيها النحيلين لكن زجاج النافذة كان لها بالمرصاد. دوى صوت الارتطام في أركان الغرفة واهتزَّ زجاج الشباك لبرهة فأختلط صوت العظام المحطمة مع اللحم المهروس وثقب صوت الرقبة المكسورة أذني امنية فضغطت عليهما بيدها وأغلقت عينيها كحلزون مختبئا في قوقعته من حيوان مفترس.

ترك رأس الحمامة بقعة حمراء على زجاج النافذة، ومكثت جثتها بجوار الحائط، لم تكن هذه أول مرة ترى امنية حيوان ميتًا من قبل، وتساءلت في هاجسها «كيف تتلاشى الحياة بهذه السرعة، حي في لحظة وميت في الأخرى». تساءلت «هل عاشت الحمامة عمرها كله؟ هل كان قدرها مكتوبًا أن تموت بهذه البشاعة». اشتدت هواجسها وخافت من مستقبلها فهل يكون مصيرها كالحمامة، قريبة من هواء الحرية للحظة، ثم تتبخر روحها في الأخرى. دب هدوء غريب بعد العاصفة الحيوانية، وخرجت من خلدها تدريجيًا وعزلت تأنيب الضمير جانبًا. باشرت بمسح بقعة الشباك بكم قميصها، ثم لطعت الزجاج بلسانها ومسحت اللعاب اللزج بأصابعها، ولم تبق سوى بقعة شفافة ممتزجة مع الغبار. حملت الجثة باعتناء واحتضنتها كأم تعانق طفلها الرضيع بين ذراعيها ومال رأس الحمامة جانبًا بلا روح وبقت عيناها مفتوحتين.

وضعت الجثة في القفص بمهل، وأغلقت الباب عليها، وتظاهرت بأنها لا تعرف بما حدث، ومسحت نقاط الدم من الأرض بحذائها، فاختلطت بقع وردية على الرخام الأبيض. تركز الدم في خندق يمتد بين بلاطتين متجاورتين كجبهة حرب أهملت الجثث متعفنة فيها فأصبحت طعاما للنسور. أزالت آثار الجريمة من الغرفة بانتظام وكأنها قد ارتكبت جريمة مشابهة من قبل. مسحت ما تبقى من البقع ووضعت القفص خارج غرفتها ليصبح مسؤولية المنظفين، صعقت حينما رجعت إلى غرفتها وأغلقت الباب خلفها ورأت دعوات الحفلة ملطخة بالدم. ذاب الحبر ممتزجًا بالسائل الوردي، فتفسخ نسيج الورق الشفاف والتصقت الصفحات مع بعض مما جعل تنظيفها مستحيلًا. امتلأت عيناها بالندم وتطرزت شفتاها بالحزن، فأخذت كل الدعوات القذرة ورمتها في سلة القمامة بلا مبالاة.

رجعت إلى مكتبها ووضعت أمامها دعوات جديدة وكتبت أسماء المدعوين واحدًا تلو الآخر، اختلست نظرة سريعة لزجاج النافذة الذي كان نظيفًا يطل على البستان وباشرت بالكتابة. سمعت حفيف وهمسات تتداول خارج

غرفتها، فحزرت أن المنظفين يتعاملون مع القفص كالمعتاد، انتظرت رسوخ الهدوء في الممر بصبر، وتنصتت كقطة تنتظر خروج فأر من وكره وترقبت صوت الأقدام وهي تبتعد باهتة.

سرحت مع مشاعرها، وغرقت في الكتابة ولم تسمع طرقات حذاء أنثوي يقترب من بابها تبعتها دقات خافتة على الباب. فتح الباب برقة ودخلت الملكة تمارا وأنارت الغرفة بوجودها. كانت في أحلى طلعتها صباحًا وانسجمت ألوان بشرتها مع ضوء الصباح. وجدت امنية قابعةً في نفس مكانها مثل كل يوم.

- «ألا تتعبين من الجلوس على الكرسي؟»
- «أهلًا يا أمي، كنت على وشك الانتهاء من كتابة الدعوات.»
- «أحسنتِ، هل تحبين مشاركتي بممارسة الرياضة في البستان؟»
- «عذرًا يا أمي، ولكن لدي المزيد من المهمات الصباحية.»
- «أني أرى نفسي فيكِ حين كنت صبية، انكِ تمشين على نفس النظام ولا تخرجين عنه إطلاقًا.»
- «شكرًا» ابتسمت امنية ولم تنطق بكلمة أخرى.

اقتربت الملكة من مكان القفص ومسحت الغبار بأصبعها وقالت «ماذا حدث للحمامة؟» سألتها محتارة.

- «ماتت» ولم تغير من نبرة صوتها.
- «مرة أخرى؟ كم حيوان أليف مات في هذه الغرفة.»
- «أنهم يموتون لوحدهم.»
- «عجيب، ربما الكاهن لدية جرعة سحرية.»
- «تخيلي كيف كانت مشاعرهم وهم في سجن أبدي يتطلعون إلى نافذة تطل على بستان، لا بد وانهم اشتاقوا للحياة البرية، أن حبس حيوان في قفص من أحقر العقوبات وأشدها.»

حدقت الملكة في وجه ابنتها، وتساءلت كيف كبرت بهذه العجلة، لم تجب على ملاحظتها رغم أنها ملاحظة دقيقة وقالت لها:

- «أنا ذاهبة إلى البستان، تعالي أن أحببتِ.»
- «بالتأكيد.»

قبلتها من جبينها بكل ما تبقى لديها من أمومة، واتجهت نحو الباب بخطوات صارمة ثم استدارت وقالت بنبرة أمر «أريدك أن تزوري جدتكِ، أنها وحيدة في جناحها الخاص.»

- «أني مشغولة و...» قاطعتها الملكة وقالت لها بحزم «أنها تعيش في عزلة تامة عن الخارج وهذا سوف يقتلها. أنت تعرفين مشاكلي معها.»
- «ولكن ...» توقفت امنية عن الكلام عندما لاحظت انقلاب الحنان لقسوة على وجه أمها بسرعة مباغتة.
- «البستان أو جدتكِ، اختاري؟»
- «حاضر سوف أذهب إليها!» ردت امنية بنبرة مستسلمة.
- «أحسنتِ، هيا لقد تأخرت.»

خرجت الملكة وبقي حضورها طاغيا على الحجرة خلفها فلقد سيطرت على الموقف بمهارة وقبل أن تغلق الباب قالت «لا تنسي!»

- «نعم يا أمي» أغلقت الباب خلفها وتركت امنية كحمامة سجينة قُلِّم جناحاها.

كان جناح الملكة الأم في الجزء الغربي من القصر الذي لا تشرق أشعة الشمس عليه إلا بعد فترة الظهيرة، لذلك كان الممر المؤدي إلى غرفتها باردا بالنسبة لبقية أجزاء القصر. تمشت امنية في الممر الذي امتلأ جزء منه بنوافذ تطل على حديقة صغيرة تسمى بحديقة الملكة، إذ كانت تحب قضاء معظم وقتها فيها بتناول الشاي وقليلا من الطعام الذي وصفه لها الطبيب.

صفقت فراشة بجناحيها طائرة من زهرة صفراء إلى زهرة أوركيد لونت أوراقها بالبنفسجي، واختفت الفراشة بين الأزهار كساحر يمارس خدعة بصرية. ارتعشت بردًا فاحتضنت نفسها، ومسدت بأصابعها النحيلة على ذراعيها لتدفئهما، وسارت بخطوات سريعة ولوت عنقها جانبًا فالتصقت

لحمة أذنها بعظم كتفها الأيسر. «أسلم عليها وأرجع إلى غرفتي بعجلة» ساومت أمنية مع هاجسها وأقنعته بأن ما تفعله خيرًا فلم تر جدتها التي أصبحت أسيرة فراشها بعد عملية استبدال الورك منذ فترة طويلة.

نصحها الطبيب حينها بقضاء شهرين في الفراش على الأقل، ولكن الشهرين أصبحا ستة ثم ثمانية أشهر. تمرنت على المشي في حديقتها بين حين وآخر، ولكن حتى هذا الجهد الخفيف أصبح معضلة لجسدها الهش. فُتح باب غرفتها من الداخل وخرجت ممرضة تحمل صينية امتلأت بعلب الدواء بمختلف الأحجام، ابتسمت الممرضة حين رأت امنية قدمت لزيارة جدتها واستقبلتها ثم حنت رأسها احتراما. وقفا بجوار الباب وقالت الممرضة بصوت هادئ:

- «لقد تناولت أدويتها الصباحية، هل جئتِ لزيارتها؟»
- «نعم كيف حالها؟»
- «أنها بخير، ولكنها أخذت مسكنات الألم مما يجعلها نعسانة.»
- «شكرًا لكِ للاعتناء بها.»
- «انه واجبي يا أيتها الأميرة، سوف أترككما سويًا.»
- «وداعًا» قالتها امنية وهي تنتظر خروج الممرضة من الممر.

شعرت ببرودة مقبض الباب تمتد لراحة يديها مما جعلها تفتح الباب بتمهل.

- «ماذا نسيتِ يا عبلة؟» فاجئها صوت جدتها قبل ان تضع قدما واحدة في الغرفة فاضطرت لإعلان قدومها.
- «أنا يا جدتي، امنية لقد جئت لزيارتكِ.»
- «يا لها من مفاجأة سعيدة، لم أركِ منذ زمن بعيد.»
- «أني آسفة يا جدتي، لقد كنت مشغولة.»
- «دعينا من الاعتذار قولي لي كيف حالك؟ سمعت بانكِ تحظرين لحفلة كبيرة» جلست الملكة في فراشها وأسندت ظهرها.

- «نعم لقد صممت الدعوات بنفسي وبدأنا بترتيب أثاث القصر» ارتفعت الحيوية بصوتها.
- «أنكِ شاطرة! ابنة أبيكِ» قالتها مختلسة نظرة متفحصة نحو حفيدتها.
- «ترسل إمي سلامها وتود معرفة إن كنتِ تحبين مساعدتنا في ترتيبات الحفلة؟»

التزمت الملكة الصمت وبلعت ريقها وحسبت حساب جوابها ثم قالت «لا داعي، أنا متأكدة بأنكِ سوق تقومين بعمل رائع.»

- «بالتأكيد يا جدتي» شعرت بارتياح من إزالة مسؤولية إضافية.
- «ولكن أحب حضور حفلة الرقص والعشاء، فأنا اعشق الموسيقى كما تعرفين» قالتها وقد تدلى فكها السفلي.
- «وماذا عن وركك؟» سألت امنية باستغراب.
- «وماذا عنه أنه ورك جديد ويتحمل الوقوف والجلوس.»
- «كما تشائين يا جدتي.»
- «لقد أصبحتِ في عمر لابد فيه من الحديث عن الزواج» قالتها ولم تتغير ملامحها إطلاقًا.

تفاجأت امنية من صراحة جدتها فهي لا تضيع فرصة كهذه، أحمرت وجناتها وأنخفض رأسها نحو الأرض خشوعًا.

- «لا داعي للخجل يا ابنتي فمن الطبيعي أن تشعري بهذه المشاعر» قالت جدتها.
- «صحيح، ولكن...»
- «ألم تلتقين بأمير في الاحتفالات الملكية؟» قاطعتها تسحب الكلام كسلسلة مرساة لسفينة.
- «كلا، ولم أفكر بالبحث عن شريك للحياة بعد.»
- «دعي الأمر لي! سوف أجد لك زوجا مناسبا في حفلة عيد ميلادك.»
- «كلا يا جدتي أرجوكِ» تدفق الدم إلى رأسها فأصبح أحمرا كالفراولة.

- «دعني أعطيكِ نصيحة ما دمتُ موجودة على هذه الأرض» لم تنتظر الملكة جوابها وأكملت «عليكِ أن تجدي رجلا يكبرك سنًا فيعتني بكِ وباحتياجاتك، إذ تبقى الفتاة تبحث عن رجل ليستبدل والدها وتبقى تبحث عن حب وحنان الأبوة في زوجها. أما أن تزوجتِ برجل أصغر منكِ سنًا فسوف تصبحين إمًا له وليس زوجة فالرجل عكس المرأة يبحث عن زوجة لتأخذ مكان أمه.»

تساءلت امنية في هذه اللحظة إن كان هنالك مغزى في كلامها أو كان تخريفًا يناسب عمرها. فلقد كانت صحة جدتها ممتازة لامرأة في منتصف الثمانينات من عمرها. قصت شعرها قصيرًا ولم تبق فيه شعرة سوداء واحدة، ولكن بشرتها بقت صافية خالية من تعب الدهر.

- «ما رأيك بكلامي؟» تساءلت الجدة ممازحة.
- «أترك الأمر لكِ يا جدتي» أجابتها بنبرة موسيقية تدل على استسلامها.
- «هيا أعطني قدحا من الماء فجدتك عطشانة.»

تنقلت أمنية على أطراف أصابعها بجمال راقصة تتزحلق على الجليد وناولت جدتها بما طلبت. وبعد أن رجعت إلى كرسيها وجدت أن النوم قد باغت جدتها ونامت بسلام.

- «ماذا أفعل؟» تساءلت أمنية مع نفسها «هل أرجع إلى غرفتي أم أنتظرها تستيقظ من جديد؟»

كانت غرفة جدتها حديثة الديكور وانتشرت لمستها الأنيقة في كل مكان. تتوسط مرآة ضخمة طوقت بإطار ذهبي المدخل، وبجانبها طاولة صغيرة نحتت عليها زخرفة ناعمة بنفس الألوان. علقت لوحات زيتية للعائلة الملكية على كل حائط، لوحة للملك الأول حاملًا سيفا حادا مسددا باتجاه المجهول، ولوحة أخرى للملك الأول جالسا على كرسي ذهبي ووقفت جدتها خلفه. كانت في قمة جمالها الفاتن مرتدية فستانا أصفر اللون يتلألأ مع تاج رأسها المشهور. وزعت نباتات ظل على عدد الزوايا مما أعطى الحجرة مظهرا

إنسانيًا ويذكرها بإنجازاتها في العهد السابق. كانت هي التي أقنعت الملك الأول بزراعة بستان كبير بجوار القصر حتى يلعب الصغار فيه صباحًا ويتمشى الكبار فيه عصرًا، وذكرته دائمًا أن الإنسان بالفطرة فلاح يزرع النباتات ليربيها ويعتني بها ثم يحصد ويعيش من محصولها.

استقرت عكازتان بجانب سريرها تستعملهما حين تحتاج للمشي بين الحمام وسقي النباتات، وضعت مجموعة كتب بجوارها للتسلية وقضاء الوقت. قررت امنية الخروج، فمالت فوق جدتها لتقبلها من جبينها، وفي تلك اللحظة استيقظت الملكة مرة أخرى. تكلمت ببطء وتغيرت نبرة صوتها عن قبل:

- «أين أنا؟» كان صوتها خائر القوة وكأنها شاخت مئة عام.
- «أنت في غرفتكِ يا جدتي، هل أنت على ما يرام؟» تغيرت نبرة صوتها إلى الجِد.
- «من أنتِ؟» قالتها الملكة متسائلة.
- «أنا امنية.»
- «ابنتي حبيبتي! كم اشتقت لكِ لقد أخطأت بحقكِ، سامحيني.»
- «أنا حفيدتك، امنية، والدي سرجون أبنك الوحيد» لم تحب تلقين جدتها بالحقائق.
- «لكنكِ تشبهين طفلتي الأولى، لقد أرتكب الملك الأول جريمة لن تغفر له.»
- «أنكِ تهذين يا جدتي، أبنك الوحيد أصبح ملك المدينة.»

التزمت الملكة الصمت، ولم تفتح فمها بكلمة، ولكن عينيها تكلمتا قصائدا وملاحم ثم صرخت بكل طاقتها. استمرت بالصراخ وتشنج جسدها، وحركت ذراعيها بطريقة حيوانية. خافت أمنية من منظرها المتأزم، فخرجت بسرعة ورأت الممرضة تركض باتجاههما.

- «ماذا حدث؟» سألتها عبلة بعجلة.

- «استيقظت من نومها، وبدأت بالهذيان ثم صرخت من أعلى حنجرتها.»
- «لا تخافي أن جدتكِ مسالمة سوف أعطيها مهدئا للأعصاب.»
- «شكرًا لكِ.»

دخلت عبلة الغرفة وركضت امنية نحو غرفتها شاعرة بالذنب، تمنت لو كان لديها جناحان يحملانها بعيدًا عن هذه المدينة لمكان أجمل وأسعد من هذه البؤرة الموبوءة.

◆◆◆

سار بعجلة أقرب إلى الركض محاولًا الوصول إلى مقر عمله، لكن حرارة الجو أبطأت من حركته. ارتفعت الشمس في كبد السماء مسلطة أشعتها الثاقبة على المدينة. أبتل جبينه بقطرات العرق، ومنحت النداوة بريقا ذهبيا لخيط شاربه الناعم. دق قلبه أسرع من خطواته حتى يصل إلى الصحيفة بأسرع وقت ممكن. ابتلت حزمة الخبز تحت إبطه، واختلط الحبر بقماش قميصه، مستعمرًا مستوطنات بين راحة يده وسلامات أصابعه، ترك ربيع ذيلا من العجاج خلفه مختلطًا بما حوله من الغبار.

رأى الحصان واقفًا في مكانه، ملتجئا لظل البناية، وكشر عن أنيابه وحمحم حين لمح صديقه حاملًا هدية له. وقف ربيع بجواره، ومسد على جلد ظهره المريض، فتح حنفية الماء كما أعتاد الحصان على ذلك. وبعد أن امتلأت عروقه بالماء البارد، استنشق رائحة الخبز وأخرج لسانه الذي غلف بمادة بيضاء كحقول القطن. شعر ربيع باستياء لحال صديقه، فأعطاه رغيفا كاملًا فالتهمه الحصان بمضغتين. وصل إلى الصحيفة لاهثًا، وابتل جسده بعرق الصباح، فتكونت بقعتان داكنتان تحت إبطه، ومع ذلك ارتاح نفسيًا بعد زيارته السريعة للخياط وتأمين بنطلون أبيض للحفلة. تملكت الحفلة عقله وهاجسه في آن واحد، وترعرعت فكرة دخول القصر الملكي كمخلوق يعيش في داخله مندمجًا مع بقية أجهزته الحيوية. ارتعد جسده بنشوة لم يشعر بها من قبل، فلقد أصاب عصفورين بحجر واحد، يترك كتابة نعي الوفيات، ويصبح مراسلا صحفيا «أخيرًا تحسن حظي» قالها وهو يحمل ما تبقى من حزمة الخبز ودخل البناية.

توقع رؤية فوزي جالسًا بجانب الباب كعادته، ولكنه لم يجده في مكانه فترك له رغيف خبز على الطاولة كهدية، امتدت السعادة إلى جسده، وشعر بوخزة طريفة في نهايات أطرافه، كما لو كان في أعلى نقطة في دولاب هواء، ودخل إلى مكتبه سعيدًا. انتبه لوجود كتاب على الطاولة بجانب آلة الطباعة وعليه ملاحظة ورقية تقول «اقرأ هذا الكتاب قبل الحفلة». وضع حزمة

الخبز جانبًا، وتناول الكتاب بين يديه الذي كان عنوانه «لغة الجسد». خمن من يكون من بين زملائه قد أهداه الكتاب، ولكنه فشل بحزر خط الكتابة. داهمته نوبات من القلق عندما رأى أكداسا من شهادات الوفيات بجانب الآلة الكاتبة، وانقلب مزاجه قليلًا عند أول مطب يومي. استرخى على كرسيه، وتمعن في الكتاب بين أصابعه وتساءل «يا ترى من أهداني الكتاب؟ لابد أنه شخص علم بذهابي إلى الحفلة. سوف أسأل رئيس التحرير ربما هو ...» انقطع حبل أفكاره عندما دخل فوزي وبيده صينية فضية عليها قدح من الشاي وكأس من الماء وقال:

- «هل أعجبك؟» وضع ما حمله جانبًا.
- «ما هو؟» تساءل ربيع محاولًا إيجاد حل للحزورة.
- «الكتاب الذي تحمله» وضع قدح الشاي والماء بجانب صاحبه.
- «آه شكرًا هل توصي بقراءته قبل الحفلة؟» شعر ربيع بخجل يجتاح مشاعره كجيش يخترق أكبر خندق مدينة، فلقد حكم مسبقًا على الفَرّاش بسبب عمله ولم يراه كإنسان له شخصية خارج عمله نحتت وصقلت بتجارب الحياة.
- «لقد أنقذني هذا الكتاب حين كنت شابًا في عمرك، فكلما أردتُ الحديث مع فتاة شعرت بالخجل، وتلعثمت بالكلام، وعندما علمت أنك ذاهب إلى الحفلة قلت لنفسي أن ربيع بحاجة إليه.»
- «شكرًا يا عمي وبصراحة أني لا أجيد الكلام مع الفتيات كما حزرت.»
- «كل ما عليك بقراءة فصل كل ليلة وحينها تلتف كل شهرزاد على إصبع.»
- «إذن سوف أباشر مساء اليوم.»

شكره ربيع عدة مرات، وكان ممتنا لجلبه الشاي، فلقد قتله الجوع وسيطر على مشاعره. أخذ لقمة من الخبز، وبلل فمه الجاف بالشاي الحار، وعندئذ لسعه ضرسه مرة أخرى كتيار كهربائي يتدفق من فمه إلى عقله. وضع يده على خده كردة فعل، وأغلق فمه وكزّ على أسنانه بقوة معتقدًا أن

الألم سوف يتبخر تدريجيًا. دلك ضرسه بلسانه، وشعر بقضيب ناري يدخل ضرسه كالسكين يقطع اللحم لينشطر إلى جزأين. أكمل الشاي برشفات صغيرة، وأجهز على ما تبقى من الخبز بحرص. عندها دخل رأس الفَرّاش من فتحة الباب متمتعًا بمنظر مضغ الخبز ولوح بذراعه، فإجابه ربيع بابتسامة خفيفة، وأغلق فوزي الباب خلفه. فتح ربيع فمه ببطء متوقعًا تبخر الوجع كخفافيش تخرج من كهف باحثة عن نور، ولكن أُحبطت مشاعره، وتهدل كتفاه عندما شعر بقضيب يشع ألمًا في فمه باستمرار.

- «يا له من حظ عاثر، كل يوم هناك مشكلة.»

وجد نفسه يتلاعب بشهادات الوفيات كخدعة أمام جسده لكي ينسى آلامه، ولكنه وجد القراءة والتركيز صعبا المنال. تطلع إلى الكتاب أمامه اذ كان أصفر الصفحات وقديم الملمس. رُسمت عليه صورة لفتاة عيناها تبتسمان وطليت ابتسامتها الجذابة بأسنان بيضاء وكتب عليه بخط أزرق «لغة الجسد». تلاعبت أصابعه بصفحات الكتاب، ولكن طرقتين على الباب أخرجته من هواجسه.

- «مشغول؟» دخل رئيس التحرير واقفًا بجواره.

غمغم ربيع وأفرز لعابًا كافيًا، وجمع كل قواه ورد باحترام «تفضل أستاذ خليل.»

- «هل أصبح لديك كل مستلزمات الحفلة؟»
- «نعم لقد أمنت الملابس البيضاء.»
- «ممتاز! تعال إلى مكتبي بعد انتهاء العمل حتى أطلعك على الأمور التي يسمح الكلام بها في القصر الملكي.»
- «بالتأكيد.»
- «بالمناسبة لقد طلب طلال استعارتك لعدة أيام، لقد مدحك كثيرًا وهو ينوي تدريبك على مهنته فقلت له لم لا.»

- «في الحقيقة يا أستاذ لقد تعبتُ من كتابة نعي الوفيات، وأود أن أصبح مراسلا صحفيا.»
- «ممتاز تعلم ترتيب الكلمات المتقاطعة، وبعد الحفلة يمكننا التفكير في مستقبلك، ما زلت شابًا والطريق طويل أمامك، وواجبي كمدير يتمثل في إزالة كل المطبات التي تواجهك في المستقبل.»
- «أني ممنون لك ولن أنسى هذا المعروف ابداً.»
- «دعني آخذ هذه الشهادات عنك، سوف أجد شخصا أخر ليكتبها، هل تعلم أن لديك موهبة طبيعية في الكتابة، وعليك بالاستمرار فالكتابة حرفة كالنجارة كلما تمرنت أكثر أصبحت أفضل وعليك بممارستها يوميًا.»
- «شكرًا على النصيحة.»
- «ممتاز!» لمح الكتاب بطرف عينيه فأبتسم ابتسامة غامضة دلت على ماض سعيد.
- «من أين جئت بهذا الكتاب أني لم أراه منذُ عقود» أمسك بالكتاب وتراقصت الصفحات بين أصابعه.
- «لقد أعارني فوزي الكتاب لقراءته قبل الحفلة» قالها ربيع واحمرّت وجنتاه.
- «كان هذا الكتاب من أشهر الكتب للطلاب المراهقين فكنا نقرأه ليلًا ونطبقه على مدارس البنات صباحًا.»
- «هل كانت المدارس منفصلة في عهدك أيضًا؟» تساءل بفضول إذ أحب أن يعرف بعض المعلومات عن مسؤوله.
- «نعم كانت إحدى قرارات الملك الأول بفصل الذكور عن الإناث، وذلك بعد أن دلت العديد من الدراسات على أن التلاميذ يركزون بشكل أفضل في الدراسة إن كانوا في فصول منفصلة، ولكن هنالك نظرية أخرى تقول إن الفصل بين الجنسين يعيق نضوج التعامل مع الجنس الآخر، وأنت أكبر مثال على ذلك، شاب في العشرينات من عمره ليس

لديه خبرة بالتعامل مع الفتيات، وتحتاج إلى كتاب إرشادي يلقنك كيف تتعامل معهن خطوة بعد الأخرى.»

- «عفوًا يا أستاذ لكن...» قاطعه رئيس التحرير «لا داعي للاعتذار، وتذكر أن كل ما تمر به الآن قد مرَّ على أجيال سابقة قبلك» التفت فوجد طلال يدق على الباب باحترام. أكمل رئيس التحرير «أسأل طلال» ورفع الكتاب باتجاهه.
- «ما هذا؟» رد طلال شاعرا بحيوية الغرفة وأكمل «لم أر هذا الكتاب منذ سنين، كيف حصلت عليه؟»

إجابه رئيس التحرير «فوزي.»

- «كيف أستطاع لحفاظ على نسخة من هذا الكتاب؟ ألم يُمنع من قبل الملك؟»
- «لا أتذكر، ولكنهم منعوا كل شيء فلن أتفاجئ إن كان ممنوعًا» إجابه خليل متجهًا نحو الباب.
- «لقد تم حرق كل الكتب الممنوعة، كن حذرًا يا ربيع اخفيه بين صفحات كتاب آخر» نصحه طلال بجدية.
- «ضعه في وسط الكتاب الأبيض فلن يتوقع أحد وجود كتاب كهذا بين كتاب القوانين.»
- «فكرة عظيمة» ردَّ طلال وأكمل «وعن ماذا كنتما تتناقشان؟»
- «عن فصل الذكور عن الإناث في المدارس والجامعات» ردَّ خليل.
- «نعم كان هذا القرار يعدُّ من أفضل القوانين في تاريخ المدينة، أعتبره الملك الأول من أعظم إنجازاته وأكبر من أي تمثال بناه، ومجدت كتب التاريخ هذا الإنجاز لعقود لاحقة». توقف طلال، وبلع ريقه وتأكد بأنه في صحبة جيدة تماثله المفاهيم والرأي وأكمل «لكنه في الحقيقة أجرم بحق شعبه، فلقد دمر المجتمع وأصبحنا متخلفين في هذا الموضوع. يولد الرجل كحيوان همجي في تصرفاته، لا يهتم بمشاعر الأخرين، ولكن عندما يختلط بالجنس الأخر يتوجب عليه تحسين أخلاقه وتصرفاته

نحو رفاقه ورفيقاته فلذلك يحسن اختلاط الجنسين من ذكوره، وينشأ مجتمع مدنيًا متسامحا. ولكن أنظر حولك هذه الأيام، فبعد عقود من تطبيق القانون على مجتمعنا ماذا نجد؟ مجتمع يتجاهل كل ما هو سليم ويتجه نحو الهاوية، لقد نجحوا بعكس الغريزة الإنسانية الموجودة في كل واحد منا منذ الصغر. آمل أن تجد هذا الكتاب مفيدًا كما وجدناه سابقًا.»

نظر باتجاه خليل وقال «هل سمعت أخر الأخبار؟»

- «لا ماذا حدث؟» رد خليل.
- «لقد أعلن المندوب في النشرة الصباحية عن مكرمة ملكية جديدة.»
- «ماذا الآن؟» قالها خليل بسلبية ساخرة.
- «يا نصيب، سوف تكون هناك سحبة أسبوعية تبث في المكبرات والراديو.»
- «وماهي الجائزة؟»
- «سفرة سياحية إلى أرض الأمل مدفوعة التكاليف مع مخصصات يومية تغطي كل متطلبات الفائز.»
- «ممتاز! دعني أذهب لقراءة البيان الرسمي وكتابة مقالة عنها. علينا بدراسة كل شيء» وقبل أن يخرج من الباب قال لربيع «لا تنسى زيارتي!»

هز ربيع رأسه موافقًا، ولكنه كان في عالم آخر، تخيل نفسه فائزًا باليانصيب ومسافرا بعيدًا عن هذه المدينة المشؤومة. يرحل مع جدته باحثًا عن بداية جديدة في أرض الأمل. أضطرب هاجسه، وشعر بدوار الحرية عندما فكر بتحقيق جميع أحلامه وأمنياته، سوف يستطيع الاعتناء بجدته التي ربته ووقفت بجواره في سنين الكفاح. أخيرًا يستطيع رد الجميل ويصبح غنيًا «ما أحلى طعم الحرية» رددَّ مع نفسه.

- «ربيع؟» ناداه طلال وفرشت الابتسامة شفتيه عاليًا.

- «يبدو أنك ذهبت في رحلة حول العالم» وضع طلال يده على كتفه فأستيقظ ربيع من أحلام اليقظة وأسترد وعيه قائلا:
- «عذرًا يا أستاذ لنبدأ بالعمل» وبحثت يده عن قلم كأداة ليحرث الأرض به.
- «ارتاح إذ أدرك أن الكلمات المتقاطعة تحتاج لبرودة الأعصاب وراحة نفسية مطلقة. قل لي ماذا تعرف عن هذه الأحجية؟»
- «أرى جدتي تلعبها بين حين وآخر وهي تملأ المربعات البيضاء لتشكل كلمة أو جملة.»
- «أين تلعبها؟»
- «في المطبخ أو في صالة الاستراحة» إجابه بعفوية.
- «بالضبط! يمكنك ممارسة لعبة الكلمات المتقاطعة في كل مكان، من المطبخ إلى الحمام، وفائدتها الذهنية مهمة، وتقوي الثقافة العامة للفرد. هل تعلم أن الملك الأول كان يحبذ ممارستها يوميًا، وكان أول من فكر بأنشاء مسابقة محلية للكلمات المتقاطعة.»
- «وكيف تصممها؟»
- «كل ما تحتاجه ورقة بيضاء تخط عليها عشرة خطوط أفقية، وبعدها تخط عشرة خطوط عمودية تتقاطع مع الخطوط الأفقية وذلك يعطيك مئة مربع أبيض.»

أستوعب الكلمات بتركيز شديد فضغط على أضراسه بشدة، يعتمد مستقبله على هذه المربعات الفارغة التي سوف يملأها بتمنياته وأحلامه. أخرج ربيع ورقة ومسطرة أعدها مسبقًا، ورسم بقلم الرصاص كما علمه طلال. وبعد عدة محاولات، أنتج رقعة ملأت بالمربعات المتوازية والمتساوية الأضلاع.

- «أحسنت» ومسح فتات الممحاة جانبًا ثم أكمل «الآن يمكنك أن تكتب عشر كلمات أفقيًا وعشر كلمات عموديًا مما يعطيك مجموع؟»

«عشرون» قاطعه ربيع بعفوية.

- «شاطر.»
- «وماذا عن المربعات السوداء؟»
- «يمكنك أن تملأها في البداية أو في النهاية، وإن كنت ذكيًا يمكنك أن تصنع رسمة أو شعارًا في وسط الرقعة.»

انشغل ربيع بتصميم الأحجية، ونسى اللغز الذي وقف إمامه واحتواه منذُ التقائه بهذا الرجل الذي يملك روحا إيجابية ويجلب المتعة لكل موقف. قال له طلال:

- «ابدأ بكتابة الألغاز أولًا، باشر بالكلمات الأفقية، دعني أعطيك مثالًا، ما هو مجرى الدم؟»
- «وريد» إجابه ربيع بشك.
- «صحيح، هيا أكتب (وريد) أفقيًا ثم ضع السؤال تحت رقم واحد خانة (أفقيًا).»
- «الآن ما هو صوت دق الجرس؟» سأله طلال وهو يؤشر إلى حرف الراء.

فكر ربيع ومال جسده جانبًا ليضاعف من شدة تفكيره، وتذكر جرس المخبز الذي رن منسجمًا مع خجله والموقف المحرج الذي وضع نفسه به، مرت كلمة (رن) كالبرق أمام عينيه فوقف وصرخ «رن.»

- «أحسنت، أكتب السؤال تحت رقم أثنين تحت خانة (عموديًا)، والآن يمكنك تلوين مربع أسود في هذه الخانة» أشرَّ إلى مربع تحت حرف النون بسبابة يده اليسرى وحينها أنفجر بركان من الفضول داخل ربيع ليعرف ماذا حدث ليد أستاذه اليمنى.

لكن طلال أستبقه بسؤال عن الحفلة وقال له «كيف استعدادك للحفلة؟» محاولًا التعرف على تلميذه الجديد.

- «لقد أعددت ملابسي ولم يبق سوى تحضير مجموعة من الأسئلة التي سوف ينقحها الأستاذ خليل.»
- «ومتى موعد الحفلة؟»

- «أسبوعان، يمران علي كسنتين.»

ضحك طلال وسأله «هل ذهبت إلى القصر الملكي مسبقًا؟»

- «لا، أنها المرة الأولى» وجد ربيع صعوبة في إخفاء مشاعره السعيدة.

هز طلال رأسه بإيجاب وقال لربيع «دعنا نكمل الأحجية» وقضيا ما تبقى من الصباح يتداولان الكلمات كالأزهار، زارا كل كلمة كنحلة هائمة تبحث عن رحيق ليطفئ عطش قاموسهما اللغوي. وبعد زيارة حقل الكلمات أنتجا أحجية كاملة جاهزة للطبع. هنأ طلال طالبه المجتهد وقال له «مبروك سوف أضع اسمك بجوار اسمي.»

انتعش ربيع بفرحة إنجازه، وغمرته القناعة عندما رأى المربعات وقد مُلأت بحروف الرصاص، وتساءل مع نفسه كيف يمكن لنفس الأحرف التي كتب بها النعي وجعلته بائسًا في حياته قد رُتبت بطريقة أخرى، فجلبت السعادة والرضى لروحه التعيسة.

- «أحسنت، سوف أضعها على مكتب خليل ليقرر إن كانت صالحة للنشر» وقف طلال وأتجه نحو الباب. شعر بأن هناك ارتباطا غريبا بينه وبين مَن أمامه، توقف عندما سمع صوت ربيع يشكره قائلًا:

- «شكرًا يا أستاذ طلال.»

هز طلال رأسه موافقًا لكنه ألتزم الصمت فأكمل ربيع «لقد قضيت وقتًا ممتعًا معك» وأحنى رأسه احترامًا.

- «أرفع رأسك يا أبني لقد استمتعت بدرسنا الأول، إذا احتجت لمساعدة تعال إلى مكتبي.»
- «شكرًا» وبدأ طلال بالخروج من الغرفة وحينها جمع ربيع كل ما لديه من جرأة طليت بنكهة من الشجاعة وسأله «ماذا حصل ليدك اليمنى؟»

توقف طلال، وفوجئ بالفضول الذي تملك هذا الشاب ونظر إلى أعماق عينيه محاولًا أن يحكم عليه فرجل في عمره لا يثق بأي مرء. تساءل في ذهنه «هل هناك خطأ في سرد ما حدث قبل سنين طويلة، ربما يتعلم هذا الشاب من أخطائي». وهكذا قرر طلال بأن يقصَّ عليه بما جرى له عندما كان يماثله عمرًا. اقترب من ربيع وجلس على الكرسي المجاور وأنتظر جلوسه وحينها أخرج يده المبتورة بكل هدوء. تفاجئ ربيع والتهم الذعر ما تبقى لديه من شجاعة فلم ير ذراعًا بدون معصم يد من قبل. بترت الذراع من الرسغ وأصبح شكلها أقرب إلى غصن شجرة عار من الأوراق.

- «ماذا حصل؟» تساءل ربيع مبتلعًا ريقه.
- «عندما كنت في عمرك أحببت بنت أحد التجار، وكان والدها من اغنى تجار المدينة، ولقد ازدادت هيبته عندما جلب الأزهار النادرة في يوم عرس الملك سرجون. عندما قررت خطوبتها طلبتُ من والدي الذهاب مع كبار القوم وطلب يدها لكنه رفض كليًا، وقال لي أنني مجنون لأني أريد الزواج بفتاة من طبقة أعلى من طبقتنا، ولن تكون الفتاة سعيدة بالفقر الذي أعتاد عليه بقية القوم. تصاعد غضبي مع رفضه العنيد، وانتهت ذروة السجال بأن صفعته بيدي اليمنى على وجهه، ولن أنسى منظر الشرايين الحمراء التي تضخمت حول جبينه. ولسوء الحظ كان قانون بتر اليد قد وضع قيد التنفيذ، فأخذني لساحة العقاب، وأمسكني رفاقه من أطرافي لكيلا اهرب وأمسك بذراعي منتظرًا الجلاد. كانت حركة خفيفة كما تذكر الأساطير على ألسنة العجائز، ولن أنسى منظر الدم متدفقًا كالنافورة في مصرف حفر في الأرض. حركت يدي لكنها وقعت على الأرض كدجاجة ميتة نبضت الحياة فيها للحظة ثم فارقتها إلى الأبد.»
- «وماذا حدث للفتاة؟» سأل ربيع.
- «نادتني بالمعوق وقالت لي أنها لا تريد أن تصبح كنيتها بزوجة المعوق، تركتني لوحدي في ممر الحياة وزوّجها والدها لابن تاجر ثري.»

- «يا إلهي إين العدالة في الدنيا، إين الرب ليساعدك؟»
- «لقد رددت كثيرًا هذا السؤال في خلدي، صليت ودعيت أن تنمو لي يد أخرى، دعوت بموت الفتاة في حضن حبيبها، بل حتى وصلت إلى مرحلة الدعاء بموت أبي الذي غير مجرى حياتي في لحظة غضب.»
- «وهل سمع إله الشمس لدعواتك؟» نبض الفضول في نبرة ربيع مرة أخرى.

حرك طلال رأسه نافيا وقال «كل ما أستنتجه من الحياة هو إن كان معيار ميزان العدالة مغشوشًا فكيف تتوقع ان يكون كف العدالة لصالحك؟»

◆◆◆

سنة قبل ولادة ربيع

تدفقت شرايين حمراء متشعبة أفقيًا بصفار الشمس كأنهار مما أوحى بحدة حرارتها التي كُبحت بغيوم حجبتها عن المدينة. اصطفت الغيوم كسطور في دفتر واحد سطر يتلو آخر، طويلة بيضاء تمتد عبر الأفق. ظهرت بؤرٌ في نسيج السحاب كثقوب في قطعة قماش عبثت عثة فيها، أطلَّ من خلالها ضوء ساطع خالقًا حياة في بقعة تدفق إليها كل من دبت في جسده روح باحثة عن دفء وسعادة. مرت سنة واحدة على الزواج الملكي، وأحتفل سكان المدينة بالذكرى السنوية قبل بضعة أيام، واعتاد الناس على حكم سرجون وعائلته. اعتادوا على إطاعة القوانين الجديدة، وتطبيقها دون مناقشة صلاحيتها فلقد تعودوا أب عن جد على الالتزام بالطاعة، وغُرست فكرة الخوف من الحكومة والشرطة في قلب كل مواطن منذُ الصغر. ارتفعت رطوبة الجو نسبيا، مما ضاعف من شدة الروائح العفنة التي فاحت في أرجاء المدينة، تسرب شعور غريب بين غيوم السماء بسبب الضغط المشحون، ومع نزول حبات المطر ابتسمت السماء برفاهية. نزل المطر اليوم لأول مرة منذُ شهور عديدة، فلقد اعتاد الناس على جفاف الأرض والأفواه فطلب الملك بالتقيد في استخدام الماء.

استطاع فارس وسمر استئجار شقة في بناية قديمة تقع في الجزء الجنوبي من المدينة، كانت الشقة ضئيلة الحجم وأصغر من دكاكين البقالة. توجد فيها غرفة واحدة للنوم وحمام وصالة للمعيشة، ولكن حبهما عوضهما عن مشاكل السكن وغلاء المعيشة التي تصدم كل المتزوجين. اعتنت سمر بالشقة وملأتها بنباتات الظل وعلقت بجانب إحدى النوافذ قفصا للعصافير غمرا الشقة بالانغام والتغاريد. تمتعا بالقراءة ليلًا فأصبحت الكتب بالنسبة لهما طريقة

للتواصل مع وقت ومكان آخر، لذلك وضع فارس مكتبة صغيرة بجوار سريرهما ملأها بكل ما استمتعا به. أصبح من الطبيعي وجود قدح من الشاي أو فنجان قهوة فوق رفوفها فالقراءة من الهوايات القليلة التي يمكنك أن تجمعها مع الشراب والأكل. تمتعا بهذا الميزة مساءً، فبعد يوم مهلك من العمل، يناما بجانب بعض وبيد كل منهما كتاب وطبق عشاء وبين كلمات الروايات وغناء العصافير يندمجان فيصبحا روحا واحدة تستمتع بملذات الحياة.

صمت العصفوران بجوار النافذة، ووقف كل منهما على عصا خشبية متوازيين بلا مبالاة وأنذرتهما غريزتهما الحيوانية بالجو المشحون كبالون منفوخ لأقصى درجة وعلى حافة الانفجار في أي لحظة. قررا النوم حتى ساعة متأخرة بعد عدة أيام شاقة من الكتابة عن كل الاحتفالات السنوية للعرس الملكي. وحينها استيقظ فارس مستغربًا من الصمت الذي يدوي بين جدران الشقة.

تحرك بخفة بهلوان حتى لا يوقظ سمر من نومها العميق، وأتجه نحو صالة المعيشة فوجد العصفورين يقفزان بين الأكل والشرب بسكون غريب. لاحظ عتمة الضوء في الحجرة، وانجذب نظره عاليًا، فرأى سورا لقلعة صنعت من غيوم رمادية امتدت على مدى البصر، وازدادت سوادًا في الأفق. نظر داخل القفص ليتأكد من وجود طعام وماء كاف، ولكن نظره جذب بوجود بيضة متوسطة الحجم تتخفى بين القش على أرضية القفص. نامت البيضة على بطنها وهيئتها أصغر من بيض الدجاج الذي اعتاد على أكله بمختلف الأشكال والأحجام من يد والدته حين كان صبيًا.

استغرب من وجودها في زاوية القفص لوحدها فقرر انتهاز الفرصة ليفتح الباب ويسرق البيضة، لكن غريزته سبقت هاجسه ومنعته عن ذلك. لو كان باستطاعته أن يوقظ سمر من نومها العميق ويفاجئها بهذه الهدية، ولكن حبل أفكاره انقطع بسبب تساقط حبات المطر على زجاج النافذة، وقف منصتا لجلجلة المطر التي لم يسمعها منذُ مدة طويلة. نقرات على النوافذ وسطح

الشقة في آن واحد، أشبه بطفل يدق بيده الرقيقة على باب خشبية أكبر منه أضعافًا. أستغرب من هذا الشعور الذي أستعمره لدقيقة كاملة، فرفع الراية البيضاء وأستسلم لهذا الاحتلال النفسي، هدأت روحه، وأغلق عيناه، فخفق جفناه مع دقات قلبه. وضع يده على الزجاج البارد، شدّهُ عزف المطر وحنَّ لزمن آخر، إلى وقت كانت المحبة والعدالة عملة متداولة بين سكان المدينة.

ازداد صوت الغيث وسالت قطرات كأنهار متعرجة على الزجاج وبقت بقع من الغبار كوصمة زمنية ليذكر من يرى من خلاله ان الإنسان فاني والتراب باقي إلى الأزل. شعر فارس برومانسية تتدفق بين أصابع قدميه، وتذكر ما قاله الشعراء عن المطر وتغزلهم المنفرد بالطقس في يوم كهذا. ترك العصفورين وهما يلعبان في الصالة، ودخل إلى غرفة النوم ليوقظ زوجته فوجدها نائمة على جانبها. كانت في سبات عميق، ولم يكن هناك ما ينبض بالحياة في جسدها إلا منخاريها إذ كان يتوسعان مع كل نَفَس. وجد فارس نفسه في معضلة تمر على كل زوج في حياته الزوجية، هل يخاطر فيوقظها لترى المطر والمفاجأة التي تنتظرها في القفص ام يدعها نائمة بسلام وتضيع عليها الفرصة. حاول أن يحزر في أي موقف سوف يكون مزاجها عكرًا، وبعد التفكير قرر بالمخاطرة وإيقاظها برومانسية. تمدد بجوارها موازيًا نفسه مع جسدها، وبحركة من أصابع يده كيد خزاف تلاعب الطين أبعد بعض الشعرات التي نامت خلف أذنها، وهناك عشق تقبيلها فكانت جنته على الأرض. اقترب منها وشعر بحرارة جسدها تتدفق إليه وشرب حتى الثمل من عطرها الطبيعي، واستقرت شفتاه على عرش الحب خلف لحمة أذنها وقبلها بحنان. لمس أنفه تاج أذنها وانجذب لبشرتها الرقيقة فقبلها مرة أخرى ومعها ابتسمت سمر بخجل.

- «صباح الخير» قالها فارس بنبرة عذبة.

عضت سمر على شفتيها وبللتهما بلسانها وردت «لماذا استيقظت مبكرًا؟»

- «استيقظت على صوت المطر» ولوح بسبابته عاليًا.

- «قبلني مرة أخرى.»

أقترب فارس كفارس، وقبلها من عنقها العارية التي كانت كالحرير جميلة المنظر وناعمة الملمس والتهمت نار النشوة روحه، فعاد إلى تقبيلها عدة مرات وبعد بضع دقائق تبخرت الرومانسية وقال لها «عليك بالنهوض، أمي على وشك الوصول ولدي مفاجأة لكِ في الصالة.»

لمعت عيناها بالفضول، وهدأت روحها على سمفونية المطر التي غسلت البناية والمدينة من الغبار والقذارة. لقد أرهق جسدها الرشيق بعمل الصحيفة الشاق فاستحوذ التعب على عضلاتها ونخر لحمها وتألمت عظامها، ولكنها بقت صبية حين يأتي وقت الهدايا والمفاجئات. طلبت من فارس بأن يعطيها خمس دقائق لتجهز نفسها وتستعد لبداية اليوم. إجابها بأنه سوف ينتظرها في الصالة ويعد لها قدحا من الشاي لم تتذوق مثله في حياتها. تحرك الزوجان باتجاهين مختلفين وتركا فضاء الغرفة بسكون انشطر بأنشودة المطر، وكانت تلك اللحظة أقرب لشعر بلا كلمات وحب بلا قبلات.

استرخى فارس بجوار طاولة صغيرة موازية للقفص والنافذة، ووضع قدحين من الشاي أمامه، وتناسل تحمسه كلما تأخرت زوجته بالقدوم للصالة. فتح صحيفة اليوم أمامه وقلب صفحاتها بلا مبالاة باحثًا عن صورة تجذب انتباهه أو عنوان يسرق اهتمامه، وشرد ذهنه مع تقليب الصفحات فنسى نفسه بين الأسطر السوداء. خرجت سمر من الغرفة فاتنة الجمال فارتدت ملابس منزلية مريحة وعقدت شعرها كذيل حصان خلف رأسها. يُفاجئ فارس كلما رآها عارية القدمين إذ كانت أقصر مما توقعه ولكنها عوضت عن قصرها بجمال وجهها وجسدها بتناسق يشبه ساعة رملية رفيعة الخصر عريضة الورك وذاب الوقت مع كل حبة رمل تتدحرج على انحناءتها. تحرك قدماها العاريان بصمت فوق أرضية الشقة الخشبية كأنها قطة تتسكع بين الشوارع تبحث عن زاوية تنام فيها. سبقتها رائحة العطر الذي ملأ الغرفة بسحرها فرفع فارس رأسه وقال:

- «أخيرًا» وقف بسرعة لم تعتدها منه وتحرك نحو القفص وقال «انظري.»

لم تراه متحمسًا هكذا من قبل فنظرت إليه وقالت «لا أرى شيئًا فالعصفوران كما تركتهما مساء أمس.»

- «ركزي، انظري إلى هذه الزاوية» أشر بسبابته مدليًا.

نظرت بجدية وقطبت حاجبيها وعندها قالت «يا إلهي أنها بيضة.»

- «أنها جميلة، أليس كذلك؟» احتضنها ووضعت رأسها على مخدة كتفه وقالت:
- «تخيل في بيتنا كتكوت» وضعت سبابتها بين أسلاك القفص كي تبارك للعصفورين.
- «ماذا سوف يكون ولد أو بنت؟»
- «لا اعرف لكن ليس هناك فرق فالجنسان جميلان» حررت نفسها منه واتجهت نحو الطاولة وأخذت قدحها وجلست على مقعدها المفضل وتصفحت الصحيفة وهي ترتشف الشاي وقالت «يبدو أنك مستعجل على الأطفال.»
- «أريد عائلة كبيرة لقد نشأت وحيدًا بلا أشقاء أو شقيقات.»
- «وكم طفلا تريد؟» سألت سمر متلاعبة بمشاعره.
- «خمسة أولاد» كان رده جاهزًا وكأنه قد تدرب على هذا السؤال من قبل.
- «ومن الذي يربي هذا الفريق؟» قلبت سمر بعض الصفحات بلا مبالاة. أشر فارس بأصبعه نحوها وأحسَّ بالخجل محملًا إياها المسؤولية كاملة.
- «مستحيل أوافق على طفلين فقط، ولد وبنت. ما رأيك؟»
- «كما تشائين، ولكن أريد تسمية الولد بنفسي.»
- «وماذا تريد أن تسميه؟» توقفت سمر عند صفحة في وسط الصحيفة.
- «ربيع.»

- «أسم جميل» ركزت سمر وقرأت المقالة.
- «وماذا عن البنت؟ هل لديكِ أسم لها؟» سألها مستغربًا.

لم تجب وقربت الصفحة المفتوحة إليها لتوحي بتركيزها وغمغمت مع نفسها ثم قالت:

- «يا إلهي لقد مرت سنة كاملة، لقد نسيت تمامًا.»
- «ماذا تقرئين؟» جلس بجوارها ونسى حوارهما السابق.
- «لقد مرت سنة كاملة على إلقاء القبض على قيس والحكم عليه، أنظر.»

تطلع فارس إلى ماض حاول نسيانه بإنشاء حياة جديدة مع زوجته فوجد صورة لجسد قيس وقد فارقته الحياة ووضعت عليه لافتة تقول (بإسم الشعب، قرر الملك سرجون الحكم بالإعدام لارتكابه الجرائم التالية: التآمر على العهد الملكي والقيام بمحاولات انقلاب مخالفًا القانون العسكري والقانون العام).

لم تعبر الصورة عن حقيقة الموقف في تلك الليلة التي امتلأ هواؤها برائحة الرماد، وقف فارس يراقب رفيقه عن بعد. كيف عُقد الحبل في زاوية منصة الإعدام، وأُمرر نسيجه الخشن عبر خطاف حديدي صانعا حلقة للشنق. تصلب الحبل أمام نسمة هواء حارة لم تحركه قيد شعرة، وعندها جيء بقيس مرتديًا بدلة سوداء علقت حول عنقه لافتة كبيرة. توقف أمام المنصة صامتًا، وبقت ملامح وجهه غامضة كمشاعر رجل علم بمصيره المحتوم، تذكر فارس كيف كانت هيئته أقرب لمدمن مخدرات غير مكترث بما يدور حوله. ولم تتغير ملامحه عندما وقف على درج متحرك يتكون من ثلاث درجات، رمق عبر حبل المشنقة بشرود مترقبًا شروق الشمس في أي لحظة. عقد الشرطي الحلقة حول عنقه اليافعة وشدها بقوة ثم ابتعد عدة خطوات، تمايل قيس متوازنًا على أطراف أصابع قدميه مستمعًا لغريزة جسده التي دفعت به بالبقاء على قيد الحياة وقبل أن ينطق لسانه طلبا للنجدة دفع الشرطي السلم بلا

مبالاة. تدلى جسد قيس وتبخرت أحلامه وأحلام والده معًا، وعندئذ تحرك جسده مع الريح، وسُمع حفيف اللافتة الورقية. تذكر فارس جيدًا كيف دفن والده جسده يومها ولاحق العار أهله بعدها، فُوضع محل البقالة على قائمة المحلات الممنوعة بقرار من القصر الملكي. ولذلك ابتعد الزبائن وفسدت البضاعة أسبوعيًا، وبعد شهر من الإعدام قرر الأب وألام الرحيل من هذه المدينة تاركين تاريخهم متفسخًا في الأرض.

تعكر مزاج سمر، فأكملت ما تبقى من مشروبها الحار، وتركت الصحيفة مفتوحة على نفس الصفحة، واتجهت إلى غرفة النوم مرة أخرى. انتظرها فارس ومشاعره مختلطة، فلقد تبخر شعور الفرحة ببيضة العصافير، ولدغه الندم لفقدان رفيقه، رجعت زوجته بخطوات ثابتة سلبت من أنوثتها الجذابة وهي تحمل صندوقا أزرق متوسط الحجم. وضعت الصندوق على الطاولة، وجلست بجوار فارس وقبلته على خده بعفوية، وأخذت الصحيفة من إمامه برقة كمنديل يستخلص من علبة ورقية. نقش الصدأ نفسه بزخرفات هندسية على سطح الصندوق، فقبحه ورخص من شكله وقيمته، ولكن سمر لم تهتم بالمنظر الخارجي. استخدمت الصندوق من قبل لحفظ الشكولاتة، ونست كيف حصلت عليه أو من أين اشترته، ولكنها استخدمته لتحتفظ بكل ما هو مهم بالنسبة لها. كانت محتويات الصندوق تشبه الحلوى، صغيرة الحجم وتُذّكرُ صاحبها بالأيام الحلوة. فهناك دميتها المفضلة من دار الأيتام، وقصاصات ورقية من مقالات كتبتها بنفسها في بداية حياتها العملية كصحفية. احترم فارس تقديسها للصندوق ولم يسألها عن محتوياته. غرست أظافرها تحت الغطاء القديم وفتحته بقوة فانتشرت رائحة عفنة على امتداد الطاولة. ابتسمت سمر عندما وجدت كل شيء في مكانه فوضعت الغطاء جانبًا ولم تبال برائحة الهواء المتفسخ. أخرجت مقصا حديديا تلونت نهاياته بالأخضر ولم ينج معدنه من الصدأ، تلون الحديد بلون نحاسي والتصقت الشفرتان ببعضهما. قاوم المقص في البداية وأبقى فمه مغلقًا بعناد، ولكنه لم يقاوم إصرار صاحبته، قصت الصفحة بانتظام حتى استخلصت المقال بدقة

جراح. وضعت المقالة مع بقية القصاصات التي تغير لونها إلى صفار داكن وأخرجت الدمية وسألت فارس:

- «هل تعرفت على دمنة من قبل؟»
- «كلا من أين لكِ هذه الدمية؟» لم يبال فارس بالعفن حفظًا على مشاعر زوجته.
- «كانت لعبتي المفضلة حين كنتُ صبية.»
- «أنها جميلة للغاية» وفتح يده لاستقبالها بحرارة.

أعطت سمر الدمية لزوجها وتلاعبت بالقصاصات بأطراف أصابعها، أمسك فارس الدمية بعناية غُلفت بحذر كما يخرج السماك ما اصطاده من البحر، وقال لها «أنها تشبهكِ بالفعل» ونظر إليهما مقارنا الوجه أولًا ثم أكمل «لقد جاءتني فكرة ما رأيك بتسمية ابنتنا دمنة؟»

- «أسم جميل» كان إنجاب الأطفال أخر شيء تفكر به الآن.

أحسَّ فارس ببرودة الموقف فسأل «هل هناك أخبار عن غازي؟»

- «ما يزال هاربًا» كان جوابها قصيرا حادًا كالسكين.
- «ولماذا تحتفظين بكل هذه القصاصات؟» محاولًا تغيير الموضوع لمرة ثانية.
- «أنها دليل على جرائم العائلة الملكية، واحتفظ بها حتى اذا كتبوا كتب التاريخ من جديد سوف أقف لهم بالمرصاد واثبت للشعب وحشيتهم من خلال تاريخ كتب بالدم» طرقت بأصابعها على الصندوق.
- «لم يخطر هذا الشيء على بالي من قبل، عليكِ بإخفائه في مكان آمن.»
- «شقتنا، بيتنا أمين» ردت سمر بعفوية.
- «علينا إيجاد مكان أفضل من تحت السرير، سوف أجد لكِ مكانا آمنا.»

أعاد فارس الدمية لزوجته، ورتبت سمر غطاء الصندوق كما أحبت وأغلقته بقوة، ودخلت إلى غرفة النوم لتخبئه. خفت جلجلة المطر على البناية، وشقت أشعة الشمس مكانا لها عبر غيمة رمادية، فأمتد قوس قزح

على مدى البصر محتضنًا المدينة بأجمعها دون تفريق بين غني أو فقير، رجل أو امرأة. غرد العصفوران، فامتلأت الشقة بلحن موسيقي دافئ، وحينئذ سمع فارس ثلاث دقات على باب الشقة. تذكر فارس نظرية قديمة تعلمها من أصدقائه في أيام الطفولة تقول إن الإنسان يستطيع معرفة شخصية زائره من عدد دقاته للباب، فأن دق الباب مرة واحدة فاعلم أن صاحبها ضعيف الشخصية ومتردد لا يستطيع التعبير عن نفسه ويدع الآخرين يتخذون القرار نيابة عنه. إما أن دق الباب مرتين فيكون الإنسان متوازن الشخصية والفكر، سعيدا في حياته اليومية، معتدل النفس وقنوعا في متطلباته من الدنيا ويستخدم حكمة (أحترم الناس ليحترموك) في كل قراراته. إما أن دق الباب ثلاث مرات فأعلم أن من خلف الباب قوي الشخصية تمتلئ قبضة يده بالثقة بالنفس، يفكر بشكل مختلف عن الآخرين ليميز نفسه ولديه غريزة اتخاذ القرارات المناسبة، وعندما يوضع في اختبار فأنه يعلو بتصرفاته وسلوكه على من حوله. توجه فارس نحو الباب وحزر من تمشي خلفه من حفيف ملابسها، فتح الباب والابتسامة على وجهه وقال «كيف حالك يا أمي؟» وفرد ذراعه اليسرى مرحبًا بها.

- «لقد تبللت قليلًا» دخلت إلى الشقة ونزعت وشاحها الأسود الذي ارتدته منذُ أن كان طفلا مدللا.

كانت والدته في منتصف الخمسينات من عمرها، ولكن جمالها رفض الزمن وشروطه، فاتنة الجمال، شعرها أسود يغطي أذنيها وتتعانق خصله حول عنقها الطويلة كعاشق يشتاق لحبيبته. عيناها تشعان كجمر في الليل وشفتاها تسحر الرجال بحرف واحد.

- «تفضلي، دعني أعد لك قدحا من الشاي.»
- «شكرا لك أين سمر؟»
- «أنها في غرفة النوم» اتجه نحو المطبخ ليغلي إبريق الماء.

تحركت الأم نحو القفص ولاحظت البيضة من أول نظرة وقالت «انظر لهذه البركة هذا يدل على سعادة بيتكم»

- «أعلم بذلك.»
- «أني بحاجة لأحفاد» قالتها بنكهة من الخبث.
- «لقد اتفقنا على الأسماء» قالها فارس بعفوية.

صمتت والدته وانتظرت جوابه، «ربيع ودمنة» قالها بسعادة.

- «أحسنتما الاختيار.»

جلست أم فارس منتظرة قدح الشاي ولاحظت اختفاء مقالة من إحدى الصفحات، انتابها الفضول وعضت على شفتيها بانتظار فارس وسمر.

◆◆◆

٦

غربت الشمس في وقتها المعتاد وزينت هالة وردية خلفية القصر الملكي الذي تغير منظره الخارجي عن بقية الأيام. قُلِّمت الأشجار بعناية ونظفت التربة من الشوك. أزهرت الورود التي سقيت على مدار أسبوعين فأضافت ألوان مبهجة لحديقة القصر تناغمت مع المناسبة. غُسل القصر ومسحت أرضيته داخلًا وخارجًا فأصبح ناصع البياض. عُلقت أضواء خارجية انعكست ألوانها المختلفة في الفضاء، وثُبتت مشاعل من النار حول القصر فأبرزت تضاريسه الحجرية في الظلام، وسحر أنظار سكان المدينة، وانتشرت الشائعات عما يجري داخل القصر.

نشرت الصحيفة مقالا كاملا عن الأميرة امنية وإنجازاتها كونها نجمة حفلة مساء الغد. تساءل الناس بفضول عمن دُعي من أغنياء المدينة ومن ذهب كخادم أو عامل. نصبت خيم رمادية خارج القصر امتزجت بلون الصحراء لاستضافة الضيوف مؤقتًا حتى يتم تحضير غرفهم في أحد طوابق القصر، وتجانس لون الخيم مع هيكل القصر فأصبح كسنام جمل في الأفق. تجرأ بعض الأطفال على الاقتراب من حدود القصر متجنبين الحرس الملكي، متلصصين من خلف النوافذ، فرأوا حشدا ضخما من الخدم يكنس ويمسح في آن واحد ككتيبة جيش تزحف نحو عدو بتناغم، وعندما قبض عليهم، تمت معاقبتهم بالضرب بالعصي، وعندئذ وعدوا الحرس بعدم العودة مطلقًا.

جلس أفرادُ فرقة موسيقية في إحدى زوايا الصالة ولم يصدقوا حظهم بأنهم داخل القصر، وانبهروا بجمال القاعة وانجذبوا لمنظر الخادمات وهن يعملن بجد. تسامروا وضحكوا وهم يضبطون الآلات الموسيقية، وعزف كل فنان على آلته متأكدًا من جاهزيتها. مرِّ الأسبوعان بسرعة، وعجَّ القصر بالعمال والخدم لأنهاء ما تبقى من استعدادات. تحركت عدة فرق في آن واحد، اهتم فريق القاعة بوضع أسماء الحضور على كل مائدة وترتيب المقاعد وفقًا لذلك. وذهبت مهمة ترتيب الورود إلى فريق الزهور الذي رتبِّ تنسيقا جميلا في مزهرية زجاجية طويلة على كل مائدة. نسقت امنية وصممت المزهرية في وقت فراغها مع أفضل صانع زجاج في المدينة. صمم الزجاج ملائمًا لشخصيتها، أنيق المنظر وناعم الملمس وشفاف المشاعر. أما مهمة التعامل مع الضيوف ونزلاء القصر فأصبحت من نصيب الفريق الثالث الذي امتلك أعضاؤه دبلوماسية وبلاغة في الكلام، وكذلك التعامل مع عادات وتقاليد تختلف عما يؤمنون به ويعرفونه دفعا لأي توتر أو مشاحنات بين الضيوف، ولذلك فهناك تناسق بين هذا الفريق وفريق القاعة بعدم وضع ضيفين متخاصمين بجوار بعض. وقعت هذه المسؤولية بأكملها على عاتق راشد الذي شاخ مؤخرًا وأصبح بدينا نسبيًا كأنما وُضعت كرتان تحت لغده، وأُرهق جفناه حتى أصبحا أشبه بستارة شبة مرفوعة تُبرز عينيه المحمرتين من خلال شريط رفيع.

تحرك راشد لاهثا متنقلا بين الكتائب المختلفة يحفز الجميع على العمل بدقة وسرعة فالملك يحب الكمال، التقط وساخة من الأرض وعدل قماش المائدة في آن واحد وزحف كالثعبان بسكون مساعدًا كل من كان بحاجة إليها. أيقن بكل أيمانه انه في امتحان من الملك ليختبر قوة تحمله للمسؤولية وجَلد قيادته تحت الضغط النفسي، ولم يرغب بأن يخيب ظنه علمًا أن جسده لم يعد يتحمل الإرهاق اليومي والوقوف لفترات طويلة على قدميه. كان في أمس الحاجة لمساعدة لكنه رفض تقاسم المسؤولية، وضغط على نفسه وعلى أعصابه وأنتظر انتهاء اليوم بفارغ الصبر ليغمر قدميه في ماء

ساخن مع القليل من الملح. في أيام فقره، تغذى على التمر وشرب عصيره، ورفع رأسه عاليًا فحسده أصدقاؤه وجيرانه الذين قيدتهم جذور البطالة بالأرض القاحلة، انه ما يزال ابن تلك المحلة الفقيرة الذي تحول إلى غني بإشارة ملكية واحدة.

ومع كل الترتيبات، شعر راشد بانزعاج الملك بسبب جفاف الجو، وكلما سأل الكاهن عن هطول الأمطار أجابه بنفس الجواب الفاتر «غدًا». كان هذا الشيء الوحيد الذي لا سيطرة لراشد عليه، ولو كان باستطاعته تسلق الغيوم وركلها حتى تبكي لفعلها برمشة عين. لو كان لديه ممحاة سحرية لمسح التوتر المرسوم على وجه الملك، فلقد فعل كل ما في قدرته ليستخرج جملة واحدة من الكاهن. أما الجو المكهرب بين الملكة تمارا والملكة الأولى فهذا أمر آخر. كانت تمارا مسؤولة عن اختيار الضيوف ومكان جلوسهم، وكانت كل تعليماتها تحول إلى راشد الذي يرسلها إلى رؤساء الفرق.

قررت تمارا في البداية وضع الملكة الأولى حول مائدة جلس عليها ضيوف ناسبوها عمرًا ومنصبًا، ووضعت المائدة بعيدة عنها كي تتجنب نظرتها الوقحة بأي شكل. وعندما أرسلت تصميم القاعة إلى راشد ودرسه ليلًا حرفا حرفا، انتبه لهذا الخطأ الفادح، وحين سألها صباح اليوم التالي لكي يصححه إجابته ببرود «أفعل ما طُلب منك». أخذ إنذارها بجدية، واهتز كيانه وهو يتراكض بين المهمات المطلوبة، وعندما قابل الملك سرجون مطلعا إياه على التقرير اليومي اعلمه بكل ما يدور في ذهنه. ابتسم الملك ابتسامة غامضة، فلم يستغرب هذه الحركة الذكية من قبل زوجته، فلقد كانت كراهيتهما لبعضهما علنا بين الخدم وعمال القصر، هدأ من مشاعر رفيقه وعرض عليه كأسا من النبيذ وقال له:

- «ضع أمي معنا على نفس المائدة، ولكن ضع كلا من أمي وزوجتي على طرفيها فأنا لا أريد مشاحنات خلال الحفلة.»

إجابه راشد كما اعتاد الملك منه «نعم سيدي» ومن يومها تنقل راشد بين ممرات القصر وصالاته متفاديًا الملكة تمارا. تحرك الجميع على أطراف أصابعهم، فلقد تملكهم الشعور بالنشاط والخفة، وانتشرت عدوى الفرح على وجوههم إذ اقتربوا من نهاية الاستعدادات التي استهلكت كل طاقاتهم. عمل الجميع بتناسق يساعدون بعضهم، فكانوا أقرب إلى بجعات تعوم على سطح بحيرة بانسجام بدون ترك تموجات خلفهم. تفرج الملك سرجون على قصره الذي تحول من مكان وقور يجله أهل المدينة إلى صالة حفلات، تفادى الكلام مع العمال ومدراء الفرق، ووقف جانبا منتظرًا انتهاز فرصة الانفراد براشد. انتظر قليلًا ووجده يتكلم مع أحد العمال فأشر إليه ملوحًا بذراعه، لمحه راشد وترك كل ما كان بين يديه وذهب إلى مولاه. تصافحا وشكره الملك على مجهوده الجبار وأثنى عليه بتحويل القصر بفترة وجيزة إلى ما كانت تحلم به امنية.

- «هل كل شيء على ما يرام؟» سأل سرجون.
- «بالطبع يا مولاي» رد راشد ملتقطًا أنفاسه.
- «أعرف بأنك مشغول جدًا، ولكني بحاجة إليك في مهمة سريعة.»
- «كما تأمر» وضع راشد ما يحمله من أوراق جانبًا.
- «أريدك أن تبعث الكاهن إلى مكتبي حالا، سوف انتظركما في مكتبي.»
- «بالتأكيد سوف أذهب إليه الآن.»

هز رأسه بالإيجاب، وأتجه نحو معبد العبادة، وقبل أن يخرج قال له الملك «أحسنت» ملوحًا بسبابته إلى أجواء الصالة، رد عليه راشد كالمعتاد «شكرًا سيدي.»

اتكأ على الحائط، ورأى من خلال زجاج النافذة المجاورة راشد يمشي بخطوات سريعة نحو المعبد، تحولت الخطوات إلى هرولة ودخل المعبد من بوابته الضخمة المفتوحة. غمغم الملك واتجه نحو مكتبه متفاديًا زوجته فلا بد أنها علمت بتغير ترتيب الضيوف على طاولتها. انتابه شعور بالذنب مارًا

بجانب صالة الحفلات، ورأى امنية ترتب المزهريات بنعومة أصابعها، فتوقف ووضع يده على كتفها، التفتت والاستغراب مرسوم على وجهها فقال لها:

- «تصميم جميل يا ابنتي.»
- «شكرًا يا أبي» احتضنته وقبلته على خده الأيمن وصغرت عيناها كلما توسعت الابتسامة على شفتيها وقالت «ماذا تفعل هنا؟»
- «لقد أردتُ الاطلاع على مجرى الأمور وودت أن اعرف أن كنتِ بحاجة لمساعدتي.»
- «كل شيء على ما يرام.»

وقبل أن تنتهي من جملتها بدأت الفرقة الموسيقية بعزف ألحان تؤنس الآذان، وتذّكر المستمع أهمية الغناء في حياة الإنسان. أراد الملك أن يقول لها وداعًا، ولكن الموسيقى اشتدت تدريجيًا فقبلها من خدها ولوح لها مودعًا، ودعته ابنته، ورجعت إلى ترتيب الزهور وهي تلاعب قدميها على لحن الموسيقى بتناغم.

رجع الملك نحو الممر، ومر بجانب النافذة السابقة، ورأى راشد والكاهن يتمشيان نحو القصر، مشى راشد بخطوات متزنة بينما لحقه الكاهن ببطء أشبه بأخ صغير يلحق بأخيه الكبير متوسلًا. هزَّ الملك رأسه، وتنحنح متجهًا إلى مكتبه ببرود. جلس الملك على كرسيه المصنوع من الخشب والمرصع بالعاج ووضع يديه على طاولة مستطيلة صنعت خصيصًا لمكتبه من قبل أفضل النجارين في المدينة، وكافأه على حسن صنعته، إذ دفع ضعف ثمنها مرتين، وشاعت سمعته بين الناس، وأصبح يلقب بنجار الملك، وأصبحت تلك الطاولة أحسن دعاية له. طرق خشب الزان بمفصل سبابته وانتظرهما بفارغ الصبر، تطلع إلى جدران الغرفة، ولمح سيف والده المعلق كتذكار يذكره بماضيه. سمعهما يصعدان السلم وهما يتسامران، وثمة فرق بين وقع خطواتهما؛ خطوات خفيفة يتبعها صدى لطرقات ثقيلة وآنين الدرجات أشبه بشخص يحرك أثاث بيته من زاوية لأخرى. لم يحتاج لجهد عظيم ليبين عدم

رضاه من الموقف المحرج الذي وضعه الكاهن فيه، فرسم التوتر نفسه على وجهه بفرشاة انغمست بألوان الإرهاق فقطب حاجبيه وأتخذ فمه شكل رقم ثمانية.

تكاثرت الخطوط حول عينيه وفمه فأصبحت كجذور نباتات تبحث عن نداوة في التربة، عدل من جلسته وأنتصب ظهره كما لو ازدادت رجولته نسبيًا مع استقامته. تنحنح مسبقًا ليكون صوته رخيمًا وانتظرهما مستعدًا. دخل راشد والكاهن إلى الغرفة مبتسمين، ولكنهما فوجئا بمنظر الملك الذي استضاف جنازة على وجهه. فهم راشد بعجلة بما يحدث حوله فلبث على كرسي مقابل للملك وأحس بشعور لم يشعر به منذ أيام المدرسة الابتدائية. صُدم الكاهن ولم يعرف أين يختبئ فوقف جانبًا، ولم يجد الشجاعة الكافية للجلوس على كرسي فارغ بجانب راشد، ودام الصمت للحظة ثم قال راشد:

- «أعذرني يا مولاي، ولكن أود الذهاب إلى...»
- «اخرس وأبق جالسًا، أريد شاهدًا» قاطعه الملك.

بلع الكاهن ريقه، وذاب لسانه في جوفه، تفادى النظر إلى الملك وجهًا لوجه، إذ انتابه الشعور بالخطر لحظة دخوله للغرفة، وعلم أن مصيره محتوم وليس هنالك سبب للمقاومة فحياته تعتمد على حبات من المطر. «اسمعني جيدًا لقد صليت لربك ودعيت ورقصت، أين المطر؟» سأله الملك بغطرسة.

- «اعذرني يا مولاي» سحب الكلمات من نخاع عظمه كلمة بعد الأخرى مستخدمًا كل ما تبقى من رجولة في جسده.
- «اصمت أيها الأحمق سوف اقطع رأسك وأرميه في إسطبل الأحصنة» قالها وهو يزمجر غاضبًا.
- «أرجوك يا مولاي قد فعلت أكثر مما أستطيع.»

نهض الملك وفي نيته شيء قرَّ عليه رأيه منذ دخوله إلى مكتبه، اتجه نحو السيف المعلق ورفعه من قاعدته الخشبية بخفة وعقف كميه فظهرت عضلات ذراعه المشدودة بثقل السيف. اضطرب الكاهن، وغرز الرعب نفسه

في عينيه، وتقلص جسد راشد مندهشًا، فلقد سمع شائعات عن غضب الملك مسبقًا، ولكنه لم يره بنفسه، رفع الكاهن يديه راجيا الرحمة وقال بصوت مرتعش «أرجوك يا سيدي الرحمة اغفر لي.»

- «اخرس أيها الأحمق» قالها سرجون مؤشرًا بالسيف مرتجفًا بقبضته.
- «سامحني لقد دعيت لرب الشمس والمطر، ولكن...» قاطعه الملك «ارفع يديك الاثنتين حتى اقطعهما ليصبحا كجذر مبتور.»
- «أرجوك» غطى الكاهن وجهه براحة يديه.
- «هيا ضع يديك على الطاولة حتى يصبح عقابك سهلًا.»
- «أرجوك يا مولاي! الرحمة!»
- «هيا يا راشد ساعدني ومدّ ذراعيه فوق المكتب، امسكهما بقوة.»

وقف راشد وصارع الكاهن، واستطاع التحكم بذراع واحدة ومدها بصعوبة على الطاولة الباردة. جفل جسد الكاهن والتوى محاولًا إخراج ذراعه من قبضة راشد دون أن يفلح في ذلك. تبلل جسد الكاهن بالعرق، وتركت ذراعه نداوة لزجة على سطح الطاولة وتبخرت كضباب الصباح، تزحلقت ذراعه من تحت سيطرة راشد، واستعجل مولاه باتخاذ القرار، فوقف سرجون ورفع سيفه فوق رأسه وأنزله بكل قوته وأغلق راشد عينيه بشدة. ساد الصمت في أرجاء الغرفة، وشعر راشد بتضاؤل قوة الكاهن وبرك على ركبتيه باكيًا. أرخى راشد من قبضته المبتلة ونظر إلى الطاولة، فرأى السيف ينغرس في خشب الطاولة بجوار ذراع الكاهن المرتجفة. وقف الملك وقد امتلأت عيناه بالرماد والغضب يتطاير كشرار النار، تمالك نفسه وقال للكاهن «اسمعني جيدًا إن لم تمطر غدًا فلسوف أقطع رأسك بنفسي، وأهدم كل تمثال لرب الشمس هل تسمعني؟»

- «نعم! نعم!» قالها مترنحًا.
- «هيا اخرج من هنا قبل أن اقضي عليك.»

ركض جسد الكاهن أسرع من قدميه، وارتطم بكل شيء في طريقه، خرج من الباب مذعورًا تاركًا صدى نعليه في ممرات القصر كمأمأة خروف خائف. تنفس الملك وراشد الصعداء واستمتعا بالسكون للحظة، جلس راشد على كرسيه منهكًا وغطى وجهه براحة يديه، تقلص جسده وتضاءلت روحه فأصبح أبكما كتمثال. أما سرجون فذاب الغضب عن حاجبيه، وتبخر الرماد من بؤبؤ عينيه ووضع يده على كتف راشد مثنيًا عليه.

- «شكرًا يا راشد. أحسنت صنعًا» أخذ نفس عميقًا وهو ينظر إلى السيف.

هزَّ راشد رأسه موافقًا، ملتزمًا الصمت، بعد أن شعر بيد سرجون تضغط على كتفه.

- «لقناه درسًا لن ينساه، لقد أحسنت التمثيل، سوف يتعبد ويصلي طوال الليل.»
- «أعطني إشارة سرية في المرة القادمة حتى...»
- «اقسم لك انني لم أنو قطع ذراعه، حتى لو انني أحببت بذلك» ارخى قبضته من كتف راشد واتجه نحو السيف.
- «لقد فقدت نصف عمري» رفع راشد رأسه مبتسمًا.
- «خذ قدحا من نبيذ التمر لتسترد روحك.»

وقف الملك ويده على مقبض السيف المغروس وتصلبت عضلات ذراعيه وطافت شرايينه على زنديه. هز السيف المتغلغل من جانب لأخر وأستطاع تحريره بعد عدة محاولات. لمعت شفرته الحديدية الحادة وعكست جبين الملك مبتلًا بحاجبين غليظين كغصني شجرة. تناثرت شظايا الخشب في كل مكان وأنتصب عدد منها كرماح منتظرة لحمًا لتنغرس فيه، وهناك بين الشظايا يغور شق عميق في الخشب كجرح يئن بما حوله. شرب راشد قدحا باردا من الماء منتعشًا من نداوة لسانه، اتجه الملك ليرجع السيف إلى قاعدته ثم وقف بجانب راشد وأخذ قدحا من الخمر ليهدأ أعصابه، تصافحا وضحكا في آن واحد.

جلس الملك في مكانه وطلب من راشد الجلوس معه لبضع دقائق وقال:

- «سوف تمطر بردا وضفادع غدًا» قالها وهو يمد ظهره على كرسيه.

رد راشد واضعًا يده على فؤاده «رعدٌ وبرق». أراد سرجون تغيير الموضوع، فانتهز لحظة هدوء هبطت على الغرفة بعد العاصفة. وقال له:

- «كيف تسير استعدادات حفلة الغد؟»
- «كل شيء على ما يرام يا سيدي، أود الرجوع، بعد إذنك، إلى صالة الحفلة.»
- «وماذا عن الصحيفة، هل سوف يرسل خليل مندوبًا لنا؟»
- «بالطبع لقد تكلمت معه ووعدني بإرسال صحفي شاب ليغطي الحفلة بأكملها.»
- «أحسنت أريد أن أقرأ عن التبرعات الملكية للفقراء.»
- «طبعًا! لقد أرسل خليل مجموعة من الأسئلة أعدها مسبقًا ووافقت عليها بنفسي، وهذه هي الأسئلة التي سوف تُطرح من قبل الصحفي على الأميرة خلال الحفلة.»
- «ممتاز أريد تغطية شاملة.»
- «وعدني خليل بتخصيص صفحة كاملة ملونة لصور الحفلة والأميرة.»
- «وهل تحتاج إلى مساعدتي بأي شيء آخر؟»
- «مازالت هنالك عقدة مشدودة في صدري وهو موضوع الملكة تمارا ووالدتك.»
- «دع هذا الموضوع لي، سوف أحل الموضوع مع تمارا بهدوء.»
- «شكرًا لك هل يمكنني الذهاب الآن لإكمال التحضيرات يا مولاي، أنهم بحاجة لي.»
- «بالتأكيد لا أريد تأخيرك أكثر من هذا.»

وقف راشد وأحنى رأسه احترامًا، ومشى بخطوات خفيفة ثابتة نحو الباب وعندما وضع راحة يده على مقبض الباب قال له سرجون:

- «هل هدية أمنية جاهزة؟» سأله بعفوية متوقعا جوابا إيجابيًا.
- «نعم يا سيدي لقد عمل فريق كامل لتحضيرها لليلة الغد.»
- «لقد أحسن والدي في اختيارك، أنني محظوظ للغاية.»
- «شكرًا يا مولاي» خرج راشد وترك الملك لوحده.

أحس سرجون بنشوة الاكتمال، فكل شيء جاهز، الحفلة والمطر سوف يكونان حديث المدينة، ولسوف يدعوا الناس له بطول العمر والخير. قررَّ الاحتفال، فأخذ رشفة من قنينة الخمر، وتمتع بتحريك السائل الحارق المر بين لسانه وأسنانه، وهو أمرٌ تعود أن يفعله على الدوام. فُتح باب الغرفة بصخب، ودخلت تمارا كلبوة يخرج من منخاريها بخار وصهارة وقالت له «هل أنت مجنون؟» شعر سرجون بإحساس غريب عندما بدأت إحدى خصيتيه بالهجرة شمالا.

♦♦♦

وضعت بدلة ليلية ناصعة البياض على السرير كجلد ثعبان مجوف الباطن ومُقشر الملمس. وقف ربيع بجوارها ينظف حذاء ابيضا بقطعة قماش رمادية اللون. استعار خرقة من مطبخ جدته ووعدها بإرجاعها لاحقًا. مص شفتيه، وسحب خديه سويًا مكونًا كرة لزجة من اللعاب فوق لسانه. قرب الحذاء من فمه وبصق ببطء، فسال اللعاب كمعجون ملتصقًا بالجلد الأبيض، وتمايل خيط رفيع شفاف فمسحه بمرونة وأضافه إلى حذائه بإبهامه. فاحت رائحة الجلد في أرجاء الغرفة، وحك الحذاء بكل قوة فتزحلقت قطعة القماش على خفة يده مزيلة ما تبقى من طين ووساخة.

راق مزاجه بعد أن وجدت جدته حلا لوجع ضرسه، إذ نصحته بمضغ أوراق النعناع، وبالفعل تبخر الصليب الناري المزروع بين لثته وضرسه المنحوس. تمتع بتنظيف حذاءه مستعدًا للحفلة، ودمدم بلحن قديم مع نفسه، وضع فردتي الحذاء بجانب سريره، ثم رفع البدلة متمعنًا نظافتها من جانب لآخر. غابت الشمس، وبقت هالة ملتهبة لقرص أحمر في الأفق تنعكس على بشرته الحنطية، رفع ربيع رأسه عندما مر سرب من الطيور يغرد مهاجرًا. «هل انتهت الرحلة وهاهم عائدون إلى ديارهم أم تركوا وطنهم وهاجروا إلى مكان آخر؟» تساءل ربيع وهو ينظر خارج النافذة، فانجذب لضجيج مجموعة من الأطفال يركضون خلف كرة قديمة، ابتسم وانتابه شعور غريب نسى ملمسه منذُ سنين. كان في الحقيقة سعيدا مع نفسه لأول مرة في حياته، فلقد سارت الأمور لصالحه وأصبح محظوظًا. تمتع بتلك اللحظة اليتيمة التي غرست نفسها بين أساريره متغلغلة في فؤاده.

تابع سرب الطيور بطرف عينه، ولمح أسئلة رئيس التحرير حيث تركها على الطاولة، وعد نفسه بالتمرن عليها، وحفظها عن ظهر قلب، فهو الآن الممثل الرسمي للصحيفة، وعليه أن يكون لبق اللسان لكي يختلط بسهولة مع الأغنياء والمسؤولين. تلاطمت الأفكار في رأسه كموجات التهمت الصخر على شاطئ مشاعره، وخرج الخوف من ظله، وانتشر ذباب الوسواس في

صدره. خاف من الحسد وتسأل «ربما أصغى الرب لدعوات جدتي». عبأ زاوية فمه بالمزيد من أوراق النعناع ومضغه بشهية، ثم سمع صوت جدته تناديه على العشاء فرد عليها بأنه سوف يتعشى لاحقًا. تركته جدته يفعل ما يشاء، إذ كانت تدركُ جيدًا أهمية الحفلة لحفيدها، وأحست بمشاعره التي تألقت بين النجوم ودعت له بالتوفيق. فهم ربيع صمت جدته وشرع بالاستعداد.

خلع ربيع ملابسه اليومية، ورماها على الأرض بلا مبالاة، وارتدى بدلة الحفلة قطعة تلو أخرى. وضع السروال الذي صممه خياط المدينة له خصيصًا ثم ارتدى قميصًا مع سترة بيضاء. امتدت ابتسامة على شفتيه، فظهرت أسنانه الناعمة وواءمت نصاعتها ملابسه. أحس بالنقص عندما شعر ببرودة البلاط البارد في قدميه العاريتين، فارتدى جوارب قديمة، ثم غرس قدميه بحذائه الجلدي. شعر بضغط مكبوت حول كاحله وأصابع قدميه، فهز إصبعه الكبير وتحررت بقية أصابعه بتناسق كما تتساقط قطع الدومينو. ضغط على ظهر الحذاء بإبهامه وأحسَّ بوخزة سكين في جلد كاحله لكنه لم يبال بالوجع فكان الوقت يداهمه. عدل ياقة قميصه وربت على سترته بوقار. كان في هيئة لم يألفها من قبل، فالتفت يمينًا وشمالًا كأسد محبوس في قفص. أخرج رأسه من النافذة مستطلعًا حارته التي تدثرت بلحاف الليل. هبت نسمة هواء دافئة لاعبت خصلات شعره، وملأت صدره بالقناعة، وتمتع بمنظر البيوت المضاءة واندماجها مع نجوم الليل. امتدت رعشة على طول ظهره، وتذكر واجبه المنزلي، فأغلق النافذة ووعد نفسه بالتدرب على الناي في وقت لاحق.

أخذ الأوراق ورتبها بعناية، وحسب ألف حساب بأن لا تتجعد، فحملها كما يحمل إبريق ماء حار متمهلًا وبحذر متجهًا نحو حمام غرفته. وقف أمام المرآة متمعنًا بمظهره والتفت رأسه كحمامة بيضاء تفتخر ببراءتها وجمالها. لم يبق شيء يلهيه عن مهمته، فلقد وجد مكانا للعزلة يمكنه من خلع كل

أقنعة المسؤولية والمعاطف الاجتماعية التي يفرضها المجتمع عليه، أخيرًا أصبح وحيدًا مع نفسه.

تطلع إلى المرآة مقتربًا منها، وعدّل شعره، ورتب ياقة قميصه للمرة الأخيرة، ثم ابتعد بضع خطوات، ووقف جانبًا متطلعًا لانعكاسه من رأسه إلى أخمص قدميه. أخذ الأوراق واحدة تلو الأخرى، وتمرن على إلقاء السؤال عدة مرات مع نفسه.

- «كيف تشعرين تجاه الفقراء؟»
- «هل سوف تتبرعين إلى دار الأيتام في مناسبة كهذه؟»
- «ماهي تطلعاتك للمستقبل؟»
- «لوكان لديك ثلاث أمنيات فما هي؟»

تدرب قدر المستطاع حتى تعب لسانه من التكرار وحفظ الأسئلة عن ظهر قلب. تدفق الإرهاق من جسده وتغلغل في نسيج بدلة الحفلة، تجعدت بعض زوايا القميص والسترة. أحس بعرق إبطه، فخاف من اختلاط رائحته بملابسه فقرر الاستراحة قبل بداية يوم طويل. خلع ملابسه، وارتدى ما أعتاد عليه من ملابس منزلية وشعر بالراحة تنساب بين أضلاعه ولحمه، هاجمه الجوع غدرًا فلقد تأخر وقت العشاء واشتاق لمسامرة جدته المسائية. وجدها تتمدد على ظهرها في غرفة المعيشة وبجانبها صينية فضية امتلأت بالأطباق الصغيرة وإبريق زجاجي من الشاي بالقرب منها. لم يعرف ان كانت نائمة فتسلل على أطراف أصابعه إلى المطبخ وفتح باب الثلاجة وعندها قالت له:

- «هل انتهيت؟ لقد تركت عشاءك في الثلاجة، انه بجانب البيض.»
- «نعم لقد تدربت قدر المستطاع.»

نهضت الجدة من نومتها وجلست مستندة بظهرها على الحائط المجاور وقالت له «هل جربت الملابس؟ كل شيء على قياسك؟»

- «نعم يا جدتي، لقد وجدت العشاء.»

أخرج ربيع صحنا زجاجيًا عميقًا أحمر اللون رسمت على جوانبه أزهار بيضاء بلمسة أنثوية، غُطي بغطاء زجاجي شفاف أصبح ضبابي المنظر بسبب بخار الطعام. وضع الصحن على مائدة الطعام وتناسل فضوله على عدد الثواني فلم ير صحنا بهذا الشكل من قبل. رفع الغطاء بحذر متوقعًا وجبة طعام تذوقها مسبقًا لكنه فوجئ بسيخين من قطع اللحم ومكعبات الباذنجان التي قُسمت بالتساوي. نام السيخين على صلصة حمراء وبجوارهما بصل مشوي وفلفل مقطع وبالإضافة لذلك وُضعت طماطم مشوية بجانب اللحم تدفق عصيرها مختلطًا بما حوله، تمردت رائحة الريحان وزيت الزيتون فامتلأ فمه باللعاب وسأل جدته «ما هذا يا جدتي شكله مغري بالفعل.»

- «كباب بالباذنجان، طبخته خصيصًا لك فأنت بحاجة إلى اللحم والخضراوات.»
- «شكرًا فأنا جائع حقا.»
- «ولا تنسى متبل الباذنجان على الطاولة بجوارك.»
- «باذنجان حتى الموت، تخيلي لو استيقظت غدًا وأصبح لوني بنفسجي.»
- «كل وتمتع.»

أخذ ربيع الطبقين ورغيفا من الخبز وجلس بجوار جدته مغنيًا «يا باذنجان يا باذنجان يا ملك الساحة والميدان.»

- «هل حفظت الأسئلة كما طلب منك رئيس التحرير؟»

مضغ مكعب من الباذنجان وتبعه بلقمة من الكباب المغمس بالطماطم المشوية ورد عليها «طبعًا سوف أرفع رأسك غدًا.»

- «كل ما أريده أن تكون سعيدًا في حياتك.»

أنشغل ربيع بالطعام وتداخل طعم الخضراوات واللحوم في فمه كألعاب نارية ومضغ بشهية جبارة، لم يتوقف عن الأكل حتى أنتهى من نصف الصحن. ذكرته جدته كعادتها بمضغ الطعام ببطء والتمتع به كنعمة من الرب، هز رأسه موافقًا وحاول أن يجد لحظة للتنفس ما بين المضغ والبلع.

تنفس الصعداء بعد أن مسح الصحن الزجاجي بأخر قطعة من الخبز تاركًا خلفه خيطا من الدهن الذهبي على إحدى الحافات. فرد كتفيه واتكأ على الحائط بجوار جدته.

- «عافيات» قالتها مبتسمة وأكملت «لم تذق المتبل.»
- «لا يوجد وقت للهراء يا جدتي، المتبل يعرف مركزه من الإعراب وأين يجلس على الهرم الغذائي.»
- «أين؟» سألته وهي شبه متوقعة الجواب.
- «أسم مجرور وعلامة جره الكباب» ضحكا سويًا.
- «هل تحب أن تسألني نفس الأسئلة لتتدرب عليها؟»
- «لا داعي لقد قررت النوم مبكرًا.»
- «كما تشاء.»

صمتا وتمتعا بالهدوء الذي هبط على زقاقهما فلقد ذهب الأطفال لبيوتهم ولم يبق أحد في الشارع سوى الكلاب السائبة.

- «ماذا سوف يطبخون مساء الغد؟» قالها ربيع متسامرًا.
- «أنهم يستعدون منذُ الآن فهنالك فريق لتقطيع البصل وفريق لتقشير البطاطا ومن يعجن ومن يشوي. لابد أنه مطبخ عظيم.»
- «تمنيت لو كان بمقدوري أخذكِ معي.»
- «أني امرأة هرمة وكبرت على الحفلات والسهرات.»
- «ربما بإمكاني أن أجلب لكِ شيئا من هناك.»
- «لا أريدك أن تتهور وترمي نفسك في السجن على رغيف خبز.»
- «حاضر» تنحنح ثم أكمل «ما رأيك بقدح من الشاي أريد أن أذيب الدهن في أنابيب صدري.»
- «فكرة جيدة، دعني...» وعدلت من جلستها واتكأت على الحائط فقاطعها ربيع وقال لها:
- «اجلسي يا جدتي سوف أعده بنفسي. ماذا تشتهين شاي أسود أم نعناع؟»

- «شاي أسود وضع قليلا من الهيل المطحون ودعه على النار لخمس دقائق» أعطته إبريق الشاي الذي كان بجوارها.
- «كما تحبين» وقف ربيع واتجه إلى المطبخ ليعد الشيء الوحيد الذي أحسن صنعه في المطبخ. أخرج قدحين زجاجين وغلى إبريقا من الماء منتظرًا فتور صوته وقال بتفاؤل لجدته «احكي لنا قصة يا جدتي.»
- «تعال أجلس بجانبي وضع رأسك في حضني.»

أنتهى ربيع من أعداد الشاي ووضع القدحين بجانبهما على الأرض، وجلس بجوار جدته، وانتظرها تحكي له قصة يملأ بها فراغ وقته. فكرت الجدة مع نفسها ثم سألته وهي تحتسي شرابها الحار «هل تعرف قصة البطة والضفدع؟»

- «كلا» هز رأسه نافيًا.
- «كانوا يقرأون علينا هذه القصة في المدرسة.»

أسندت الجدة ظهرها المقعر على الحائط، وأخذت رشفة من مشروبها ثم تنحنحت وقالت «كان يا ما كان في قديم الزمان» صفق ربيع ومال برأسه على كتف جدته، عيناه محمرتان، وانتابه النعاس كالطوفان فتثاءب من كل قلبه، وسمع لجدته بما تبقى لديه من تركيز. التفت الجدة وبدأت قصتها بصوتها الشجن وقالت:

«كانت هناك بركة ماء تتوسط بستانا عاشت فيه مختلف الحيوانات والحشرات. مياهها خضراء اللون، صافية المنظر، تنعكس عليها السماء والسحاب. يحيط بها مختلف الأشجار والنباتات ويسبح فيها أسماك بمختلف الألوان والأشكال، وعندما كانت تهب نسمة هواء، يتموج سطح البحيرة كتجاعيد وجه إنسان. وفي موسم الهجرة، يستقر بها سرب من البط ليرتاحوا بعد رحلة شاقة عبر البحار والجبال، وفي ذلك اليوم، نزلت بطةٌ صغيرةٌ تبحث عن طعام مع والديها. أحبت اللعب في الماء والسباحة كما تشاء، فانتظرت

نوم والديها وخرجت على أطراف جناحيها تسبح وتلعب مع خيالها في البركة، وعندها مر من جانبها حيوان ضئيل رأسه مدور وذيله طويل أخضر».

- «هل أنت سمكة» سألته البطة ولسانها يتدلى من منقارها.
- «كلا» رد عليها بعفوية وهو يسبح.
- «لكنك تشبه السمكة، ما أسمك؟»
- «أنا لست بسمكة، أنا شرغوف» رد عليها بصوت ناعم يدل على شبابه.
- «شرغوف؟» سألته البطة بفضول.
- «نعم أسمي أبو ذنيبة» سبح الشرغوف بعيدًا.
- «وداعًا» ودعته البطة ورجعت إلى أهلها.

«وبعد قضاء اليوم التالي في السباحة واللعب نام والداها مبكرًا، فانتهزت هذه الفرصة واتجهت إلى البركة مرة ثانية. سبحت وبللت منقارها وأجنحتها بالماء البارد، وتمعنت بجمال السماء المنعكسة على ماء البركة المتكسر بتموجات رقيقة من جسدها. مر الشرغوف مرة أخرى وتفاداها فقالت له بعفوية:

- «مرحبا يا سمكة.»
- «أنا لست بسمكة، أنا شرغوف» رد عليها بصوت خشن.
- «هل أنت متأكد؟»
- «بالطبع فأنا وأخواني كلنا شراغيف» وسبح بعيد عنها منزعجًا.

بعد نزول الليل نامت الحيوانات والحشرات بسلام مع بعض، استيقظ الشرغوف عند طلوع الفجر متحولا لضفدع وسيم صوته خشن فيه رجولة. احتفل مع أصدقائه بالتخرج من روضة الحياة ودخوله مدرسة الكفاح. قرر الذهاب إلى البركة لممارسة السباحة ليبرد جسده ويختلي بنفسه. سبح الضفدع وتمتع ببرودة الماء على جلده الرقيق وبعد اللعب طحنه الجوع فأنتظر البعوض بفارغ الصبر وحينها مرت البطة من جانبه ونظرت إليه باستغراب وقالت له:

- «مرحبا يا شرغوف كيف حالك؟»
- «أنا لست بشرغوف» رد عليها وصوته الخشن مفعم بالقليل من الوقاحة.
- «أليس أنت شرغوف الذي التقيت به البارحة؟» قالتها وهي تنظر إلى جسده الطري المبلل.
- «نعم لقد أصبحت ضفدعا، ألا تسمعين صوتي» قالها وبدأ يفقد الصبر مع هذه البطة الغبية.
- «أنت ضفدع؟» خرج لسانها من منقارها.
- «نعم أنا ضفدع ألا أملأ عينيك المنفصلتين.»
- «هل أنت متأكد أنك ضفدع» سألته ولقد حسمت خطوتها التالية.
- «بالطبع ضفدع أنا الذي...» ولم ينه جملته حتى بلعت البطة الضفدع بالكامل ثم قالت لنفسها:
- «لذيذ.»

قالت الجدة وهي تنتهي من رواية قصتها بأن مغزاها أن السكوت من ذهب فالفم المغلق لا يدخله الذباب. لم تسمع رد ربيع فالتفت نحوه ووجدته نائمًا فاتحًا فمه كثغرة بين جبلين. حاولت إيقاظه لكنه قاومها وقال لها «خمس دقائق أخرى». قالت له جدته «أمامك يوم طويل، اذهب إلى فراشك.»

غمغم ربيع مع نفسه، وأغلق فمه وفتح عينيه ببطء متجنبًا الأضواء والضجة التي أيقظته من قيلولته، وقف مستندا على الحائط حتى لا يفقد توازنه، وشعر بوجع في باطن قدميه مما جعله يترنح بالمشي على رؤوس أصابع قدميه. اتجه إلى غرفته بعد أن ودع جدته بقبلة على جبينها، وذكرها بإكمال القصة في وقت لاحق، انطرح على فراشه والألم يتمدد من باطن قدميه إلى بقية عضلات جسده كجيش من النمل ليس له بداية أو نهاية. أستمر تدفق الألم إلى جفنيه حتى اضطر لفتح عينيه، فتبخر النوم منهما تماما تاركًا خلفه نتوءات حمراء من الأرق. أستيقظ ربيع وقال لنفسه «اللعنة.»

حاول أن ينام وضغط على جفنيه، لكنه لم يستطيع أن يأمر عقله بالراحة فالنوم والأمنيات شيئان لا تستطيع تعبئتهما في قارورة. توتر جسده وأصبح مستقيمًا كعقارب الساعة يدور في فراشه. نهض وفتح النافذة التي سطع زجاجها بضوء القمر، وجلس يراقب البيوت والشوارع متمعنا وجه القمر، محاولا ان يجد مفتاحا ليخرج من أزمة الأرق، وعندها شعر ببرودة الجو فأغلق النافذة، وبقت الستارة مفتوحة، ثم لاحظ كتاب «لغة جسد» قابعًا على منضدته. شعر بالندم لأنه لم يستطع قراءة الكتاب خلال الأسبوعين السابقين، ولم يعتقد أن كتابا كهذا سوف يساعده بالكلام مع البنات. «كله هراء» قالها لنفسه، وهو يتصفح الصفحات الصفراء التي تفسخ صمغها في بداية الكتاب. استمر الأرق، ولم يبق حل آخر فأخذ الكتاب وتمدد على فراشه وقلب صفحاته على ضوء القمر. بدأ الكتاب بأحجية «ما هو الشيء الذي يخترق الزجاج ولا يكسره؟» فكر ربيع، ولكن التعب اهلك عقله فأكمل القراءة «الضوء وهكذا عزيزي القارئ عليك بمعاملة زميلاتك، أختك، أمك وزوجتك. عليك أن تكون في جوارهن فتسمع وتتكلم دون أن تخدش مشاعرهن، وفائدة هذا الكتاب انه يعلمك الخطوات الأساسية للتعامل مع من ترغب في صداقتها، ومن يعلم فلربما ستصبح رفيقة حياتك».

«يقولون عن الماء انه سائل شفاف بدون لون أو رائحة، أما النساء فهنَّ عكس ذلك تمامًا، فهن فاتنات الجمال، مختلفات ومتنوعات كألوان الطيف، تمتزج نكهاتهن بعطور جذابة تنسيك أسمك. ولكن مثلما يتحول الماء إلى ثلاث مراحل، سائل، ثلج وبخار، فالنساء لديهن شخصيات مختلفة ومتعددة مثل المرأة الحنونة، القنوعة، العنيدة، العاطفية، الذكية وأخطرهن التي تقرأ. تتكون هذه الشخصيات منذُ الصغر بدوافع عائلية وتصقل بسبب احتكاكها بالمجتمع الذي تعيش فيه. وإن كان هناك حكمة عليك بأخذها من هذا الكتاب فهي أن عليك اختيار رفيقة حياتك بحرص فهذا قرار أساسي يؤمن لك عزيزي القارئ حياة سعيدة أو تعيسة وعلى الرجل...»

نزلت ستارة النعاس، وأسبل جفنيه معلنًا نهاية اليوم. وضع ربيع الكتاب على صدره، وغطى عينيه بذراعه، وتمنى لو نام لثانية واحدة. بدأ يذاكر الأسئلة مع نفسه واحد تلو الآخر. سقط الكتاب جانبًا، وترك ضوء القمر هالة على غلافه القديم، وحينئذ تنفس ربيع ببطء وانتظام.

◆◆◆

سنة بعد ولادة ربيع

اقتنعت سمر بعد عدة شهور من الضغط المتواصل من قبل زوجها وحماتها أن الوقت مناسب لإنجاب الأطفال. كانا محظوظين من هذه الناحية، فحبلت من أول محاولة بسبب خصوبة أرضها. قررت قضاء فترة الحمل في البيت، ووعدها خليل بأن وظيفتها ومكتبها سوف يبقيان شاغرين بانتظارها. استمر فارس بالعمل في الصحيفة، واجتهد وثقلت المسؤولية على عاتقه، مستعدًا ليصبح رب عائلة قريبًا. تغيرت تطلعاته وقراءته، وأصبح عدوانه وكراهيته للعائلة الملكية شيئا قديما رُكِنَ بين أثاث ذكرياته يذكره بعنفوان شبابه. تحولت مقالاته الأسبوعية لمقالات فقدت نكهتها السياسية، وكتب مقالات اجتماعية هاجم فيها المسؤولين والتربويين، أُعجب خليل بهذا التغير الجذري وكافئه بترقية مالية مدركا احتياجات فارس المالية في المستقبل.

أما سمر فنست الصحيفة وروتينها اليومي، وتلاشت رغبتها بالبحث عن جرائم ارتكبت من قبل عناصر الشرطة أو بقرارات ملكية، وانشغلت بكل كيانها خلال فترة الحمل. كانت أول مهمة لهما هي الانتقال لبيت أكبر يحوي عائلتهم الصغيرة وعلى الطفل الرضيع ومعداته، وبضربة حظ استطاعا الحصول على بيت بثلاث غرف قريب من البناية. أنفق فارس كل ما تبقى لديه من نقود وبمساعدة الجيران انتقلا إلى البيت الجديد. بدلت البيت القديم بآخر يحتوي على كل ما عشقاه في الحياة، وبقت تلك الأيام من أجمل لحظات أيام الحمل لدى سمر. كانت تستيقظ متأخرة كل يوم، واعتادت على وجود ملاحظة من فارس علقها على المرآة تذكرها بكم يحبها ويحب من يترعرع في أحشائها. وبعد فطور بسيط، تبدأ بتزيين غرفة الطفل

بكل تحضيراتها وقضت معظم وقتها فيها. وكلما أضافت شيئا جديدا للحجرة مسحت كراهيتها للعائلة الملكية بنفس المقدار حتى نستهم تمامًا.

بقت بطنها ضئيلة، لذلك وعدتها أم فارس بأنها سوف تنجب ذكرا، ولو كانت بطنها ضخمة الحجم فيكون المولود بنتا، ولإثبات هذه النظرية اشتهت سمر الحمضيات بكل أنواعها من ليمون وبرتقال، وأكلت مخللات وزيتون أخضر مع كل وجبة. مر حملها بسرعة وسهولة، لكن الوسواس ضاعف من مخاوفها، فشعرت بالقلق باستمرار خلال فترة الحمل، واستخدم فارس المنطق والعلوم ليحارب مخاوفها، ولكنها أصرت عليه. شعرت بمسؤولية كبيرة نحو طفلها وخافت من أكل أي شيء قد يضر بالجنين، ولهذا قللت من الأكل وامتنعت عن ممارسة الرياضة. كان هناك شيء واحد لم تخف منه في تلك الأيام وهو أن تصبح امًا وقدوة لطفلها، فغريزتها الطبيعية حاربت كل وسواس، وكانت متأكدة من أنها سوف تكون أُمًّا ممتازة.

سمعت سمر الكثير عن آلام الولادة من جيرانها، قصصا مفتعلة وأساطير قديمة، وحينئذ شعرت بأنها محظوظة بوجود أم فارس معها في كل خطوة. عززت ثقتها بالنفس، ودعت لها بأن يكون مخاضها سهلًا. تأخر حملها، وتعبت سمر من فترة الحمل، تورم كاحلاها وأصابع يديها، ولكن في أول يوم من موسم الربيع جاء المولود للدنيا بعد عدة ساعات من المخاض، وكما تمنى فارس سمى ابنه بربيع متفائلا بالزهور والحصاد، فلقد جلب المولود الحظ الحسن للمدينة كلها.

ترددت شائعات عن وسامة المولود على مسامع الجيران، وتفاءل الناس من وزنه الذي كان أقرب لربع كيلو من لحم ودم، بشرته حنطية وعيناه عسليتان فيهما بريق حيواني. أول هواية مارسها ربيع كانت الصراخ المستمر، ولكان يحرز مدالية ذهبية لو كان الصراخ معترفا به كلعبة أولمبية. «قوي الرئتين» قالتها أم فارس متباهية، تحاول أن تلطف الجو المتوتر بين الزوجين، إذ أن قلة النوم لعدة أسابيع متواصلة دفعت بهما إلى حافة الانهيار العصبي. إما ربيع

فكان يستمتع بالنوم صباحًا والسهر ليلًا، ولقبته أمه بالبومة لتصرفاته الليلية، ولهذا نامت أم فارس مع الطفل كل ليلة وهي تدلك ظهره لتسهل من تجشؤه. ويوما بعد يوم، أصبحت أم فارس جزء لا يتجزأ من البيت وعاشت ونامت مع ربيع. شعرت سمر باسترداد جزءا بسيطًا من حياتها اليومية، وعادت لتنام بضع ساعات متواصلة لكنها كانت تشعر بالذنب يطعن قلبها كلما تركت طفلها مع جدته.

كان ربيع لعوبًا ولديه ابتسامة تذيب التعب عن جفن العين، وتفتح مجاري الحب لكل من قابله، لمعت عيناه بإشعاع وارتفعت شفته العليا كرأس خيمة وظهرت لثته الوردية بلون مرجان البحر. استقرت الأمور بعد بضعة أسابيع، ورجعت أم فارس إلى ديارها، ونام فارس وسمر في نفس الفراش لأول مرة منذُ قدوم ربيع، ولكن الحياة كان لها شأن آخر، إذ شقت الأسنان البيضاء كجمار النخيل لثة الطفل، وبدأ بالصراخ مرة أخرى. نصحها الجيران يومها بوضع القليل من النبيذ على أصبعها، والضغط على لثته ليثمل وينام نوم هنيئًا. رجعت أم فارس وشاركت ربيع الفراش، وقضى فارس معظم وقته في الصحيفة عاملًا بجهد ويأخذ قيلولة بين السطور. لم يهدأ الطفل حتى وصل إلى عمر الستة أشهر، ونافس الديك في الاستيقاظ مبكرًا والصراخ أيضًا مما جعل والده ينام في الصحيفة بين حين وآخر.

بعد ظهور الأسنان، واستقرار المعدة مرت العائلة بهدنة بين الطفل ووالديه، وبدأت شخصية ربيع بالظهور منذُ الصغر. كان يجيد التقلب في سريره، ويستمتع بصوت جدته مناديا من المطبخ، وأستلذ بوضع الأغراض في فمه والمضغ عليها بشهية مفعمة وملئها باللعاب. وبين الزحف كالدودة إلى الأمام ببطء والجلوس بدون مساعدة حفظ صالة المعيشة عن ظهر قلب، وبحث عن أشياء كان يستخدمها لتساعده في الوقوف والتفرج على كل من هب ودب في الشارع. أصبحت أفضل متعة له استعارة ملعقتين من المطبخ وضربهما سويًا مستمتعًا بالضجة التي يثيرها، ومازالت سمر تُذّكر فارس

كيف أن طفلهما وقف ولوح لهما للمرة الأولى عندما سلمت عليه في إحدى المرات.

قررت سمر الرجوع إلى العمل بعد استقرار الأمور وتمديد الهدنة، وكان عليها إيجاد مربية لربيع. تضايقت أم فارس يومها وقالت لها «اذهبي إلى عملكِ يا بنتي، ربيع ابني وسوف أعتني به كل يوم، اتركيه معي». فرحت سمر بمساعدتها ورحب خليل بعودتها موفيا بوعده.

عاد الشعور الطبيعي لكل أفراد الأسرة، لكن سمر وفارس لم يعلما بأنهما سوف يشتاقان لطفلهما لهذا الحد، أما ربيع وجدته فكانا في عالم آخر، فلقد دخل الطفل في أجمل مراحل حياته. أدركت جدته مبكرًا بأنه أشطر من بقية الأطفال، إذ بدأ يؤشر إلى الأغراض التي يريدها كقدح من الماء أو ملعقة طعام، صار حبوه ممتازًا وذهب مستكشفا بين الغرف في وقت فراغه. كانت جدته تبحث عنه وهي تطبخ وتضع لقمة من الخبز في فمه فيضحك لها بابتسامة وادعة تؤجج مشاعرها، وظهرت له أربعة أسنان لبنية. اعتاد على تناول الأطعمة الصلبة بسبب جدته التي كانت تحشر قطعا من الباذنجان المقلي والتفاح والخيار كلما فتح فمه، وأصبح قادرًا على شراب الماء من القدح لوحده. ملأ البيت بالسعادة وبدفء حميم، وأصبحت أشعة الشمس لا تغيب عنهما. افتقدت سمر طفلها الوحيد في اللحظات التي تفيق فيها من عملها الذي استهلك كل طاقتها من الصباح إلى المساء، لكنها كانت تشعر بالطمأنينة عندما تذكر نفسها بأن أبنها مع أحسن مربية، ولكن قلبها ذاب في ذلك اليوم الذي ناداها ماما لأول مرة. أحسَّ فارس بالغيرة من زوجته وأصر على تعليمه كلمة بابا لكنه فشل مرارًا.

ضغطت سمر على نفسها يوميًا لتعوض حنان الأمومة، فأخذت دور الأم بجدية، فلعبت معه واعدت له حماما وبدلت له ملابسه مساءً، ولعب فارس مع ربيع وغنى له قبل النوم. مرت الأشهر بسرعة، وبدأ ربيع بالوقوف لعدة ثوان، واستيعاب تعليمات بسيطة من جدته «هل أنت جوعان؟» يومئ

برأسه موافقًا ويشير إلى حفاظته عندما يملأها بما رفضه جسده من مخلفات. حبذ ربيع الزحف على المشي وذلك لسرعته على أطرافه الأربعة متجولا بين الغرف بسهولة، ولكنه انجذب إلى غرفة أهله التي أصبحت مسقط قلبه وقضى معظم وقته فيها.

قبل يوم من عيد ميلاده الأول، زحف إلى غرفة أهله ليستكشفها مثل كل يوم متتبعًا رائحة عطر أمه التي بحث عنها دون جدوى. دخل الغرفة متجهًا إلى سرير والديه ووقف مستندًا عليه. وضع انفه على غطاء السرير وهمس ماما. تمشى بخطوات قليلة باحثًا عن شيء يجذب نظره، رأى انعكاس نفسه في المرآة بلا مبالاة، ورجع زحفًا إلى جدته عندما سمع صوتها مناديًا. اعتادت جدته على اختفائه من صالة المعيشة، وأدركت انه يلهو في غرفة أهله مشتاقًا إليهما فتركته يمرح كما يشاء. حفظ ربيع الحجرة عن ظهر قلب وتجرأ عدة مرات بالمشي بين الفراش والمرآة بدون مساعدة لكن غريزة الخوف وفقدان توازنه منعته من فعل ذلك.

في أحد الأيام عندما كان يحبو باتجاه الغرفة رأى غرضا يلمع تحت الفراش فانجذب إليه فورًا، مد ذراعه النحيلة وأستطاع سحبه نحوه، صندوق ازرق، صندوق امه. فشل بفتح الصندوق الذي أُغلق بأحكام، فرجع إلى صالة المعيشة وأستعار ملعقة من جدته وبلقمة خبز وشربة ماء رجع إلى الغرفة بجبروت يتطاير من عينيه. سمعت جدته طرقات قادمة من غرفة النوم فتركت الطبخ متجهة صوب الضجيج فوجدته متسلقًا فوق الصندوق وهو يضربه بالملعقة بكل قوته. قالت الجدة «يا ملعون» حملته على كتفها وأخذت الصندوق إلى غرفة المعيشة معهما وتركت طرقات ربيع نتوءات على سطح الصندوق.

حرك ربيع ذراعيه محاولًا احتضان الصندوق وصاح بعفوية الطفولة «ماما! ماما!»، وضعت الجدة الصندوق على الطاولة ووضعت الطفل بجانبها. ضرب الطفل الصندوق بكفيه وارتسمت الابتسامة على محياه، قالت جدته

«لا تختبئ أمك في الصندوق يا ابني». رد عليها ربيع بضحكة رنانة ملأت الغرفة بالسعادة ولمعت عيناه العسليتان مع أسنانه البيضاء. «أعطني فرصة لأفتحه» وزحزحته بخبرة أم مخضرمة. فتحت أم فارس الصندوق وفاحت منه رائحة عفنة ولكمت حاسة شم الطفل وجدته فأرتجى من الصدمة وبكى ربيع من المفاجأة. احتضنت الجدة حفيدها بين ثدييها وحملته جانبًا فهدأ صراخه عندما استنشق عطر جدته الطبيعي، وعندما هدأت مشاعره الناعمة انتبه لوجود دمية قديمة داخل الصندوق فلوح بذراعيه راغبًا بها. شكت الجدة بنظافة الدمية فأخذتها بطرف أصابعها وشمتها بعيدًا عن أنفها وعندها صرخ ربيع «ماما»، وعندما لم تفح الرائحة الكريهة أعطتها لحفيدها بعد فحص بصري سريع.

أخذ ربيع الدمية بشغف ووضعها داخل فمه وعض عليها بكل طاقته فملأها باللعاب وجرها من يدها مرددًا «ماما». انشغلت الجدة بإخراج قصاصات ورقية صفراء ذاب حبرها ولم يبق منها غير خيال لأسطر بعثرها الزمن فاختلطت الكلمات برمال الحياة المتحركة. غسلت الجدة الصندوق ووضعته جانبًا تحت أشعة الشمس مع غطائه الصدأ ورجعت إلى المطبخ لأعداد العشاء. رجعت سمر قبل فارس في تلك الليلة ووجدت ربيع نائمًا يحتضن الدمية فاستغربت وسألت أم فارس كيف حصل عليها وتحركت بعجلة تبحث عن الصندوق في غرفتها، انتابها الذعر عندما لم تجده تحت الفراش. انتبهت الجدة لتوترها فقالت لها بطمأنينة:

- «وجد ربيع الصندوق ففتحناه وأعجب بالدمية.»
- «كانت دميتي المفضلة وأردت إهداءها له في عيد ميلاده الأول، ماذا حصل للصندوق ومحتوياته؟» دب الخوف في شرايينها وتحركت بذعر في أرجاء البيت.
- «وجدنا قصاصات صفراء وضعتها جانبًا لكِ وغسلت الصندوق ونشفته» أشارت بأصبعها إلى طاولة مجاورة لقفص العصافير.
- «شكرًا لكِ على أعداد العشاء» واتجهت نحو الطاولة.

- «لا داعي للشكر لقد نام ربيع في فراشه، سوف اذهب إلى منزلي.»

لملمت الجدة أغراضها على مهل، ووقفت سمر تتصفح القصاصات الورقية التي فقدت قيمتها الخاصة لها بعد ولادة ابنها، فلم تستغرب من شعورها الفاتر نحو هوايتها القديمة. سألتها الجدة «ماذا كانت هذه القصاصات؟» وهي تضعُ وشاحها فوق شعرها.

- «مقالات قديمة ليس لها قيمة» وبحركة واحدة رمت الأوراق في القمامة بلا مبالاة.
- «ربيع متحمس لحفلة عيد ميلاده غدًا» قالت الجدة وهي تخرج من باب البيت.
- «لقد دعا فارس بعض الأصدقاء من الصحيفة.»
- «سوف أعد كعكة مع ربيع صباحًا» وأغلقت الباب خلفها.

غمرتها السعادة عندما رأت دميتها بين ذراعيه، ولسوف ترافق ابنها كما رافقتها في بداية حياتها. رجع فارس في وقته المعتاد مساءً مرتديًا قناع التعب اليومي، لذلك قررت ألا تزعجه بأخبار الصندوق، وقضت ما تبقى من الأمسية في ترتيب زينة البيت استعدادًا لحفلة الغد.

استيقظ ربيع مبكرًا، وسعد بوجود دمية بجواره، واستقبلته جدته بقبلات دافئة فاليوم عيد ميلاده الأول. تعجب ربيع وارتسمت المفاجأة على ملامحه عندما رأى الأوراق الملونة المعلقة من جدار لآخر. بحث عن والديه بخيبة أمل فلقد ذهبا إلى العمل ووعدا أم فارس بالعودة قبل غروب الشمس للاحتفال سويًا. قضى ربيع عيد ميلاده كبقية أيامه الأخرى حبوًا بين غرف البيت مستكشفًا، ولكنه سحب الدمية معه إلى كل مكان. تأخر بالمشي بالنسبة لبقية الأطفال في عمره وكان يتردد في الخطو بين الأثاث دون أن يُمسك به أحدٌ. وضعت جدته الصندوق الذي وجدته بالأمس مع بقية ألعابه وتمتع ربيع بطرقه بملعقة الطعام. «طبال» قالت له جدته غير مبالية بالضجيج المزعج.

قضت الجدة معظم اليوم في المطبخ استعدادًا للعشاء، فبدأت يومها بتحضير كعكة شكولاتة، وساعدها ربيع بلطع الملاعق المتسخة، ثم تركها للمهمات الشاقة من حشو الدجاج بالرز وتقشير البطاطا وتقطيع الباذنجان. أدخل حفيدها البهجة لحياتها التي قضتها بين الطبخ والتنظيف ومساعدة الآخرين. استطاعت أن ترتاح لساعة عندما نام ربيع قيلولة بعد وجبة الغذاء وحلت الكلمات المتقاطعة لصحيفة الأمس التي كان فارس يتركها لها مساء كل يوم.

فشلت في حزر عدد المدعوين، فقررت طبخ ما يكفي لعشرة أشخاص تطبيقا لفلسفة (يزيد ولا يقل) التي تمرنت عليها منذُ الصغر. كنست ومسحت الأرض وجهزت مائدة العشاء، اخترق التعب قدميها، وصب نفسه كالإسفلت على كاحليها وبطأت حركتها مع غروب الشمس. لعب ربيع بين ساقيها، وحاولت أبعاده عن المطبخ عدة مرات لكنه كان مشاكسًا على شاكلة أبيه، فلم يكن يطيعها في ذلك. غربت الشمس، وأُسدلت ستارة مسائية شفافة على المدينة، وتدلى قرص برتقالي يسبح في الأفق. سمع ربيع مفاتيح الباب تطرق الخشب فقال «ماما! بابا!» وزحف باتجاههما واستند على الحائط المجاور لاستقبالهما وتفاجئا وهما يدخلان والضحكة تتردد على شفتيهما وتبعتهما أصوات أخرى من الخارج. دخلت سمر واحتضنت طفلها وقبلته بشدة تاركة بصمات لقبل حمراء على خديه، دخل فارس ورفيقه بعدها ولمحه ربيع وأشر بذراعه طالبًا النجدة وقال «بابا!»

أحتضن فارس ابنه وقبله من خده الناعم وشكر والدته على تجهيز الوليمة، فاحت رائحة الطعام في أرجاء البيت وقال لها:

- «ما كل هذا يا أمي، تعالي لقد جلبت لكِ مفاجأة» اتجه نحو زميله وعرفه «هذا طلال مصمم الكلمات المتقاطعة التي تحبينها» وقف طلال وسلم على أم فارس بخجل وشكرها على الطعام.

- «سوف يأتي بعض الزملاء لاحقًا» قالتها سمر وهي تتذوق الطعام بشهية.
- «لقد اعتذر رئيس التحرير وأرسل أكبر تحية لربيع» رد طلال وهو يلعب مع الطفل الذي وقف بجوار مائدة الطعام محاولًا جذب الانتباه إليه بأي طريقة ممكنة.
- «لم أتوقع أن يكون مصمم الكلمات المتقاطعة شابا في عمرك!» وقفت أم فارس بجوار طلال وقد ذبلت عيناها من الإرهاق ثم سألت «كيف تصممها؟»
- «قصة طويلة، اجلسي يا عمتي» حرك لها كرسيًا بأدب.

جلست أم فارس، ودعت ربيع كي يمشى إليها فضربت على ركبتيها وقالت له «تعال» عدة مرات بابتسامة لتغريه بأخذ خطوة واحدة. جاوبها ربيع بضحكة ورد «ماما! بابا!» رافعًا ذراعيه باحثًا عن عبد ليحمله، وحينئذ أخرج طلال مفتاحا من جيبه وهزه عدة مرات، صفق ربيع لصوت المفاتيح وأخذ خطوته الأولى باتجاه طلال. استمر طلال بهز المفاتيح مشجعًا الطفل بتحدي نفسه والمشي بدون استناد، وخطوة تلو الأخرى وصل إلى طلال الذي احتضنه وصفق الجميع فرحين. لاحظت سمر هدوء أم فارس وقالت «هيا دعنا نشعل الشمعة ونغني». هزت الجدة رأسها موافقة فلم يبق جزء من جسدها لم يصل إليه الألم. وقف الجميع حول الكعكة، ووضعت سمر شمعة واحدة مشتعلة فتلألأت الأقداح والفضيات وغنوا سنة حلوة يا ربيع!

تناثرت أصواتهم بلا تناسق وتلاطمت على جدران البيت مع لهيب الشعلة المتموجة ونسوا مشاكلهم ومصائبهم لبعض دقائق. حملت سمر ابنها فوق الكعكة ومثلت انه أطفئ الشمعة بنفسه، ضحك ربيع على التصفيق والاهتمام الذي حصل عليه اليوم. أمسكت سمر السكين بالمقلوب ووضعت يد ابنها عليها وقطعا الكعكة سويًا وقالت له «أتمنى لك حياة سعيدة يا أبني.»

تمتع ربيع بقطعة الشكولاتة، وتلطخ فمه ويديه بها، وانشغل الجميع بالطعام وهيمن اصطكاك المعالق بالأطباق على الحفلة. هجموا على الطعام وتداولت الصحون حول مائدة الطعام بحركة دائرية. التزمت الجدة الصمت فلقد تأخر الوقت وأكلت بعجلة حتى تذهب إلى بيتها لكن فارس أصر بأن تنام الليلة معهم فليس مسموحا لامرأة بالمشي خارجًا في الظلام. أيدته سمر واقترحت عليها أن تنام في غرفة ربيع والتزم طلال الصمت متمتعًا بالطعام.

تثاءب ربيع مرهقًا، وذبلت عيناه الحمراوان وتمدد على الأرض بجوار جدته وهي تمسد على رأسه بين حين وآخر، ومع ذبذبات يدها نام وأخذ جسده قالب الجنين في رحم أمه. شكله أليف ومسالم أقرب إلى حمل، فاحتضنته جدته وأخذت رشفة من الشاي. تسامر الجميع وفاحت رائحة القهوة والشاي في كل أنحاء الصالة. تطلعت سمر لبداية السنة الثانية لطفلها عندما تتطور قدرته على الكلام والمشي فتصبح تربيته أسهل، تدفقت الأمنيات في هاجسها وهي ترشف رشفة من قدحها وأومأت بحركة من رأسها تدل على استيعاب الحوار الجاري بين زوجها وزميله. التقطت القدح من أطرافه الذهبية الذي نقش على مداره حلقات ذهبية كحلقة من حلقات زحل وشربت منه متباهيه بدرجة من الغرور المصطنع ممثلة أنها تشرب الخمر وتخيلت أنها أميرة ثرية. أخطأت سمر عندما اعتقدت بأنها تستطيع شراء رقي الأخلاق حين تصبح ثرية فالفقر هو فقر الروح والثراء هو اكتفاء النفس.

توقف النقاش عندما سمعوا دقات على الباب وصمت طلال وتساءل فارس «من يا ترى؟» ترك سمر تلعب بشعرها وطلال يداعب فتحة القدح بسبابته واتجه نحو الباب. فتح الباب لكنه فوجئ بعدم وجود أحد فألتفت يمينا وشمالًا لكنه لم يجد من دق على الباب. أغلق الباب بحرص ورجع إلى نقاشه مع طلال.

◆◆◆

٧

لقد جاء اليوم المنتظر، ولم يكن هنالك إنسان أسعد من ربيع، دعت له جدته بالتوفيق وذكرته بشراء ورقة اليانصيب في طريقه إلى القصر. خرج مبكرًا حتى لا يتأخر على موعد الحفلة واتجه نحو السوق. طافت الشمس في الأفق وتلاشت ملامحها خلف غيوم رمادية استولت على السماء الزرقاء بعجلة. ومع غروب الشمس لفحت الحرارة الأوجه الحنطية والأجساد الذابلة بلسعة اعتاد السكان عليها واعتبرها بعضهم إحدى جماليات المدينة. ركضت مجموعة من الأطفال خلف أولياء أمرهم يتوسلون لشراء الحلوى أو لعبة من دكان، ولكن طلباتهم كانت ترفض بعدد الخطوات التي فصلتهم عن أهلهم.

غردت بعض العصافير من غصن شجرة جدباء معلنة وقت العشاء، وغطى ضجيج العربات والناس على زقزقتها التي أهملها الكبار وفقد الصغار متعة الاستمتاع بهذا الجزء من طفولتهم. خرج ربيع مرتديًا ملابس بيضاء من الرأس إلى أخمص القدم، وكان الذعر يدب في كيانه كلما تلطخ حذائه بنقطة واحدة من الطين، فتجنب المياه الآسنة والمجاري قدر المستطاع، ولكنه يدرك جيدًا أن هذا قريب من المستحيل. قفز ربيع بين الأرصفة والحفر كطير يبحث عن حبة قمح متوازنًا على ساق واحدة في بعض الأحيان.

«كان يجب تأجيل هذا المشوار لصباح الغد» تصارع مع نفسه لكن هاجسه لعب الورقة الرابحة دائمًا وقال له «أنها جدتك وكلها خمس دقائق فقط». بلع ربيع ريقه وضغط على أسنانه متفاديًا حفرة أخرى. تنبه الناس

لمظهره الغريب فكان شكله كعريس يتمشى وسطهم دون زفاف أو عروس. تطلعوا إليه بدهشة إذ كان يماثلهم شكلًا، ولكن منظره طلي بريشة بيضاء فأصبح ملمسه مصقولًا. لمعت بدلته مع كل خطوة صارمة اتخذها نحو الدكان ولم يبال باهتمام الناس به فكان على عجلة من أمره، تجمد كل من رآه من كبار وصغار، رجال ونساء ولاحقوه بنظراتهم الجريئة. عرفوا بان ما يحدث أمامهم لا يطرأ كل يوم، وأن هذا منظر استثنائي بشكله العام ومغزاه، كتلك الوخزة الباردة عندما يذوب الثلج بين أصابع يديك. تكلم الرجال عنه كأسطورة وتضاعفت الشائعات على مسامع النساء فأسموه بالغريب. لحق الصغار به لبضع دقائق لكن إصرار خطواته المتزنة زرعت الشك في قلوبهم فتركوه يمشي وحيدًا. شرد ذهنه مع كل خطوة لكن أصابعه بحثت عن علبة كبريت فارغة في جيبه حتى يستطيع التقاط الذباب كعشاء لصديقه العنكبوت خلال يومه وتلاعب بها بين الحين والأخر كلما شعر بالضجر.

وصل إلى الدكان الذي يبيع اليانصيب، فوجده وقد استوطن الظلام في زواياه وخلا من الزبائن كليًا. جلس صاحب المحل على كرسي ضئيل أخضر اللون ذي ثلاثة أرجل مستمعًا إلى الراديو وهو يهف على وجهه بدفتر قديم. انتبه ربيع إلى إعلان متوسط الحجم لصق على الحائط لبطائق اليانصيب، في وسطه صورة لجزيرة نائية في قلب محيط أزرق. انجذب ربيع لتناسق الألوان وارتاحت عينيه للهدوء الذي أضفته الصورة على وجدانه وتغلغل الأمل في قلبه ونبض في شرايينه.

- «هل تحتاج إلى مساعدة يا ابني؟» قالها صاحب المحل والحر يخرج من منخريه كبخار من إبريق ماء مغلي.
- «أريد شراء بطاقة يا نصيب لو سمحت» قالها ربيع متجنبًا اتساخ ملابسه بأكياس الأكل والحلوى.
- «خمسون قرش للبطاقة واحدة» رد صاحب المحل بسخرية ورسم على وجهه مشروع فشل وكل ما تندم عليه خلال حياته، لقد رمى نرد

الحياة ولم يحصل على رقم محظوظ. انتاب ربيع الشعور بأنه في صحبة السوء وعليه الذهاب إلى القصر بأسرع وقت فقال له:

- «بطاقة واحدة لو سمحت» وأعطاه النقود بتردد.

وقف الرجل بصعوبة متنهدًا، وأعطاه البطاقة بلا مبالاة حاكمًا على صاحب البدلة البيضاء وكل جيله باستخفاف. لم يبال ربيع بهذه المعاملة السيئة وتذكر مقولة جدته (الشجرة التي تنحني مع هبوب الريح لن تنكسر أبدًا) التي رددتها على مسامعه حين كان غلامًا ورجع من المدرسة باكيًا بسبب الأطفال الذين نادوه «ربيع الأجرب.»

كان لديه مشروع أكبر من النقاش مع البقال «يا له من أبله» قالها في خلده وأخذ البطاقة فوضعها في جيبه وخرج دون كلام متجهًا نحو القصر الملكي. مشى سريعًا لعدة دقائق، عندها برز القصر شامخًا مضاءً ومحاطا بعدد من الحراس والشرطة. عدل سترته ورتب شعره معتقدًا أن هذه اللمسات السحرية سوف تصعد به مرتبة أو اثنتين على مقياس الأهمية والجمال. انتابه الخوف عندما وصل إلى نهاية صف كامل من الضيوف يرتدون ملابس متماثلة كأنهم خرجوا جميعًا من قالب واحد فلم يكن فيهم أحد فريد المظهر أو المنظر.

وقف ولمح بقعا من الطين الناشف على حذائه فلطع إبهامه ومسح الوساخة بكل مستطاعه دون أن يجلب الأنظار إليه. أسس العرق جدارا على جبينه وتمايل مع حركة رأسه، أبتلع ريقه وسأل من كان أمامه:

- «لو سمحت لم الانتظار؟»

استدار الشخصان في آن واحد وكانا توأمين، شاب ملامحه جميلة ليست من هذه المدينة فأنفه ضئيل وفكه غليظ، أسنانه بيضاء متشابهة الحجم فالضرس يشبه الناب والناب يشبه القواطع. جسده رشيق كالسيف ويبدو أن هوايته المبارزة فقفز إلى الوراء بعجلة ورد:

- «أنه طابور دخول القصر، عليهم استلام الدعوات.»

لم يسمع ربيع كلمة واحدة من جوابه، فلقد سرقت الفتاة الواقفة بجوار الشاب المتكلم اهتمامه. كانت نسخة من أخيها لكن أنوثتها جعلتها أنعم وأجمل منه أضعافًا. ابتسمت وبرقت أسنانها كاللؤلؤ وارتفعت شفتاها قليلًا ونبض قلب ربيع مرددا «أحبها! أحبها!» وبخفة دفعت خصلة من شعرها الأسود خلف أذنها اليمنى وبهذه الحركة اللاإرادية سيطرت على ربيع وأذابت كل شكوكه ومعتقداته فلم يكن يعلم أن أذن فتاة يمكن أن تكون بهذه الجاذبية: صغيرة الحجم، مصقولة الملمس، يمكن أن يتعبد الرجال لكل نتوء فيها لعقود وقرون، تدلى قرط أذنها الذهبي على شكل هلال وأستدار مع حركة عنقها الطويلة حيث سكنت شامتان كنجمتين تطوفان حول الهلال. أما جسدها فكان كسعفة نخلة مستقيمة القامة ونحيفة الجسد مدت يدها لتصافح ربيع وقالت:

- «مرحبا أنا نادين وهذا أخي نبيل.»

فاحت منها روائح زكية متعددة النفحات كألوان الزهور فاستقبل ربيع يدها وسلم عليها سلامًا حارا. مكثت يدها ناعمة على راحة يده كحيوان أليف يرقد في مخبأه، تفادى الضغط عليها بقوة وبخشونة الرجال، بل بضغطة خفيفة تدل على الحنان، حنان الصديق لصديقته وقال لها:

- «اسمي ربيع» وسلم على نبيل أيضًا.
- «ماذا تفعل هنا يا ربيع؟» سأله نبيل ببعض الغطرسة.
- «أنا مندوب صحفي وجئت لتغطية الحفلة» لم تعجبه طريقة سؤاله ولولا وجود أخته لكان جوابه يختلف في الأسلوب والنبرة.
- «صحفي! أنها وظيفة جميلة بالفعل» ردت نادين ملطفة الجو.
- «نراك لاحقًا.»

التفت نبيل وأخذ يد شقيقته بقبضته وضغط عليها ففهمت الإشارة واستدارا معًا. التفت يدها اليسرى خلف ظهرها بمكر، ولوحت له مودعة

فابتسم ربيع، وبلع ريقه ناظرًا إلى طول الطابور، وانتظر دوره بفارغ الصبر، وشعر بتصلب قطرات العرق على جبينه، كما تحجر جزء من قلبه بسبب معاملة نبيل له، لكنه تذكر مقولة جدته وتطلع إلى السحاب الذي ملأ السماء.

وصل ربيع إلى بوابة القصر الملكي التي عجت بفريق يستقبل الضيوف بسلام دافئ. أُستقبل بحرارة وقدم لهم دعوته للحفلة أخبروه بمكان جلوسه ومكان مائدة الطعام في الصالة. استغرب من وجود عدد كبير من عناصر الشرطة والجنود يتجولون حول القصر باعثين إحساسًا بالخطر. كانوا يتمشون ببطء ويحمل كل منهم سلاحه قريبا من جسده، بينما تدلت عصي خشبية متينة من خصورهم الرفيعة. اقترب من بوابة القصر بعد المراسم المعتادة، وأحس بنسمة هواء باردة تخرج من باطن القصر. «حتى الجو الملكي مختلف» قالها لنفسه مندمجًا مع بقية الضيوف حتى أصبح كحبة رمل على ساحل بحري. ازدادت ثقته بالنفس عندما تواءمت ملابسه مع بقية الضيوف وبحثت عيناه عن التوأمين وبالتحديد نادين لكنها ضاعت في لجة الموج الأبيض.

توقف الضيوف في قاعة الانتظار قبل دخولهم إلى صالة الحفلة، وانبهر ربيع بطراز العمارة داخل القصر، ازدحمت القاعة بالمرايا على كل جدار، ورُسمت زخارف هندسية على السقف، اختلطت ألوانها بالأحمر والأخضر مع خيوط بيضاء رفيعة شكلت الألوان الأساسية أو المثلث المحوري للعرش الملكي. إذ يرمز كل لون لقصة أو أسطورة من الزمن القديم خالدة في مخيلة كل إنسان. دفن الزمن الملك المؤسس وجنوده، وبهتت الألوان عبر تقادم العقود وفقدت معناها لمن لم يعاصرها، أما سرجون فهو بطل بدون بطولة ورمز بلا ثورة. مالم يعرفه الجميع أن ليس ثمة بطولة في الموت، ولا هناك أعدل من ملك الموت فالجميع متساو في نهاية المطاف، غني كان أم فقير.

خلقت المرايا خدعا بصرية، فاختلطت أجساد الضيوف كطوفان إنساني خالقًا أجسادا بعدد مختلف من الأطراف. تمتع ربيع بكل لحظة، إذ كان يراقب بعيون طفل بريء يرى كل شيء لأول مرة. طافت ثريا ذهبية حول

رؤوسهم، وعكست ألوان الطيف على الأسطح الزجاجية، وأبهجت الألوان طباع الضيوف وزادت من شوقهم لدخول الصالة. وضعت طاولات دائرية للاستراحة في وسطها شمعة وبجوارها عدد من الكراسي. انسدلت معاطف الفتيات من جانبي المقاعد وجلسن يتسامرن ويتبادلن أقلام أحمر الشفاه. وجد ربيع نفسه لأول مرة في حياته بصحبة عدد كبير من النساء واستنشقت حواسه الخمس كل ما حوله قدر المستطاع.

أُغلق بابان أحمران بطول السقف يقودان إلى صالة الحفلة، ولكنهما لم يحجبا صوت الموسيقى الخارج منها. تموجت بعض الأجساد على وقع الألحان الجميلة، وطرقت احذية الرجال والنساء الأرض بشوق تدريجيًا مع مرور الوقت. لمح ربيع حائطا وردي اللون وبجواره درج لولبي يربط الطابق الثاني بصالة الانتظار. «ماذا يجري في الطابق الثاني؟» تساءل مع نفسه، وضع ابتسامة مصطنعة على وجهه كما تدرب في حمّامه كي يندمج مع الحضور، وانقطع حبل أفكاره عندما وضع شخص يده على كتفه ليجلب انتباهه من الخلف:

- «مرحبا أنا راشد المندوب الملكي هل أنت الصحفي؟» مدَّ راشد يده مصافحًا.
- «نعم أنا ربيع!» قالها بسرعة لم يتعود لسانه عليها وصافح راشد بحرارة.
- «هل جلبت معك الأسئلة المتفق عليها؟» دخل راشد في لب الموضوع فهو لا يحب مضيعة الوقت بالمجاملات والتمرينات الاجتماعية.
- «نعم يا أستاذ» أخرج ورقة مطوية بعناية من جيب سترته الداخلي وأعطاها لراشد.

فتح راشد الورقة بعناية مماثلة وفحص الأسئلة مرة أخرى وتأكد من أن كل شيء في مكانه، فهو يعلم جيدًا أن المسؤولية سوف تقع على عاتقه دون جدال. أعاد الورقة إلى صاحبها وقال له:

- «جيد! سوف أؤشر لك بعد تناول العشاء وحينها يمكنك مقابلة الأميرة» ربت على كتف الصحفي بحنان أبوي.
- «شكرا جزيلًا أستاذ راشد» سلم عليه مرة أخرى وأحنى رأسه احترامًا.

مضى راشد باتجاه مهمة أخرى، تاركًا ربيع خلفه يتأمل القاعة بحزن متمنيًا لو كانت جدته معه فيتسامران ويضحكان سويًا. لمح نادلا يحمل صينية ذهبية عليها كؤوس رفيعة الساق وضيقة الأفواه يتموج داخلها سائل يميل لونه إلى وردي ذهبي تتصاعد فيه فقاعات من الغاز، رفع ذراعه ملوحًا للنادل فأجابه بإيماءة من رأسه. أخذ الكاس وشرب جرعة كبيرة متوقعًا أن يكون الشراب عصير رمان لكنه تفاجئ بمرارة الخمر التي أحرقت لسانه. ورغم الطعم الغريب، استمر ربيع بتناول النبيذ منسجما مع بقية الضيوف، وارتفعت روحه كفقاعات الغاز عاليًا، ولم يشعر بمرور الوقت بعد ذلك. اختلطت عطور النساء بعرق الرجال وروائح الخمر وجُذبت أجسادهم بقوة فطرية مولدة حرارة حيوانية دلت على شوقهم لدخول الصالة.

فتح أحد البابين ببطء لتجنب جذب الأنظار وبما يكفي لترى الأميرة الصالة بأكملها. ارتدت فستانا ابيض وصل إلى ركبتيها، طُرِّز ببلورات مختلفة الأحجام ترسم طاووسا على طول جسدها، ولبست تاجا ناعما يناسبها عمرًا ومركزًا فتلألأت معالمها كالماس. أما حذاؤها فجاءها هدية من أفضل مصمم للأحذية النسائية من مدينة مجاورة، صُنع بيد إسكافي خبير، كعبه طويل رفيع، وفي مقدمة الحذاء تستقر ثلاث زهرات بيضاء. استقرت قدم امنية كعجينة في قالب بأحكام. ضغط على أصابع قدميها في البداية، ولكن والدتها نصحتها بأن منظر الحذاء يستحق الآلام وكل الآثار الجانبية.

- «هل استعد الجميع؟» قالتها والفرحة تكاد أن تخنقها.
- «لا أرى والديك يا أميرتي، سوف اذهب للبحث عنهما» رد عليها راشد مدركا لما يحدث.

صعد إلى الطابق الثالث متجهًا نحو الجناح الملكي وانتبه إلى السكون الذي خيم في ممراته، فخفف من وقع خطواته متجها صوب غرفة النوم. وجد الملك سرجون في كامل ملبسه مسترخيًا على حافة السرير، منتظرًا زوجته التي كانت تلقنه درسًا بعصبية وتضع زينتها في آن واحد. شعر بالخجل متصنتًا على حوارهما لكنه لم يحبذ أن يقاطعها وهي في هذه الحالة فوقف خلف الباب منتظرا.

- «ما الذي دفع بك لتغيير أمكنة جلوس الضيوف؟ أنها لا تحبني ولم تتكلم معي منذُ سنين فلماذا تريدها الآن أن تجلس معنا على نفس المائدة؟ هل تحب أن تعكر مزاجي قبل الحفلة؟ هل هذه طريقتك بإظهار حبك لي؟ لا أريد أن أضعك في موقف محرج مع والدتك وأسألك من تحب أكثر فهي أمك على كل حال. دعني أضع زينتي بسلام يا سرجون. يا إلهي لقد تورمت شفتاي من البكاء، ماذا سوف أفعل؟»

صمت سرجون مدركا أن أي شيء يخرج من فمه سوف يزيد الأمور سوءا، فإن تعلم شيئا واحدا بعد عقود من الزواج فهو أن الصمت أرقى وسيلة للتعامل مع تمارا.

- «لماذا تجلس هنا ولا تتكلم؟ هل أنت صنم؟» قالتها ماسحة دموعا لم تسيل بعد.

تلعثم وبحث عن كلمات لتلطيف الجو لكنه لم يجد أمامه إلا خيار الاعتذار فوضع كلمتين بجانب بعض اعتادت تمارا على سماعهما وقال «أنا أسف.»

- «تعتذر وتقول إنك اسف ولا تعني هذه الكلمات شيئًا لك فلقد سمعت كل هذا من قبل» فتحت قلم أحمر الشفاه وتتبعت شفتيها بحرفية متقنة. انتظرت رد زوجها ببرود.
- «لم يكن لدي خيار أخر فهي أمي وربما لن تعيش طويلًا حتى ترى زواج امنية» رد الملك محاولًا لصق عدة أسباب بأي طريقة ليخرج من

الشرك الذي وضع نفسه به، شتم راشد في خلده، وتعجب من برودة زوجته وهي تضع قرطي اللؤلؤ وقد كانت تفور كالبركان قبل برهة.

- «أنت تعلم جيدًا أن ليس لدي مشكلة مع أمك وهي التي شنت الحرب بعد ولادة امنية، ولقد أجبرت نفسي على أن أرسل امنية لدعوتها إلى الحفلة وحثها على المساعدة في ترتيبها، ولكنها وكما توقعت رفضت كليًا المشاركة ولو لا...»
- «أنها امرأة هرمة لا تتذكر ما تأكله قبل ساعة، وتريديها أن تحمل الورود والمزهريات» قاطعها سرجون معتقدًا انه يحقق نقطة لصالحه.
- «ولذلك وضعتها حول مائدة تليق بعمرها ومكانها استراتيجيًا فهي قريبة من الحمام وتستطيع الممرضة الاعتناء بها في القاعة» ردت على زوجها بنفس النقطة مستخدمة إياها لصالحها. ارتسمت على وجهها نظرة الانتصار فكانت محنكة بالسجال، وتعرف تفكير زوجها قبل أن تنمو الفكرة في مخه، لكنها لا تستطيع الاعتراف بذلك، لذلك استمرت ببرودة الأعصاب وانتهت من زينتها. رمقت انعكاسه بالمرآة فكان كطفل منحني الرأس يلعب بسلامات أصابعه وانغرس لغده بعقدة رباطه وطفحت وجنتاه على ياقة قميصه.
- «هل لديك شيء أخر؟ لقد تأخرنا على الحفلة» استدارت وواجهته أخيراً.

غمغم سرجون ولم يعرف كيف وضع نفسه في هذا المآزق عدة مرات وتساءل مع نفسه كيف أن من المضحك أن يكون لكلمة بثلاثة حروف كل هذا التأثير على المرء. «ندم» يا لها من كلمة كل حرف فيها أشبه بشظية حادة تغرس نفسها بين أضلاعه. وأدرك في كيانه انه ارتكب خطأ فادحا وعليه التنازل والنزول من عرش نرجسيته. انتهز راشد الهدوء وتنحنح مع كل دقة على الباب.

- «نعم» ردت تمارا بلطف «تفضل.»

فتح راشد الباب مرتعدًا كأنه يفتح بابا يقود إلى الهاوية. وجد الملك واضعًا رأسه بين يديه يدلك صدغيه وقابلته الملكة تمارا بابتسامة جذابة وقالت:

- «هل كل شيء جاهز يا عزيزي؟»

تفاجئ راشد من حلاوة العسل في سؤالها ورد عليها بوقار «الكل بانتظاركم يا مولاتي.»

أغلق الباب باحترام، فلم يرد أن يكون ضيفا ثقيلا ورجع إلى صالة الحفلة ليبلغ الجميع بالاستعداد. وكما كانت تمارا تطرق الفضة والذهب حينما كانت شابة تعلمت أن الشدة مع سرجون سوف تذيب لبه فيميل لصالحها في نهاية المطاف، نظرت إليه وقالت «هيا دعنا نحتفل بعيد ميلاد ابنتنا الوحيدة». وضعت تاجها المرصع بالجواهر، وربتت على كتف زوجها الذي تنهد وهز رأسه موافقًا.

ارتفعت الألحان الموسيقية في صالة الحفلة وازداد شوق الضيوف مع كل دقيقة. انتهت امنية من وضع اللمسات الأخيرة على موائد الطعام منتظرة والديها بفارغ الصبر. تصاعدت روحها عندما سمعت طرقات حذاء أمها بخطواتها المعهودة وركضت باتجاههما واحتضنت أمها وقبلتها بحذر حتى لا تخرب زينتها، ولكنها عانقت والدها وقبلته من وجنتيه، وأحتضنها بحنان وتسامرت روحاهما معا عندما استنشقت عطره الرجولي.

- «هل أنتِ مستعدة؟» سألتها والدتها وهي تبحث عن راشد بين فيضان من الندل والخدم.
- «نعم كل شيء على ما يرام» وقف راشد بجوار الحائط يختبئ بظل ستارة يهز رأسه مؤيدًا جواب الأميرة.
- «عظيم ماذا تنتظرين؟ افتحي الأبواب واستقبلي ضيوفك» قالتها تمارا ويدها مرفوعة كأنها تحمل كأسا من النبيذ الخفي.

ركضت امنية نحو البابين الضخمين وساعدها البواب على فتحهما، ومع بزوغ أول ضوء يدخل إلى الصالة بدأت الفرقة بالعزف ترحيبا بضيوف الأميرة. دخلوا أفواجًا في البداية، ضيوف الملك والملكة من سياسيين ومقاولين وأغنياء المدينة ثم جاء الأطباء والمحامون والمهندسون، دخل المثقفون من كتاب

وشعراء ومسرحيون تلاهم الرياضيون الذين كانوا رموز المدينة التي لا يعلى عليها. دخل كل رجل مع زوجته وقاموا بكل الشكليات المطلوبة منهم في صحبة ملكية من ابتسامات مزيفة وسلام حار ومكافأة امنية على الفكرة الجميلة وكيف أنهم استمتعوا باختيار ملابسهم البيضاء.

رد الملك وزوجته بابتسامات مشابهة وتبادل لقبلات مصطنعة. انشغلت امنية مع زملائها وضيوفها الذين شاركوها اهتماماتها وهواياتها. انتظر ربيع دخول الجميع، وبقي آخر إنسان يدخل القاعة، وجهه البواب لمائدة مهملة في زاوية معتمة ولم يتعرف على الذين شاركوه الحظ التعس. جلس الجميع في أماكنهم المخصصة وتغلغل الخدم بين الطاولات حاملين المزيد من الخمر ثم تلتهم مجموعة أخرى محملة بطعام ضئيل الحجم يمكنك التهامه بلقمة واحدة. جلست العائلة الملكية حول مائدة تتوسط منصة الصالة فجلس سرجون وتمارا سويا وجلست امنية بجانب والدتها وجلست الملكة الأولى بجانب ابنها.

تلألأت تيجانهم وملابسهم الناصعة فأصبحوا بؤرة الانتباه لجميع الحضور لقيمتهم ومظهرهم. توسط القاعة مستطيل خشبي خُصصَّ للرقص تحيط به طاولات الضيوف، أما الفرقة الموسيقية فوجدت نفسها في الجزء الشرقي من الصالة. كان المكان محدودا لذلك حشروا الموسيقيين بجانب بعض ولم يبق الكثير من الفراغ بينهم، فتشابكت أيديهم والتصقت أكتافهم وأجسادهم، غابت الراحة عن بالهم فحفلة كهذه تبقى في ذاكرتهم إلى الأبد. وقف المايسترو أمامهم منتصب القامة مسيطرًا عليهم بكف يده، إن كانت الكف مغلقة فأنهم يتوقفون عن العزف كليًا وان كانت مفتوحة تتراقص مع الألحان كغصن في مهب الريح فأنهم يستمرون بالعزف.

رتبت المقاعد حسب أهمية الضيوف، فجلس نخبة القوم وكبارهم قريبًا من المائدة الملكية، وأصحاب المهن العلمية والأدبية معًا تلاهم أصحاب المهن الحرفية من الحدادة والنجارة وجلس خلفهم صغار القوم. أما ربيع فوجد نفسه في الجزء الجنوبي من الصالة بعيدا عن الحدث وبعيدا عن الطعام

والشراب وقريبا من غرفة المرحاض فاختلط هدير مياهها مع أنغام الطرب، جلس صامتًا وتمددت ابتسامة مصطنعة على وجهه كان قد تدرب عليها كثيرًا.

انتبه لكل ما دار حوله، وذكرَّ نفسه انه صحفي، وأن عليه أن يقص لزملائه صباح الغد كل ما يراه، ارتسمت علامة على حاجبيه تدل على اليقظة والتركيز. تساءل كثيرا حين كان غلاما ماذا يفعل الأغنياء بكل هذا المال وكيف يقضون وقت فراغهم، وجد الجواب أمامه فلأول مرة في حياته تواجد في مكان تلاحمت الطبقة الثرية سويًا. انتابه شعور غريب عندما افتقد حنان الفقر الذي دفئ قلبه وتشبثت روحه به فحتى لو لبس نفس اللباس واكل نفس الطعام فلقد شعر تلقائيا بانه غريب كنقطة زيت في دلو من الماء.

تعرف ربيع على بقية الضيوف حول مائدة الطعام وعرف بنفسه وأُستقبل باستغراب بارد فكانوا مجموعة من الجهلة الذين لا يبالون بوجود صحيفة تطبع وتصدر في مدينتهم فهزوا برؤوسهم مجاملين شدة حماسه ثم رجعوا إلى حواراتهم الشخصية متجاهلين وجوده كليا. ضغط بإبهامه على العلبة في جيبه وحك جلده بشريط الكبريت فأحسَّ بلسعة توقظ روحه المتمردة كوقود في صدره دفعت به إلى الأمام معززة ثقته بالنفس، فكان كالعنكبوت كلما سقط رجع متسلقًا الشبكة بلا كلل أو ملل. وبعد احتساء النبيذ لبرهة تمايلت الرؤوس على رقص الأعناق مع الموسيقى الناعمة الشفافة التي تواءمت مع عمارة القصر وزينة الصالة.

عضه الجوع، وانتفضت معدته بأناشيد وأغان ثورية سمعها من جلس بجواره، بحث الصحفي فيه عن مآدب الطعام متسائلًا عما سوف يقدم لهم. سأل جيرانه فاستقبل باستغراب لكسره قاعدة ذهبية بسؤاله البسيط. التفتت إحدى السيدات من مائدة مجاورة وأشرت بسبابتها إلى الجزء الغربي من القاعة مع ابتسامة ودية تقول له لا عيب في السؤال، شكرها وأحب أن يُعرف بنفسه لكنها استدارت ورجعت إلى حوارها مع صديقاتها. وقف ربيع وبدأ الملل يذوب بين أصابع قدميه متسلقًا باطن ساقيه، وأحس بوجع حاد

بين حذائه وجلد كاحله كطعنة خنجر، بدأ العرق يلسع البثرة التي ذكرته بأن قدميه لم يخلقا لارتداء أحذية الجلد الفاخرة. قاوم بلا مبالاة وبحث عن موائد الطعام فوجدها مقابل موقع الفرقة الموسيقية التي استمر أعضاؤها بالعزف بعشق، والعرق يتلاعب على يد المايسترو.

امتدت موائد على مدى البصر لكنها كانت بعيدة ليحزر ربيع ما يقدم عليها من طعام، وذكره الجوع بجدته وتساءل عما تفعل الآن في المنزل الذي كان حجمه أصغر من إسطبل الأحصنة لكن رفقتها عادلت قلاعا وقصور من فيروز، «ربما تصلي» فكر ربيع مع نفسه وعندها انقطع حبل أفكاره. هدأت الأغاني وهبط السكون كالضباب على الطاولات تدريجيًا واستدارت الرؤوس إلى نقطة واحدة في منتصف القاعة. وقف الملك سرجون وبيده قدح من الخمر وبالأخرى ميكرفون استعاره من الفرقة، تطلع إليهم وأشر المايسترو بإيماءة دلت بأن كل شيء جاهز ويمكنه بالكلام.

أحنى الملك رأسه مفكرًا، فبرزت صلعته مع بقعة الضوء المسلطة عليه وحبات العرق المغروسة في عنقه، رفع رأسه والابتسامة الصافية مرسومة على شفتيه وبلهجة المنتصر والقائد بدأ بالكلام:

- «أعزائي الضيوف أحب في البداية أن أشكركم على حضوركم حفلة عيد ميلاد ابنتي امنية، لكل من حضر من هنا ومن سافر مسافات شاسعة، أتمنى لكم أمسية ممتعة. ولكن في الحقيقة من يستحق كل الشكر والتقدير هي زوجتي تمارا التي قامت بترتيب كل الفعاليات المطلوبة وبجهد جبار استطاعت عبر مدة قصيرة إنجاز الكثير من التحضيرات.»

انشطرت ابتسامة خفيفة على شفتي تمارا، أما الملكة الأولى فلم يعبر وجهها عن قبول أو رفض، فجلست كملكة معززة تكرم الجميع بحضورها. انتظر الملك تضاؤل التصفيق وشرب رشفة من قدحه الممتلئ، تبخر الشعور بالندم عندما اختلس نظرة نحو تمارا ووجدها تستمتع بالتصفيق وقد أعطاها

حقها وسلط بقعة ضوء سوف تساعده بالهرب بجلده من بين فكيها. شعر بنشوة النبيذ ودفء ينبلج في صدره فرفع كأسه عاليًا وأكمل.

- «سوف أخبركم عن فتاة سرقت قلبي قبل عقدين اسمها امنية» التفت جميع الحضور إلى صاحبة عيد الميلاد التي احمرت وجنتاها خجلًا وشعرت بالدم يتدفق إلى رأسها، دلكت فروة شعرها بأصابعها الطويلة كقطع من عجين واكتسحتها موجات من الخجل فخبأت رأسها بين ذراعيها وبرزت فقرات عنقها كتلال ضئيلة وأكمل والدها:
- «عندما أخبرتني زوجتي بأنها حامل بولي العهد كانت فرحتي لا تحصى بكنوز الدنيا فكيف تضع قيمة مادية للحمك ودمك؟ كيف تقيس ضحكة الطفل الرضيع بمجوهرات ولؤلؤ، انه من المستحيل وعندما طلب الكاهن مني تجهيز اسم مؤنث ضحكت وسألته أليس الجنين ولد؟ فرد يومها قائلًا لقد منحك إله الشمس ابنة تساوي ثلاثة أولاد فلديها عقل يميزها بشطارة النساء وجسد يتمتع بلياقة بدنية عالية وروح تشتاق لربها يوميًا فماذا تريد يا مولاي.»

أُخذَ الجميع بلباقة الملك وطريقته الخاصة بإلقاء القصة فجلس ربيع مستمتعًا وسجل الأحداث في دفتر ذاكرته وتلاعبت أصابع يده بكأس خال، سداسي القاعدة ومع كل استدارة خفيفة من أنامل أصابعه يتغير انعكاس ألوان الطيف على مائدة الطعام، عكست أماله وأمنياته، أحلامه ومخاوفه بحركة إصبع واحدة. أكمل الملك:

- «انتظرت ولادتكِ كما يشتاق العصفور للعودة إلى عشه وبحنين الطفل للقمة خبز حارة من يد امه. زرعتِ نفسكِ في حقول أحلامي وانتظرت موسم الحصاد على عدد أنفاسي. وقالت لي تمارا يومها أنظر لديها نفس ضحكتك وذقنك، ذابت قدسيتي أمامكِ وأصبحت عبدًا أمام ربه خاشعًا وكما أنجبت تمارا طفلا أنجب قلبي قلبا أخر يحتويه ويعتني به راضعًا حبك وشاربًا ضحكتكِ الطفولية البريئة.»

رفع الملك كأس النبيذ عاليًا وقال «املأوا كؤوسكم وارفعوها عاليًا وقولوا معي كل عام وأنتِ بخير يا امنية» ردد الجميع الكلام تلقائيًا وغنوا أغنية عيد الميلاد، تمتع ربيع بهذه المراسيم الجديدة وغنى وصفق مع بقية الضيوف. مشت امنية نحو والدها الذي فتح ذراعيه مرحبًا فأصبحت خطواتها ركضًا واحتضنها بشدة، وجد خدها مكانه المفضل على صدر أبيها وتندت رموشها بعواطفه المعبرة وكلامه السحري. صفق الجميع مشجعًا ومساندًا لأمنية فرفعت رأسها وقبلت والدها من وجنتيه المحمرتين. صفقت تمارا لترفع من ثقة ابنتها بنفسها، ولم تتغير ملامح الملكة الأولى مطلقًا فكانت كصنم حي، لا تصفق ولا تبتسم، فهي رمز لا يستهان به وبرهان قديم لسلطة بلا سطوة.

- «تفضلوا! العشاء جاهز» حرك سرجون ذراعيه مرحبًا بالجميع نحو موائد الطعام.

تأهب فريق من الخدم بجانب موائد الطعام لمساعدة الضيوف، ارتدوا ملابسهم التقليدية وحملوا أطباقا فارغة وفضيات. وقف طباخ بحلته البيضاء في نهاية كل مائدة يقطع مختلف اللحوم بسكين طويل مستقبلًا الجميع بأسنانه المتفرقة وعيونه الضئيلة وأضفت ابتسامته البلهاء ظلالا من الغبطة. خرج راشد من وكره المعتم وفتح الأضواء بأكملها فتألقت مزهريات الورد مع ألوان العاج والفضة وطربت الصالة على الحان هادئة وانتشرت السعادة كالعدوى فطار كل ضيف على فقاعة شفافة امتلأت بأحاسيس مبهجة.

اتجه الملك إلى مائدته محتضنًا ابنته الوحيدة مداعبًا ذقنها المدبب بين سبابته وإبهامه واستقبلته زوجته بقبلة فيها بعض من الخجل لتغفر كل ما حدث بينهما وقبلت ابنتها من جبينها وجلس الجميع يتسامرون وينتظرون الطعام بفارغ الصبر. بقت الملكة الأولى متجهمة الوجه تحدق بضيوفها بنظرة جامدة تصلب كل من جاء في طريقها. تمنت لو بقت في جناحها الملكي تفعل ما تشاء، ولكنها لا تريد خسارة علاقتها بحفيدتها فهي ولية العهد وكانت وصيتها الأخيرة أن تُدرّب لاستلام السلطة إن حدث أي مكروه لسرجون،

وبذلك تستمر العائلة بالسيطرة على المدينة جيل بعد جيل. استعار راشد الميكرفون من المايسترو وقرأ أرقام الطاولات التي جاء دورها بالاصطفاف على بوفيه العشاء.

عزفت الفرقة الموسيقية أنغاما هادئة ساعدت الضيوف على تبادل الحوار وهضم الطعام، وانتهز بعض الموسيقيين الفرصة للأكل والشراب قبل حفلة الرقص. أنصت ربيع لأرقام الطاولات منشغلا بعلبة الكبريت والقدح الفارغ في آن واحد منتظرًا دوره، وكما توقع مسبقًا كان رقم مائدته هو الأخير. في البداية، بقت العائلة الملكية في مكانها بينما حمل الخدم أطباقا مُلأت بمختلف ما قدم من طعام وشراب، وكلما فرغت أقداحهم من النبيذ ملأت بإشارة واحدة. أكل الجميع بشهية مفرطة، وطغى ارتطام الملاعق والشوكات على الأطباق على أي صوت آخر. وقف ربيع مع بقية الضيوف حاملًا صحنه منتظرًا دوره. غابت الشمس وانتشر الظلام في كل زاوية وسطع القمر كاللؤلؤة في قعر بحر داكن وزادت الزينة الملونة من بهجة القصر الذي عكست نوافذه كل ما يحدث في الداخل.

وجد ربيع نفسه أمام نافذة عكست صورته، فنظر بشرود ليتأكد من وجود كل شيء في مكانه، وتمنى أن يكون بأحلى حلته حين يقابل الأميرة. «على كل حال لقد حان وقت العشاء» دمدم مع نفسه وعيناه تنجذبان لمختلف الألوان الباهرة أمامه. رأى فواكه لم يرها من قبل بمختلف الأحجام والأشكال وعندما سأل أحد الخدم عن فاكهة معينة إجابه «أنها سندي». تعجب وأبقت الدهشة فمه مفتوحًا، أشر على فاكهة أخرى: «خوخ» وهذه «مشمش».

«كيف عشت كل هذه السنين ولم أذق، بل لم أعرف كل هذه الفواكه؟» قالها ملتقطًا فاكهة بعد الأخرى بجشع، وعندها شعر بصاعقة تجتث كيانه كليًا، فلقد رأى فاكهة لم ير صورتها إلا في الكتب المدرسية، الفاكهة الصفراء

الممنوعة تجلس بلا اكتراث بجانب فواكه غريبة أخرى. «هل هذا؟» ولم يكمل جملته حتى أجاب الخادم «نعم، موز تفضل.»

«موز يا إلهي، أنا أكل الموز!» أراد بالصراخ وأن ينادي على الضيوف بأعلى صوته ويقول لهم انه يأكل الممنوع، «أين أنت يا جدتي تعالي وانظري لحفيدك، انسي أرض الأمل، أنسي المال والبنون، انسي الباذنجان، أنا الآن في أرض الأمل» طارت روحه إلى الشمس والقمر ورجعت إلى الأرض مخترقة طبقات الأرض، مشتاقًا لجدته التي فاتها الكثير من حياتها. وحينها جاءته فكرة كانت تتشكل دون وعي منه، فأخذ موزة إضافية ووضعها على صحنه، ثم اختلس نظرة سريعة لانعكاس النادل الذي أنشغل بمساعدة شخص آخر، وخبأ الموزة في جيب سترته الداخلي، وارتسمت ابتسامة خبيثة انعكست على النافذة المجاورة له، وتقدم نحو الطباخ ليأخذ بعض اللحم والبطاطا المقلية.

رجع ربيع إلى مائدة الطعام محملًا بغنائم الطعام، ووجد قدح ممتلأ بعصير قمر الدين. وضع صحنه الثقيل أمامه، واستطاع الحصول على آخر ما تبقى من الكباب الملكي. أعجب بمنظر الخبز المحمص، وألوان الفلفل والطماطم المتداخلة معًا كلوحة تشكيلية. بحث عن الكباب فوجده يغرق بدبس الرمان محاولًا إنقاذ نفسه متمسكًا بشريحة من الباذنجان نسيجها طري بسبب العصائر المجاورة التي تغمرها. «حتى الملك يأكل الباذنجان» تساءل ببطر، غارسًا شوكته، والتقط جزءا من الكباب الذي نام على جسده اللين خيط من البصل المقلي وانفتحت شهيته مع كل روائح الأكل العطرة.

تدفق الطعم اللذيذ على لسانه كحمم بركانية، واكل بعجلة وشهية مفرطة. تمنى مع كل رشفة من العصير لو كانت جدته تتذوق الطعام معه حتى تتعلم الطبخات وتقلدها في البيت، ربت على جيب سترته الداخلي مداعبًا الفاكهة الممنوعة بحرص. انتهى الجميع من تناول الطعام وسالت أنهار الخمر والنبيذ من قوارير حملها الخدم إلى الضيوف باستمرار. ارتفعت

الضجة تدريجيًا، وحاول كل من كان يتسامر مع جاره أن يرفع صوته عاليًا منافسًا الأصوات الأخرى.

انتهى ربيع من تناول الطعام، وجلس مرتديًا سترته الثقيلة، ولم يحبذ خلعها محافظا على سره وكرامته حتى مع ارتفاع درجات الحرارة في الصالة. بحث عن راشد في زوايا القصر، فربما استطاع إتمام المقابلة الآن، إذ بدأ الوقت يداهمه واستعمر التعب في مفاصله اللينة. دعس بحذائه الأيسر على كعب حذائه الأيمن فهبط الحذاء قليلًا، وارتخت أصابع قدميه وزال الألم الذي كان يدوي بين قدميه ورجليه. حلم بحمام ساخن يغسل أوجاعه كلها، ويزيل الوجع تدريجيًا كماء في غربال؛ حبة بعد الأخرى، ويبقى خلفه جسد مدبوغ بشظايا الحفلة. لبس فردة حذائه اليمنى، وأعاد الكرّة مع الفردة اليسرى مرسلا فرقة إغاثة إلى القدم الأخرى.

تطلع إلى الفتيات الجميلات من حوله. ارخى ظهره على الكرسي، ومدد جسده كمسطرة، فأرتفع كرشه المدور كقنفذ يحتضن نفسه، أنشد قميصه حول خصريه فأصبح شكله أقرب لآلة التشيلو. بحث عن التوأمين من جهة لأخرى دون جدوى وحينها انقطع حبل أفكاره عندما سمع الأميرة امنية تطرق كأسها بشوكة تريد انتباه الجميع. اضطرت إلى إعادة الطلب مرة أخرى، فلم يسمعها الجميع من أول مرة ولم تؤخذ أمنيتها بجدية فأعارها راشد الميكرفون وقالت:

- «السكوت لو سمحتم» وهي تطرق على كأسها بحذر.

انخفض دوي الكلام تدريجيًا وتحولت الحوارات إلى مشاورات ثم دام الصمت كليًا.

- «أحببت أن اشكر والديَّ على تنظيم وترتيب الحفلة وعلى حضور أصدقائي وأصدقاء أهلي من كل جهات العالم. لقد انتهى وقت العشاء وأطلب من الجميع المناوبة بالرقص.»

لمحت الفرقة الموسيقية بطرف عينها، فبدأت الفرقة بعزف موسيقى حديثة ذات الحان سريعة، وكلمات فقاعية يعرفها صغار القوم من ضمنهم الأميرة وصديقاتها. وكان راشد في المرصاد، فما أن سمعها حتى غيّر إضاءة الصالة، فأصبحت داكنة تطفو فيها بقعة ضوء مستديرة واسعة احتوت رقعة الرقص الخشبية.

قام الخدم بإزالة ما تبقى من صحون وقوارير فارغة، وتحرك فريق التنظيف سريعًا لتوفير مساحة نظيفة للحلويات وأباريق الشاي والقهوة. تحركوا كالأشباح مندمجين بخلفية الصالة الداكنة، تاركين الضيوف ليستمتعوا بوقتهم. التف أصدقاء الأميرة حول أرضية الرقص مكونين دائرة بشرية تعج بعنفوان الشباب مصفقين بتناسق مع الحان عزفت على مسامعهم. استمر الكبار بالجلوس على موائدهم محافظين على قيم ومبادئ لقنت لهم منذُ الصغر، متجنبين الظهور بشكل محرج أمام بقية زملائهم. كانت مراسم الرقص تقتضي أن يبدأ الملك وزوجته أولًا، وقد أخذا مكانهما كالمعتاد في منتصف الدائرة، واحتضن الملك زوجته واضعًا ذراعه حول خصرها، ولفت تمارا ذراعها حول عنقه كسعفة نخلة. رقصا بوقار وبهرا الضيوف بانسجام حركاتهما وأطرافهما التي كانت تلامس بعضها الأخر في تناسق ظاهر.

وقفت امنية جانبًا، وشبكت أصابع يدها كضفيرة، مغطية فمها بدهشة امتلكت كيانها كليًا، فهي لم تر والديها يرقصان بهذه البراعة من قبل. خطوة بعد خطوة، وكلما اقترب جذعاهما من بعض افترقا بحركة مفاجئة تاركين جمهورهم الضئيل مصفقًا مطالبًا بالمزيد منهما. تحولت مشاعر الضيوف من الدهشة إلى الرهبة، عندما أدركوا أن من يرقص أمامهم زوجان احترفا الرقص معًا، إذ يحزر أحدهما حركات الآخر، وكانا يعرفان جيدًا ماذا سوف يحدث قبل عدة خطوات.

تمنت امنية لو كان باستطاعتها أن توقف الزمن متشبثة بعقارب الساعة لتضع والديها داخل كرة زجاجية لتخلد هذه الذكرى إلى الأبد. وبعد انتهائهما

من الرقص استقبلا التصفيق بسعادة وترحيب، تركا الدائرة للصغار واتجها إلى مائدة الطعام مترنحين بنشوة الحياة. رقصت امنية وصديقاتها بشغف وطرقت كعوب أحذيتهن الأرض الخشبية بضربات متناسقة قوية امتزجت مع ضجيج التصفيق وتسارع وقع أقدامهن كلما ارتفع إيقاع الألحان الموسيقية. زغردت بعض النساء الجالسات بالرغم من عدم موافقة أزواجهن اللذين عبروا عن ذلك بعقف الحاجبين أو هزة رأس نافية. اقترب ربيع من حافة الدائرة ليجد مكان استراتيجيا كي يتفرج على ما يحدث داخل دائرة الرقص، ووقعت عيناه على الأميرة عن قرب لأول مرة. استندت امنية على قدم واحدة، وبخفة نحام وردي أرادت خلع حذاءها فأرتفع فستانها وتكشفت ركبتاها، وفاحت منها رائحة التين والرمان. اختلس ربيع نظرة سريعة لباطن ساقيها البيضاوين فوجد وحمة مدورة كان قد رآها من قبل.

ساعدها رفاقها فاستندت وخلعت الحذاءين ووضعتهما جانبًا، ثم رقصت كالطاووس بكل مستطاعها كأن الليلة أخر ليلة في حياتها. كان جسدها أقرب للطين من العجين وتحكمت به كما تشاء فتلاعبت به بحركة خصر أو بهزة قدم. كانت الألحان الموسيقية أشبه بالماء الذي يضاف للطين فذاب جسدها متمايلا مع الطبل والكمان، ورقصت حافية القدمين والتصق خلخالها المصنوع من ذهب ابيض ببشرتها الزكية. رقصت بجدية كأنها في امتحان تعتمد حياتها عليه كليًا. قلدتها رفيقاتها فخلعن الأحذية ورقصن معًا تاركن العادات والتقاليد جانبًا لليلة واحدة. تعالت الأصوات مع الغناء طالبين ومستقبلين كل ما شاء من طعام وشراب. تجمع الكبار سويًا حول مائدة واحدة يتسامرون وهم يحسدون الصغار على شبابهم وطاقتهم.

تاه ربيع بجمالها، والتفت التاء المربوطة حول عنقه بأنوثة وغُرست النقطتان في جسده في آن واحد، واحدة في مخيلته والأخرى في قلبه. لو كان باستطاعته أن يضعها في قفص صدره ممسدًا على شعرها مقبلًا جسدها اللين. «هل تراني» تساءل مع نفسه «أم أنها تظن أنني مجرد خادم» بحث

عن راشد متأملًا إشارة أو علامة لبدأ المقابلة لكن الأميرة كانت مندفعة في حفلتها، وإن كان سيل العرق معيارا فأن الليلة مازالت في بداياتها.

بعد مرور نصف ساعة من الرقص المستمر، ربت راشد على كتف ربيع وقال له: «تعال معي». لحقه ربيع وقلبه يستبقه خطوًا فلقد حان الوقت وجاءت الساعة المنتظرة.

- «انتظر هنا» أشار إليه ليجلس بجوار مائدة وضعت عليها الحلوى والشاي.

راقب تحركات راشد متجها نحو الأميرة التي أخذت استراحة قصيرة بين رفيقاتها لتعوض ما خسرته من سوائل وغذاء. تكلم معها فهزت رأسها موافقة واتجها نحوه، انتصب واقفًا وعندما اقتربت منه سبح في عيونها العسلية لأيام وليال وثمل من عطرها الأنثوي. قاطع راشد هذيانه وقال:

- «الأميرة امنية، أقدم لكي الصحفي ربيع.»

مدَّ ربيع يده مرحبًا بها «مرحبا يا أميرتي» وأحنى رأسه بوقار.

- «أهلًا وسهلًا لم اعلم أن هناك شباب يعملون في الصحيفة، تخيلتها مكانا قديما ككهف تعيش فيه العناكب» ضحكا سويًا ثم قالت «هل تحب أن تسألني بعض الأسئلة يا أستاذ ربيع؟»

وعندها نزلت أول قطرة مطر على المدينة منذُ زمن طويل.

◆◆◆

سنتان على ولادة ربيع

قضت سمر يوم الجمعة مع ربيع في المنزل. اعتذرت أم فارس منهما لتعتني ببيتها وشراء المستلزمات الأسبوعية. كبر ربيع وأصبح يمشي بلا مساعدة، لكنه اشتاق لجدته في العطلة الأسبوعية ولذلك استقبلها بحرارة باحثًا عن حضنها في اليوم التالي. قامت سمر بمهمات التنظيف من مسح الأسطح الخشبية وتنظيف الأرضية. لحقها ربيع أنىّ ذهبت، مجربًا اللعب بالمكنسة مصممًا على تقليد امه. ومهما حاولت إلهاءه بألعاب أخرى كان يعود إليها مستكشفًا مكان المكنسة. بقت علاقته حميمة بالدمية التي أصبحت لا تغادر سريره على الأطلاق، وكان يحتضنها مداعبًا انفه برأسها حتى يتهاوى للنوم، وبقي رأسها الجزء الوحيد الناعم منها فلقد تغلغلت الخشونة في أنسجتها وقماشها الرث.

وقف ربيع حافي القدمين على البلاط الرخامي، منتظرًا أمه بفارغ الصبر التي خافت عليه بقلب دلو الماء الذي استخدمته لمسح الأرض فمنعته من الاقتراب منها. واعتاد على أن يُحمل ويوضع في مكانه المخصص للعب. توقع أن يلعب مع والديه، وعندما سأم الانتظار ركض على البلاط المبلل صوب أمه التي ردعته بشدة خشية عليه من الانزلاق والسقوط. كان مكانه يغص بلعب الأطفال من كتب مصورة ملونة وأقلام تلوين بكل أنواعها، كرات صغيرة بمختلف الألوان ودمى على شكل حيوانات أليفة جلست على الأرض بجواره، وضعت سمر بعض العابه المفضلة في الصندوق الأزرق الذي مازال متعلقًا به.

كان ربيع يمشي ويركض عندما يجد شجاعة كافية، جرب الوثب في بعض الأحيان، وتمتع بتسلق الأثاث والقفز عليه بلا مبالاة وعشق مصارعة الوسادات متخيلًا نفسه مصارع ثيران أو فارسا مقنعا. خافت أمه عليه من السقوط ومنعته من هذه اللعبة أيضًا لكنه كان ينجح في التسلل حينما تكون منشغلة ليلعب كما يشاء. تعلم ربيع منذ وقت مبكر أن هنالك أشياء مفيدة ومضرة للنفس. حثه أبيه على الابتعاد عن الخطر لكنه لم يصغ إليه، وأحب تجربة كل شيء بنفسه، فالدرس لا يلقن إلا عندما يمر المرء بالتجربة بنفسه. جرى على البلاط المبلل وتسلق الأثاث وعشق الخطر وضجر من الأمان والسلامة. اكتشف في يوم من الأيام أن سطعت أشعة الشمس على الأريكة التي أحب القفز عليها عدة مرات يصبح بإمكانه رؤية ذرات ضئيلة من الغبار تتطاير في كل مكان.

وهكذا قضى وقت فراغه محاولًا الإمساك بحبيبات الغبار بلا جدوى فكلما فتح قبضة يده وجدها فارغة لكن اليأس لم يدخل قلبه وجرب بلا كلل أو ملل. اكتشف انه إن أغلق عينا واحدة استطاع رؤية ألوان الطيف تنعكس على ذرات الغبار، وتمعن بهذا الجمال الخلاب بسكون. تأخر ربيع عن الكلام كبقية الأطفال في عمره لكن أم فارس ذكرت والديه بلطف انه ولد والأولاد يتأخرون عن الكلام وعليهما بالاستمرار بالحديث معه لكي يتشجع على النطق.

فتح الصندوق الأزرق، ووجد كرة زرقاء بحجم يده، صفارة، أقلام وممحاة وأحاجي لتطوير مهاراته الحركية الدقيقة وتحسين تركيزه لفترة طويلة. كانت إحدى العابه المفضلة أحجية الصورة المقطعة حيث رسمت لوحة فنية لطفل يطير طائرة ورقية في بستان، خصصت هذه الأحجية لعمره فهنالك تناسب بين الألوان الأساسية وخضار بستاني بمختلف الأظلال. قسمت الصورة إلى تسعة أجزاء منفصلة وصنعت من ورق مقوى وعلى ربيع ترتيب القطع المتباينة لتكوين اللوحة الكبيرة.

تمتع ربيع بوضع القطع الصغيرة مع بعض وامتلك صبرا وتركيزا لفتى أكبر منه عمرًا، ومع ذكاء أمه استطاع أنهاء الأحجية سريعًا. علمته أمه أن يبدأ بالزاويات السفلية ويصعد تدريجيًا حتى يصل إلى السماء الزرقاء ولديه عين ثاقبة استطاعت التفريق بين الأخضر والأزرق بمختلف ظلالهما، ولكنه لم يفقه معنى الصورة فهو لم يذهب إلى بستان أو يحلق طائرة ورقية. وبعد انتهائه من الأحجية وضع كل شيء في الصندوق العتيق.

انشغلت سمر بالتنظيف والترتيب، وبحث ربيع عن جدته في المطبخ غير أنه اعتاد على خيبة الأمل بعد عدة محاولات، لكنه فوجئ بخروج أبيه من غرفة النوم. رفع ذراعيه مناديًا «بابا!» حمله فارس وقبله من خده الناعم فخدشه بشعر لحيته المدبب وتحول مكان القبلة إلى طفح وردي. وقف فارس مستندًا على الحائط محادثًا سمر:

- «أني ذاهب لزيارة طلال يا حبيبتي» عدّل من مكان ربيع على ذراعه.
- «هل مازال في المستشفى؟» بلعت ريقها وهي تكنس.
- «نعم لقد استطاعوا إيقاف النزيف وخرج من العناية المركزة.»
- «مسكين هذا الشاب، سحقت حبيبته قلبه وبتر والده ذراعه.»

تفادى فارس الجواب ولعب ربيع بذقنه.

- «أرسل سلامي الحار إليه» ورجعت إلى ما كانت تفعله.
- «بالتأكيد.»

قرأ ربيع ملامح والده ولغة جسده، وأدرك انه ينوي الرحيل إلى مكان ما فاحتضن ساقيه ملتصقًا بهما مناديًا «بابا! بابا!» صبر فارس على ابنه، وجرب إزاحته جانبًا لكنه التف حوله كما تلتف النباتات حول ساق شجرة. نزل إلى الأرض ممسدًا شعر ابنه بلطف، وأخرج له كرة من صندوقه المفضل ليشغله. صفق ربيع وأراد اللعب فالتقط الكرة بيديه واستعد والده للهرب من البيت بعجلة. أغلق الباب خلفه وسمع صراخ ربيع طارقًا الباب بعصبية مناديًا اسمه بحنان تتوغل فيه دودة الخوف والقلق. شعر بالذنب تاركًا مهمة

إرضاء الطفل لزوجته، ولكن تأنيب الضمير لم يساوره طويلًا، إذ لسعت أشعة الشمس وجهه وسطعت على عينيه الحساستين، فوضع راحة يده المفتوحة فوق جبينه حاجبًا ما يضايقه واتجه نحو المستشفى. كان صدره يضيق كلما فكر بصديقه طلال ومعاملة والده القاسية. «تخيل أن تخسر يدك وأنت تعيش من الكتابة وتعمل في الصحيفة» تساءل مع نفسه «كيف سوف يكتب ويأكل ويستحم، يا له من حظ عاثر يا طلال كله من أجل فتاة. أنها حماقة بالفعل! لن أضحي بأصبع من أصابع يدي من اجل امرأة، حتى لو كانت أميرة الأمراء!»

اختلس نظرة إلى يديه الناعمتين اللتين لم تعرفا طعم العمل الشاق، العمل الذي كسر ظهر أبيه وهو يحرث الأرض بفأسه يوميًا. «كان عليه الاختيار جيدًا والزواج من نفس الطبقة الاجتماعية، كيف سوف يُقبل على الزواج والكل يناديه بالمعوق. هذا الرجل مسكين، ولكنه يبقى حيا يرزق على الأقل ولربما كان في موقف أسوأ لو بتروا ساقيه، فهو على الأقل يستطيع المشي والتنقل حيثما يشاء». ضرب كفيه ببعض متحسرا، وتنفس الصعداء، ولكن بسبب انشغال ذهنه في التفكير، فشل في الانتباه لرجل بدأ يلاحقه منذُ مغادرته للبيت. استمر فارس بالسير متجنبًا المطبات وسواقي المياه الآسنة، متجها نحو الجزء الغربي من المدينة حيث تقعُ المستشفى. لحقه الشبح الذي كانت تضاريسه تختبئ تحت عباءة رمادية متسترًا بالرمل والوان المدينة الصحراوية وتاركا عشرة أمتار على الأقل بينهما، وكلما توقف فارس باحثًا عن الاتجاه الصحيح للمستشفى تردد الشبح منتظرًا في صبرة وأناة.

عندما ابتعد فارس عن البيت، أصبح الشبح أكثر جرأة واقترب من فارس تدريجا حتى تلاشت المسافة بينهما. وعندما توقف فارس لشراء صحيفة اليوم من بقال ليأخذها لطلال وماء لنفسه، اقترب الرجل الملثم وناداه، ولكن في تلك اللحظة سأل فارس البقال عن الاتجاه الصحيح، فاختلط صوت الرجل الملثم ولم يسمعه فارس، وحينها قرر الرجل المثلم الاقتراب منه واضعًا يده

على كتفه. تأمل فارس وجه الرجل، ولكنه لم يتعرف عليه، وأحسّ بقبضة من حديد تطبق على صدره فسأله «من أنت؟»

دامت برهة من الصمت بينهما ورد الرجل «مرحبا يا فارس» قال الرجل معدلًا نظارته.

- «من غازي؟!»
- «هل نسيت صديقك المفضل» وفتح ذراعيه مرحبًا.
- «يا إلهي» واحتضنه فارس لكن المفاجأة تركت استقباله فاترًا.
- «لقد اشتقت إليكما، كيف حالك وكيف سمر؟ هل تزوجتها؟ حدثني عن أخباركما وما حصل منذ ثلاث سنين؟ هل مازال قيس في السجن؟»

«أين ابدأ وأين أنتهي!» تساءل فارس مع نفسه إن كان عليه أن يثق بهذا الإنسان الذي أصبح منظره أقرب لجرذ ولم يره منذ زمن بعيد، هل يخبره عن زوجته وابنه الوحيد. خاف عليهما في البداية، وزرع الشك في بلعومه مع كل جواب. أبلغه انه كان في طريقه لزيارة طلال الذي لم يتذكره جيدًا وما حصل له من مغامرات.

- «لقد اشتقت إليك ولا أريد أن أضيع لحظة واحدة، دعنا نتكلم ثم نزور طلال لاحقًا.»

تردد في البداية، وفعل عكس ما طلبت غريزته منه، لكنه قرر أن يكون مضيفا كريمًا لزميله، فعاد به إلى البيت. تمنى لو كان هناك طريقة يحذر فيها سمر ممن معه، ولسوف تتفاجأ بالفعل، فلقد تبخرت الأفكار الثورية من وجدانها، وملأت هذه الحفرة الأمومة بكل حسناتها وسيئاتها، وهل هناك مضار للأمومة تساءل مع نفسه، فهو رجل تعلم الأبوة، ولكن الأمومة تأتي للمرأة بالغريزة أما الأبوة فهي تجربة للرجل يكتسبها من تجارب الحياة.

- «أنك تلتزم الصمت هل كل شيء على ما يرام؟» تساءل غازي ماشيًا بجوار صديقه.
- «لا شيء لقد اشتقت لك، أين كنت طوال هذا الوقت؟»

- «لا تستعجل كل شيء في وقته» وتمشيا نحو بيت فارس.

وصلا إلى المنزل، وتفادى التعليق عن حال المحلة المتدهورة، ومنظر الكلاب السائبة في كل مكان. فتح فارس الباب وركض ربيع على أطراف أصابع قدميه باتجاهه وما زالت رموش عينيه ندية وتكونت واحات من الملح بجوارهما، احتضنه أبيه وقبله من عنقه الطرية التي ما زالت عطرة برائحة المولود الجديد. كانت سمر تمسح الأخشاب من الغبار في غرفة النوم ولم تكترث لدخول ربيع وضيفه. قطب ربيع حاجبيه مستغربًا من منظر غازي الذي غطى التراب معظم جسده كأنه خرج من زوبعة رملية، فشعره معفر ونظارته متسخة كبقية ملابسه التي تلطخت بالطين الناشف.

مد غازي ذراعه من تحت العباءة وفتح يده مرحبًا بالطفل، رفض ربيع السلام واحتضن أبيه بشدة. فتش غازي في جيوبه باحثًا عن شيء ما، وحينها أخرج قطعة من الحلوى غلافها أحمر وقدمها لربيع بابتسامة حلوة. اتسعت عينا الطفل وتردد في البداية ونظر لأبيه باحثًا عن علامة لكن فارس استبقه وهز برأسه موافقًا. ارتفعت معنوياته وأخذ ربيع الحلوى وحاول فتح الغلاف بالعض عليه لكن فارس استعارها للحظة وفتح الغلاف المبلل باللعاب.

وضع ربيع الحلوى في فمه المفتوح وذابت على لسانه العذري فتدفق طعم السكر ورائحة الفاكهة الصيفية وغمرا حواسه، صفق من الفرحة واختبأ خلف ساقي أبيه. تسمر ربيع ونمت جذور بين أصابع قدميه فأصبح كشجرة تين ضئيلة تبحث براعمها عن ظل أبيه. «تعال تفضل» قالها فارس مرحبًا بذراعه لصالة المعيشة ورتب بعض الوسادات على الأريكة وأرجع لعب ربيع إلى مكانها. خلع غازي عباءته وتركها بجانب الباب ثم نفض ملابسه بعناية وانتشر الغبار في بوابة البيت. سمعت سمر الأصوات المكتومة عبر الحائط وفشلت بتمييز أصوات الضيوف فاعتقدت أن أم فارس باغتتهما بزيارة في العطلة الأسبوعية.

عدلت شعرها ولبست فستانا ذا ألوان ربيعية وخرجت ببسمة حارة لاستقبال حماتها، فوجئت بالتراب على الأرض الذي امتزج بنداوة البلاط فاتخذ لون الطين، وحاولت تمييز صوت الضيف الذي كان شكله كاللغز. أسمه على طرف لسانها لكن الحروف تبعثرت في صحراء ذاكرتها، صوته مألوف وفيه نكهة الصداقة القديمة، فاقتربت بحذر من صالة المعيشة وحينها لمحت غازي وهو يلعب مع ابنها مغطيًا على أذنيه محاولًا ضرب يد ربيع أمامه.

- «سمر» قالها باستغراب ممتزجًا بحنان لأيام قديمة نُسيت عبر العصور ولم تُعد تمجد بالأغاني والقصائد، ثم أكمل:

«ابنكِ يشبهكِ للغاية» وقف مرحبًا بها «لقد تغيرتِ.»

فكرت بسرعة مارة بأصدقاء المدرسة والجامعة وانتهت بزملائها في الصحيفة.

- «إلا تتذكريني؟» ضحك ببعض من الخجل، حاول فارس مساعدتها كالعبة من غير كلام، لكن غازي سبقه معلنًا:
- «أنا غازي صديقك.»

احتفظت ملامح وجهها بنفس التعابير لكن كيانها مر بإعصار من المشاعر. توقف عقلها للحظة بعد أن تصورته ميتًا وهو حي يرزق أمامها. «أين كان طول هذا الوقت ولماذا منظره كهذا، هل كان في السجن؟» تلاطمت العواطف على ساحل هواجسها ودبت غريزة الأمومة في صدرها وخافت على ابنها منه لكن فارس كان بجواره، بدأت الأصول والتقاليد تطالبها بالرد عليه فقالت ببساطة:

- «أهلًا وسهلًا.»

جلس الجميع ولعب ربيع بصندوقه المفضل فأخرج أحجية الصورة المقطعة وطلب المساعدة من أبيه، تربع فارس على الأرض بجواره ولعبا معًا. بقت سمر صامتة وعرضت على ضيفهما مشروبا حارا لكنه طلب قدحا من

الماء البارد. تكثف عرق الماء على سطح القدح الزجاجي البارد وسال ببطء إلى القاع خالقًا حلقة من الماء على الطاولة الخشبية، جلس غازي أمام القدح كطفل معاقب لا يعرف كيف يبدأ بالكلام.

وضع ذراعيه فوق فخذيه محتضنا ركبتيه وتبللت راحة يديه بالعرق الذي يتصبب من جبينه وفروة شعره. تفادى النظر نحو سمر قدر المستطاع وسأل فارس:

- «كيف حال الصحيفة هذه الأيام؟»
- «لقد توقفت عن تسليط بقعة ضوء على النظام أو السلطة فالأخبار كلها فنية ورياضية» رد بلا مبالاة وساعد ابنه على تحريك القطع.
- «هل مازال خليل رئيس التحرير؟» رد غازي محاولًا أن يجري الحديث كنهر في ساقية يابسة.
- «نعم كما تركته.»

خيم الصمت مرة أخرى وأخذ غازي رشفة من الماء البارد، امتزجت الحلقة فأصبحت بركة من الماء تمايلت مع اهتزاز الطاولة التي أسند فارس ظهره عليها.

- «وأنتِ يا سمر كيف حالك؟ هل ما زلتي تعملين في الصحيفة؟» لعب بنظارته.
- «نعم» إجابته بثلاثة حروف ضاعفت من برودة الغرفة بعشر درجات.
- «أعلم أنكِ غاضبة مني، ولكن لم يكن لدي خيار آخر» فتح غازي الموضوع الممنوع.

لم تجبه سمر وتغاضى فارس المشاحنة متظاهرا انه مشغول مع ابنه.

- «دعوني أقصُّ عليكما ما حدث في ذلك اليوم المشؤوم، كما تعرفين فلقد خططت لكل التفاصيل بالمسطرة وحسبت حساب كل شيء وتذكري بأنها لم تكن مهمتي الأولى وكان قيس متفائلا ومتحفزا يومها فلقد أصبح لديه هدف في حياته، رغبة عارمة بالتحكم بزمام الأمور لأول

مرة فليس هنالك أب يمنعه عما يفعل أو أم تخاف عليه فتقول له أن ما يفعله حرام. وجد لنفسه حياة جديدة في حركة المعارضة، فلا يعرف المرء نفسه إلا عند مواجهة الخطر» كان رده محسوبًا وواقعيًا يتلاعب بمشاعر المستمعين.

- «وماذا حصل إذن؟ لقد رأيناك أنت وقيس ترميان الفاكهة الفاسدة» تبلل لسانها لأول مرة منذ مغادرة غرفة النوم.
- «بعد أن تنكرنا بملابس الشرطة واتخذنا مكانا على إحدى السطوح الخالية حملنا صندوقا محملا بالفواكه والخضراوات العفنة وعندما سألنا الحارس عما نحمله أخبرناه أنها ذخيرة سلاح لبقية عناصر الشرطة. وعندما رأينا الموكب الملكي يتحرك أمامنا، رمينا بقدر المستطاع محتويات الصندوق لكن الحرس الملكي كانوا لنا بالمرصاد ولحسن الحظ وبسبب ملابس التنكر كانت هناك فترة وجيزة من التخبط وحينها هربنا بعجلة والشرطة والكلاب خلفنا» أخذ رشفة من الماء وأكمل:
- «ركض قيس بشراسة لكنني كنت أسرع منه فلحقت به وغلبته بعد مسافة قصيرة، سمعنا نباح الكلاب في كل مكان وبعد أن تهنا في دهاليز الشوارع وصلنا إلى ميدان الوحدة وهناك لسوء الحظ لوى قيس كاحله فعرج لبعض أمتار قليلة لكن الألم كان اقوى من أي غريزة إمرته بالركض. جلستُ بجواره ودلكت قدمه لكن نباح الكلاب كان يقترب منا، وعندئذ طلب مني الرحيل وتركه لوحده ووعد بأن يكذب ويقول لهم بأنه المسؤول الأول عن العملية.»

نظرت إليه سمر وفمها مغلق بطريقة تدل على الشك لكن غازي أكمل:

- «حملته على ظهري لكن ثقله أبطأ من حركتنا سويًا وتوسل بأن اتركه فلقد كانت هذه العملية بالنسبة له تمرد على الحياة وكل ما تعلمه في عمره القصير. كان أصعب قرار اتخذته في حياتي إذ كان لديه إصرار وقوة كشعلة تمنيت لو كانت لدى أشخاص أخرين» ابتلع ريقه ثم سأل عن قيس لكن في صميمه كان يعرف الجواب.

- «ماذا حدث لقيس؟»
- «الإعدام شنقًا وكأن هذه الخسارة لم تكن كافية فلقد وضع الملك محل البقالة في لائحة المحلات الممنوعة مما دفع أهله للرحيل. تخيل بأن تترك قبر ابنك وحيدًا والدم ما يزال حارًا في جسده. أين العدالة في الحياة؟ أين الرب؟» نظرت سمر إلى ابنها وزوجها ودعت في صميمها بأن لا يصيبهما مكروهًا. صمت غازي ولم يعرف كيف يعبر عن مشاعره وكيف يجيب على الأسئلة، لقد كانت العملية فكرته ومسؤوليته وهو الذي اختار قيس بنفسه كرفيق ورفض اختيار فارس أو سمر.
- «وماذا حصل بعد ذلك؟» سألته سمر.
- «ركضت بكل كياني واستطعت الهرب من المدينة مع تجار مسافرين إلى مدن مجاورة وعشت كمتسول في بداية الأمر وبعدها عملت في مخبز وعشت بما كسبته من قروش.»
- «ولماذا رجعت الآن بعد هذه المدة الطويلة؟» سألته كصحفية مخضرمة.
- «هل تعرفين ماذا تحتاج النار لتعيش؟» سألها غازي.
- «زيت ليشعلها» ردت سمر باستخفاف.
- «الهواء يا سمر فالمدينة هوائي والمقاومة زيتي وأنتِ وفارس أخر ما تبقى من شعلة لتشعل النار المقاومة مرة أخرى.»
- «مستحيل لدي أبن، أنظر إليه.»

ردت سمر بعفوية ولمحت صندوقها الأزرق الذي احتوى على أحلامها المطوية، تجنب فارس الكلام فلقد كان على وشك الانتهاء من الأحجية. لم يرد غازي عليها فلقد كان يعرف جيدًا أن بإمكانك إزالة الناس من الثورة، ولكن الثورة تبقى تفوح في الهواء كالعدوى تلتهم كل من جاء في طريقها.

◆◆◆

٨

استمر الرقص والغناء حتى منتصف الليل، ولم يكترث الضيوف لهطول الأمطار على سقف القصر، بل تضخم صخب الغناء والطرب مغطيًا على قعقعة المطر. بعد انتهاء الحفلة اتجه الضيوف إلى غرفهم ليرتاحوا من صخب الليلة. كانت امنية وصديقاتها آخر من ترك صالة الحفلة واتجهن مترنحات بمختلف الاتجاهات. في اليوم التالي باشر فريق التنظيف بإزالة الزينة والديكور وكل ما له صلة بالحفلة. حُفظ الطعام الزائد في حاويات كبيرة وأرسلت إلى مراكز المشردين وملاجئ الأيتام. فلقد كانت مناسبة سعيدة ليتذوق بقية القوم ما يأكله الملوك والأميرات كل يوم.

غسل المطر أرجاء المدينة، وطافت شوارعها بمياه المجاري، وانحدرت سيول المطر على جانبي الشارع منجذبة نحو مصرف لاحتوائها. اختلطت التربة بماء السماء وفاحت منها رائحة عذبة تمتع بها الأطفال وهم يلعبون بالطين صباحًا. أخذ كل طفل غصن شجرة مكسور وأزال ما تبقى من أوراق وجذور واستخدمها كسيف ضد رفاقه، وبعد أن لعبوا المبارزة بشجاعة لا توجد الا عند الصغار، بدأ يرسمون ويكتبون بالطين. كتب بعظهم واجبهم المنزلي من الحروف ومعادلات رياضية تحسب على الأصابع ومن رسم بيت فوقه شمس وغيوم وسرب من الطيور.

اختفت الشمس خلف السحاب، مما أسبغ على السماء لونا رماديا ملطخا ببقع من الحزن في الأفق، استمر الأطفال باللعب فهم في حالة خفيفة من

الهستيريا الصامتة فلا يتذكر أحد منهم أخر مرة رأى فيها المطر والطين. كان خروج دود الأرض الوردي مفاجأة لم يتوقعها أحدًا منهم كما يخرج الساحر أرنبا من قبعة ضئيلة، تدفق الدود إلى سطح الأرض باحثًا عن تلك النداوة التي ملأت أنوف الأطفال وذكرتهم بالحنين إلى فصل الشتاء. أخذ أحدهم غصنا طريا وضرب دودة بكل قوته فتناثرت نقاط الطين عشوائيًا وألتفت الدودة حول نفسها كعقدة وسالت مادة لزجة من جسدها مختلطًا بنداوة الطين. توقف الطفل عن الضرب عندما رأى العقدة الملتوية وعلم فورًا أن الدودة تتألم من ضرباته ونبض ضميره يأنبه مانعا إياه من الاستمرار. لم يستمر ذلك الشعور فترة طويلة فلقد قاطعته ضجة المكبرات الصوتية معلنة بداية يوم جديد مما جعل الأطفال يتفرقون ويتجهون نحو ديارهم. ازدادت كثافة حبات المطر واختلط الطين بجسد الدودة الميتة فغطست واختفت تدريجيًا.

استيقظ الملك من كابوس حلّق في مخيلته ناثرًا الذعر في صدره كعاصفة رملية بعثرت غبارا في كل زوايا ذاكرته. تبخر نبيذ الليل ووجد جسده في دوران مستمر كإبرة بوصلة فقدت قطبها الشمالي. ترنح ووجد نفسه في سريره الخالي وبحث عن زوجته لكنه لم يجد منها إلا عطرها على مخدتها. عدل جلسته ووضع ظهره على لوح السرير وتنفس الصعداء وشعر بعرق صدره عندما فاحت رائحة كريهة من ملابسه فلقد غدره الكابوس مرة أخرى وهو نائم، «الكابوس؟» سألته تمارا أول مرة حينما استيقظ والعرق يصب من جبينه إلى لغده وتندى لباسه الداخلي من الحمى التي تبخرت مع الدواء وبقت خلفها آثار وخدوش على نفسيته.

- «أرى حائطا رمادي اللون أمامي، عاريا من كل التضاريس لا يوجد شيء معلقا أو مكتوبا عليه، جدارا بلا شخصية ملتصقا بجدار رمادي أخر خالقًا زاوية خالية. بدأ ورق الحائط بالتعرق رويدًا رويدًا بدون تحذير مسبق وازدادت نداوته حتى أصبح شكله مصهورا، وعندما حاولت لمسه بطرف إصبعي التصق إصبعي بلزوجته ولم أستطيع إزالتها إلا عندما مسحتها بطرف قميصي بقوة.»

- «حاول ألا تلمسه في المرة المقبلة» نصحته زوجته وهي تصبغ أظافرها.
- «ليس لدي القدرة بالتحكم بأحلامي، اسمعي هناك المزيد، وبعد أن تعبت من مسح إصبعي وتنازلت عنه وندبت حظي العاثر، ظهرت شروخ على ما تبقى من ورق الحائط. شقوق طويلة تشبه شق طبيب جراح.»
- «هل لمستها أيضًا؟» قاطعته زوجته بسؤال.

نظر سرجون إليها والغضب يتلوى في أمعائه كلهيب النار ولكنه حافظ على هدوء عواطفه وأكمل:

- «دعيني أكمل الكابوس قبل أن أنساه» فتحت تمارا فمها للحظة لكنها قررت أن تصمت وقال سرجون:
- «وعندها مر شيء أسود بين الشقوق متحركًا بخفة سريعة ومتسلقًا بينها بلا مبالاة، اقتربت قليلًا من الحائط وفاحت رائحة كريهة كلما اقتربت منه خطوة بعد أخرى، رائحة أقرب لرائحة النفايات، وعندها رأيت مخلوقًا أسود انزرعت في رأسه العديد من العيون المصقولة كالأحجار الكريمة تلمع وتعكس وجهي وجسدي بمختلف الزوايا كلما تحرك صاحبها.»
- «يا إلهي! وماذا كان هذا المخلوق؟» توقفت تمارا عن اطلاء أظافرها.
- «عنكبوت ضخم يلتوي جسده فتبرز تضاريسه خلف ورق الحائط الرمادي، ثم فتح فمه فخرجت منه عدة أسنان حادة عوجاء بمختلف الاتجاهات وداخلها فم صغير أخر يحتوي على أسنان تشبه الأولى، ولكن أصغر حجما.»
- « وماذا حصل بعد ذلك؟» بلعت ريقها والقلق ينبض في عينيها.
- «لمحت انعكاس جسدي في عيون العنكبوت العديدة وقد أصبح رماديًا من أخمص قدمي إلى بداية رقبتي، ثم نظرت إلى يدي اللتين تغير لونهما وأصبحتا رماديتين اللون. وقفت مذهولًا وحاولت بالهرب لكن العنكبوت خرج من وكره وهدم ما تبقى من جدران واقشعرت

شعيرات جسده مستعدًا للهجوم علي. فقدت صوتي والتف جسدي بلحن الهستيريا وغطيت وجهي بكفي وصرخت بقدر المستطاع لكن لساني بقي معقودًا، وهنا ينتهي الكابوس كل مرة.»

- «انه كابوس بالفعل، هل تخاف من العناكب؟»
- «لا اعتقد.»
- «ربما حدث لك شيء حين كنت صغيرًا.»
- «ربما.»

ربما هذه الكلمة التي تبتر الحوار من جهة وتبقيه مفتوحًا لمداخلات أخرى، واليوم لا يختلف عن أي يوم آخر، ويتصرم كل أسبوع على وتيرة واحدة، وحتى زوجته التي اهتمت بأحلامه توقفت عن السؤال فكلما وجدت له حلًا جزاها شاكرا، ولكنه لم يفعل شيء حيال ذلك.

- «لقد تأخر الوقت» قالها الملك ناهضا من الفراش وبدل ملابسه بلا مبالاة وقضى حاجته في الحمام.

كان على عجلة من أمره، وأراد مفاجأة امنية بهدية عيد ميلادها التي لم تسنح له الفرصة بإهدائها مساء أمس لانشغالها بالرقص مع صديقاتها.

- «سوف تطير من الفرح» قالها الملك، ولكن صوت المطر شتت أفكاره المترنحة. نزل إلى الطابق الأرضي سعيدًا بمنظر تساقط الأمطار على النوافذ وكلما هطل المطر بشدة كلما حلقت روحه عاليًا كنسر حام حول سماء المدينة باحثًا عن فريسة جذبته إلى أرض الواقع. استقبله الخدم بالترحيب وقدم إليه أحدهم قدحا من عصير الأناناس احتفالا بمكرمة السماء ورد عليه الملك والابتسامة أكبر من قوس قزح «لقد أصغى الرب لدعواتنا.»

تمشى بين دهاليز القصر يبحث عن عائلته الصغيرة فسأل إحدى الخادمات فقالت له أن الملكة في صالة الرياضة والأميرة مازالت نائمة. صفر سرجون لحنا قديما متوجها للقاء تمارا إذ أحب مفاجأتها صباح اليوم، فلقد

غسل المطر شبابيك كابوسه وحسن من حالته النفسية. التقاه الكاهن فاتحًا ذراعيه مرحبًا وقال لمولاه:

- «مبروك يا مولاي فلقد نزل الغيث.»
- «أحسنت صنعًا لقد استجاب الرب لدعواتك» تنحنح سرجون محاولا إزالة الطعم الحامض من حنجرته.
- «بالطبع يا مولاي أن إله الشمس يصغي لصلواتنا على مدار الساعة» قالها الكاهن وازدادت خشخشة خرز مسبحته مع حركة يده.
- «وهل هناك شيء أخر تود أن تستشيرني به؟» رد سرجون وبصره شارد نحو الفراغ متجنبا النظر إلى وجه الكاهن.
- «كلا يا مولاي» وتحرك الكاهن جانبًا.
- «عظيم سوف أرسل بيد راشد بعض التبرعات للمعبد» أكمل الملك خطواته بثقة نفس عالية. أحنى الكاهن رأسه احترامًا واختفى بين ظلال الممرات. ازدادت خطواته سرعة مندفعًا نحو صالة الرياضة، ولكن تمارا كانت قد انتهت من تمريناتها الرياضية فالتقته في الممر.

تمايل جسدها كبيت شعر قصيدة على قافية واحدة، محسوبا بخطواته ومتوازنا في ثقته بالنفس. انقشع التعب عن وجهها وظهرت ابتسامتها الجذابة وقالت له «صباح الخير يا مولاي.»

- «كيف صباحك يا عزيزتي» قبلها من خدها منتصبًا على أطراف أصابع قدميه.
- «لقد استيقظت على صوت تساقط المطر ولم أحب أن أضيع التمرين اليومي فأنت تعرف كم أحب التدريب في البستان، ولكن راشد اقترح الصالة الرياضية» شعرت بفخر وهي تجرب الصالة لأول مرة.
- «هل رأيتِ راشد؟ أني أبحث عنه وماذا عن امنية؟»
- «مازالت نائمة فلقد تأخرت بالسهر ليلة البارحة، قال لي أحد الخدم بأنهم رقصوا حتى منتصف الليل.»
- «أردت أن أعطيها هدية عيد ميلادها.»

- «أنها في غرفتها، ولكني أعتقد أن المطر سوف يفسد المفاجأة» قبلته واتجهت إلى الطابق الملكي.

تحرك كل منهما باتجاه معاكس، واقترب سرجون من غرفة امنية ملاحظًا الهدوء الذي خيم على الممر مما جعله يمشي على أطراف أصابعه، توقف أمام بابها منصتا، ولكنه لم يجد إلا السكون، فدق على الباب ثلاث دقات وفتح الباب برفق. تغيرت هيئة جسده من قائد إلى أب، فتحدب ظهره وتهدلت كتفاه وارتفع كرشه المدور أشبه بتل يتوسط جزيرة. وجدها كالقيثارة جالسة على كرسيها وسيقانها مضمومة رافعة رأسها تحتسي قدحا من القهوة بينما انسدلت خصائل شعرها المبلل على كتفيها.

تطلعت إلى البستان بشرود، ولم تسمع دخول والدها فكانت في حالة بين السبات واليقظة. سيطر عليها هدوء جذاب، فوضعت القدح على راحة يدها، وأمسكت به من قبضته الضئيلة، واحتست منه بانتظام، وكلما ابتلعت الشراب الدافئ لحست شفتيها بلسانها مبللة إياهما بنداوة لعابها العذري. كانت ترتدي قميص نوم حريري حليبي اللون وصل إلى فخذيها العاريين. «لقد كبرت ابنتي وأصبحت امرأة» ضحك في خلده، وتملكه شعور غريب عندما وجد جسدها يماثل جسد زوجته.

انتبه إلى العناية والنظافة في الغرفة، ولو أنه رأى الزوبعة التي مرت بها الغرفة مساء أمس من الملابس المتناثرة بين الأحذية لأعتقد انه في غرفة أخرى كليًا. عاد كل شيء إلى مكانه، الملابس في الدولاب، كتب ودفاتر على المكتب، سريرها مرتب ولا توجد ذرة من الغبار في الغرفة كلها. أما جسدها فهو الكائن الوحيد الذي دبت الحياة فيه. سمعت اقتراب خطوات والدها منها فأدارت عنقها بينما بقي جسدها مع البستان.

- «صباح الخير يا أبي» بللت شفتيها أولًا وابتسمت ثانيًا.
- «كيف حالكِ يا امنية؟» اقترب سرجون وقبلها من جبينها.
- «لم أستطيع النوم ليلة الأمس وأكمل جسدي الحفلة حتى الصباح.»

- «أن هذا الشعور طبيعي فهو يناسب عمرك.»

عدلت امنية من جلستها احترامًا، لكن غريزتها دفعت بها للوقوف والبحث عن روبها لتكتسي به، قبلت والدها من خده وفاحت منها رائحة الليمون وقالت له «شكرًا على الحفلة يا أبي لقد قضيت وقتا جميلا بالفعل.»

- «أنا أود أن أشكرك أيضا فلقد قضينا وقتا ممتعا معًا، ولكن لم يسمح لي الوقت بأن أعطيكِ هديتك.»
- «هدية؟» مر برق سريع في وجهها فلمعت عيناها.

ضحك الملك وقال لها «أنت تشبهين امكِ، تتسع عيناكِ عند سماع كلمة هدية.»

- «ارتدي ملابسك، سوف انتظركِ في صالة الضيوف، لا تتأخري.»
- «أعطني خمس دقائق لا أكثر.»
- «عظيم أراكِ لاحقًا» خرج الملك من غرفتها متجها نحو السلم لينزل إلى الطابق الأرضي، وهناك رأى راشد يصعد الدرجات ببطء وتحت إبطه ملف أسود، استقبله بحرارة الأصدقاء. تبادلا التحيات والمجاملات وعدل راشد من مكان الملف وحمله بيده.
- «ممتاز! أنا على وشك أن أفاجئ امنية بهديتها.»

ضرب كفيه معًا ثم وضع يده اليمنى على كتف راشد وأثنى عليه للجهد الشاق الذي قام به. شكره راشد الذي دبت السعادة في خطواته بعد النجاح الباهر للحفلة والذي سوف يفتح له ربما أبوابا أخرى مع العائلة الملكية. كان راشد يبحث عن الملك من اجل الاجتماع اليومي، فقال سرجون انه سوف يلتقيه في مكتبه بعد الانتهاء مع امنية فعليه بالصبر. دردشا وضحكا على هطول الأمطار وموقف الكاهن وتمنى الملك لو كان بالإمكان حل كل موقف بالعنف المفرط وأيده راشد بهزة رأس موافقا. اتجه كل منهما باتجاه فنزل سرجون متجهًا نحو صالة الضيوف وصعد راشد ما تبقى من السلالم متجهًا نحو المكتب.

تغير شكل القاعة عن مساء الأمس، فلقد أزال العمال أرض الرقص الخشبية وما جاورها من موائد ومقاعد. أصبح شكلها عاريا دون الآلات موسيقية وأجساد الضيوف التي رقصت بتناسق، وتغيرت رائحة المكان من روائح الأكل والعرق المعتق إلى روائح ربيعية وأضافت طرقات حبات المطر على سقف القصر رومانسية أنيقة، فُتحت الستائر الحمراء وظهرت نوافذ هائلة الحجم تمتد من الأرض إلى السقف أبعادها أكبر من أي إنسان، نزلت سيول المطر عليها بدون انقطاع ومع كل نهر يترسب في التربة العطشانة ازدادت فرحة الملك أضعافًا.

سمع طرقات حذائها وهي تنزل، فتنحنح مستعدا وعدل سترته مستبقًا قدومها. سبقتها رائحتها العطرة ثم دخلت إلى القاعة بخطوات متزنة لا تعكس التعب المتغلغل في باطن ساقيها. وضعت حمرة تليق بوقت الصباح وردية اللون شفافة المنظر تفوح منها رائحة الفراولة، وارتدت فستان خريفيا مندمجًا بألوان البستان. فردت كتفيها واندفع ثدياها إلى الأمام مما أوحى بتحدب فاتن في صدرها ووجد في طرقات حذائها حزما ومسؤولية لا تجدها عند بقية بنات المدينة.

رفعت شعرها ولفته حول رأسها كزهرة أنيقة وسحبت ما تبقى منه وراء أذنها وجعلت من شكلها المألوف جذابا. لمعت دبابيس الشعر مع أقراط الماس التي جذبت النظر إلى عنقها الطويلة التي برزت على سطحها شرايين ضئيلة منحتها أنوثة لا تقاس بمقياس.

- «تعالي، قفي هنا» رحب بها الملك بذراعه الأيمن.

وقفت امنية وأثنت رأسها جانبًا بدرجة دلت على الحياء فكانت في صحبة والدها خارج عالمهما الخاص. اندفع سرجون بسرعة أقرب للقفز باتجاه الستارة المغلقة وقال لأمنية «أغلقي عينيك رجاء.»

استسلمت بسرعة وأغلقت عينيها وضغطت على جفنيها وأضراسها بقوة فلم تكن تحبذ هذه اللعبة حتى عندما كانت صبية. مال خصرها يمينًا وانعكف رأسها يسارًا فرفض جسدها وقبل عقلها في آن واحد. فتح الملك الستارة الطويلة بعد عدة محاولات وعقفها جانبًا ثم وقف بجوار ابنته مستعدًا للمفاجأة. انثال المطر على الزجاج بتواصل بدون بداية أو نهاية، وتحركت الأشجار مع أغصانها مشوشة بدوامة الريح مما أعطى العاصفة نكهة العنف التي مرت على القصر وما دار حوله. صرخ صرير الريح عبر الجدران السميكة والتفت الرهبة حول عنقها وشعرت بأصابع الملك البدينة تداعب يدها وقال لها «افتحي عينيكِ.»

لم تدرك ماذا تغير في البداية، فالضوء القادم من النافذة اتعب نظرها وتعكر مزاجها قليلًا فمازال جسدها نائما بعد حفلة الأمس، ولكنها لم تجد ما كانت تبحث عنه. «اقتربي من النافذة» تقدما معًا ووقفا بجانب الزجاج البارد وترك تنفسها دائرة ضبابية دافئة تبخرت تدريجيًا عكست مشاعر والدها. فوجئت عندما رأت مسبحا طفح الماء من زواياه واخترق المطر سطحه الهادئ، زرعت بعض الأشجار بجانبه ليستريح الضيوف في ظلها، لكن الريح حملت الأوراق الخريفية المتساقطة إلى المسبح، وهناك بجوار المسبح، سقطت مظلة حمراء مستسلمة للعاصفة. كان المنظر عكس ما حلم به الملك وراشد عندما اختارا الهدية، فلقد صُمّم المسبح ليتلألأ الماء مع أشعة الشمس الحمراء، ويتداخل ظل المظلة بظلال الأشجار المجاورة بانسجام. صدمت امنية من المنظر التعيس لكنها وبحنكة تستبق عمرها جاملت والدها وشكرته بقبلات مصطنعة. قال لها الملك «لقد كتبنا أسمك على قاع المسبح بالفسيفساء واستخدمنا بلاطًا مزخرفًا.»

- «سوف أنتظر يوم مشمسًا حتى أجربه يا أبي.»
- «بالتأكيد! لقد هطل المطر أمس مع الأسف» قالها نادمًا وكره الكاهن وصلواته!

تطلعا إلى المشهد التراجيدي، ولعن سرجون حظه العاثر، وحينها تذكر موعده مع راشد فأستأذن من الأميرة التي شكرته مرة أخرى بنفس درجة الحماس. تفرجت على المطر يكسر سطح الماء بعشوائية، وحفيف العاصفة وهو يرتطم بأشجار النخيل والزيتون. تركها متجها إلى مكتبه قافزًا درجات السلم بعجلة وشعر بشد عضلي في ساقيه وهو يدخل المكتب. وجد راشد واقفًا تتلاعب أصابعه بالشق المحفور في الطاولة فابتسم له وجلس على مقعد مجاور.

- «هل هناك شيء مهم في تقرير اليوم؟» سأل الملك والعطش يدفع به ليشرب شيئا قويا لكن عزيمته كانت اقوى فتساوم مع نفسه وأخذ قدحا من الماء وعرض على مستشاره قدحا أخر فأخذه منه شاكرا.
- «تناقشنا قبل الحفلة بأسبوعين عن احتمال وجود خلية جديدة للمقاومة وحينها قلت لك أني في انتظار تقرير.»

أخرج بعض الأوراق من ملف ووضعها أمام الملك. لم يتذكر سرجون ذلك اليوم بالتحديد، فلقد مرت عدة مقاومات في عهده وربما كانت ذاكرته مفعمة بضباب النبيذ. غمغم وأخذ الأوراق ووضعها أمامه وقال «هل نحتاج لاستئصال السرطان قبل أن يتنشر في كل مكان؟»

تجنب راشد الابتسام فلقد سمع هذا التشبيه من قبل وقال «لقد طلبت من منتسبينا تعجيل الأمور وجلب أسماء محددة لي.»

- «ممتاز لقد نشف الدم والزيت فصدئت المقصلة. أعلمني بما يحصل مساءً.»
- «نعم سيدي.»

◆◆◆

جلس ربيع في مكتب رئيس التحرير ليخبره بما حصل مساء أمس، فلقد انتهى من كتابة تقرير كامل عن أحداث الحفلة، وتمعن في نصه ونقحه عدة مرات. انشغل خليل بالطباعة وتدلى قلم رصاص قصير مبتور النهاية من زاوية فمه الناشفة. تجمع الزبد على زوايا شفتيه كترسبات ملحية مما دفعه لمسحها بسبابته وإبهامه بطريقة لا إرادية. ضرب أحرف آلة الطباعة بشراسة منفعلة ودوت جلجلتها عبر دهاليز الصحيفة الضيقة. ارتفع رأس قلم الرصاص ونزل مع كل كلمة تتهجى واستدار يمينًا ويسارًا كعصا لمايسترو تأمر أصابعه بالعزف.

امتلأ المكتب بأقداح بمختلف الأشكال بعضها فارغ والأخرى سكنتها سوائل تتراوح بين سواد الشاي ورغوة القهوة. تركت الأقداح هالات على سطح المكتب مما أعطاه مظهرا جذابا دلَّ على انشغال صاحبه وانهماكه في العمل. تسكعت نملة وحيدة بين البقع تبحث عن طعام أو سائل فيه نكهة السكر ووجدت لنفسها بقعة بنية اللون ارتاحت بجانبها. دخل فوزي يحمل صينية عليها قدح من الماء البارد ووضعه على المكتب بصمت وخرج مبتسمًا ابتسامة خبيثة نحو ربيع. عرق زجاج القدح وسال ما تبقى من الماء على سطح المكتب المصقول، أخذ خليل رشفة سريعة وأعاد القدح إلى مكانه.

انتصبت مروحة كهربائية كفزاعة طيور في الزاوية المقابلة لربيع تحركت من جانب لأخر بتمهل، وتدفق هواء حار منها لاسعا كل من جاء في طريقها. ارتعشت زوايا الصحف المفتوحة على الطاولة محاولة الهرب، لكن خليل قيدها بأقلام ودباسات وكل ما تواجد أمامه من القرطاسية. ملّ ربيع من الانتظار وفشل بالبحث عن علامة ترشده بأن خليل على وشك الانتهاء من طباعته فوقف واتجه نحو الحائط الذي امتلأ بصور قديمة للكادر الصحفي. وجد صورة للكادر الحالي بسهولة فوجد نفسه واقفًا في الصف الخلفي مرتديًا قميصا ذا كمين طويلين ووجد فوزي واقفا جانبًا محتضنا صينيته الفضية.

بحث عن طلال وخليل بفضول فوجدهما جالسين بجانب بعض في الصف الأمامي وباشر بالبحث عنهما في بقية الصور متحركًا رويدا عبر العقود.

تغيرت ألوان الصور وجودة الورق وانعقفت الزوايا وذابت الألوان كلما ابتعد عن السنة الحالية وأصبح معظمها بالأبيض والأسود. أصبح البحث عنهما كلعبة مسلية ملابس مختلفة وقصات شعر عجيبة، تغير معظم الكادر الصحفي عبر السنين، ولم يكن هناك شيء ثابت إلا رئيس التحرير ورفيقه طلال. تاه ربيع في شريط الصور ونسى نفسه كليًا متجاهلًا طرقات مفاتيح الطباعة وطنين المروحة الهوائية، وضع يده على إحدى الصور القديمة وداعب بسبابة إصبعه وجهين لرجل وامرأة ازدادا جمالًا بتناسق الأبيض مع الأسود. كان شكلهما مألوفا لقلبه لكن عقله لم يجد لهما حيزا في مخيلته التي امتلأت بالدخان لاسيما في مرحلة الطفولة.

- «لقد أُعجب المندوب الملكي بمهاراتك الصحفية» قالها خليل ولم يرفع نظره عن الطابعة. سقطت الكلمات على أذني ربيع بنعومة القطن متمايلًا في مهب الريح ثم أكمل والقلم يميل من زاوية فمه «أحسنت صنعًا لقد قرأت مقالك ولم أجد فيه عيبا واحدًا.»
- «شكرًا» استدار ربيع وواجه رئيس التحرير.

خلع نظارته ورماها بلا مبالاة على الطاولة ثم لحقها قلم الرصاص، عدل جلسته وسأل ربيع «ما رأيك الشخصي بالأميرة؟»

رقصت حروف اسمها على نبضات قلبه ونشف لسانه وهو يصطنع الكذب:

- «من الأميرة امنية؟ أنها جميلة لكن الملكة أجمل منها.»
- «وكيف وجدت طموحاتها؟ أنها سوف تصبح الملكة بعد وفاة الملك سرجون بعد عمر طويل بالطبع.»
- «تعشق شعبها بطريقة غير طبيعية وسألتني عن طموحاتي الشخصية فقلت لها أود أن أصبح صحفيًا ناجحا، فأثنت علي وشجعتني على

المتابعة والدراسة وقالت لي أني ولدت لهذه الوظيفة. سألتها ماذا تفعل في وقت فراغها وردت بأنها تحب القراءة والفروسية وتحلم بأن تعيش في مدينة تتجانس فيها كل شرائح المجتمع.»

- «هل سألتها عن دور الأيتام؟» أخذ خليل رشفة من قدح الماء وبلل شفتيه بلطعهما فذاب الزبد المتصلب.
- «بالطبع وكان جوابها مفصلا فلقد رتبت أن تذهب بقايا الطعام إلى بيوت الفقراء والأيتام وتبرعت بمبلغ رمزي لشراء ألعاب جديدة وتعهد الملك سرجون بنفسه بتوفير كل مستلزماتهم الدراسية.»
- «عظيم سوف أرسل مقالك إلى المطبعة حالًا فالملك ينتظر صحيفة اليوم بفارغ الصبر.»

سيطر هطول الأمطار على جو البناية، واشتدت كثافته، وغرق كل نقاش دار في الصحيفة على هديره، واضطر الجميع لرفع أصواتهم. استأذن ربيع من رئيس التحرير بالمغادرة إذ أن عليه أن يلتقي طلال لتحضير الكلمات المتقاطعة لعدد الغد. أشر خليل مودعًا ولبس نظارته ورجع يطرق آلة الطباعة بقوة متجاهلًا كل ما يدور حوله. تمشى ربيع بين الممرات قارعا على الجدران المجاورة بلحن يناسب إيقاع المطر. شعر بفخر لإنجازه المهمة الشاقة التي أُوكلت إليه، واثبت جدارته لرئيس التحرير، تغيرت خطواته وأصبح فيها ثقة بالنفس، وشعر لأول مرة بتحوله من صبي إلى رجل يُعتمد عليه، ربما سوف يصلح ليصبح رب عائلة في يوم من الأيام، لكن اليوم يومه فهو أمير الشعب وفارس الصحيفة، عدل شعره براحة يده وبحث عن زميل ليحدثه عن مغامراته الملكية.

«كيف أصبحتِ يا أميرة قلبي وملكة جسدي» ضحك ربيع مع نفسه وانبسطت ابتسامة كبيرة على وجهه فازدادت وسامته بنصف ملعقة من السكر. غسل المطر زجاج البناية من ترسبات التراب، وهبط هدوء غير طبيعي داخل الصحيفة، تساءل ربيع أين بقية زملائه فوجد جميع الحجرات

خالية وعج سقفها بالدخان، وانتظرت الآلات الطابعة أن تطرق مفاتيحها بفارغ الصبر.

حفرت خيبة الأمل شرخا صغيرا في ثقته بنفسه، وتغلغلت رويدا حتى سلبت ربيع من آماله وأمنياته، وعادت مشيته خجلى كما اعتاد الجميع عليها. دخل إلى مكتبه العاري فوجد طاولته الباردة وعليها آلة طباعة وحيدة. اشتاق إلى مغامرة الحفلة واختلاطه بمختلف شرائح المجتمع، ظهرت صورة امنية في مخيلته كزهرة تفتح أوراقها على ندى الصباح، تذكر عطرها اللذيذ ورقة صوتها وتلك اليد الناعمة التي احتضنها كحمامة وضغط عليها برفق.

«كان يجب ألا أغسل يدي حتى يبقى عطرها معي» ضحك ربيع في هاجسه مداعبا مفاتيح الآلة بأنامل أصابعه، لكن سبابته خانته وتحركت من حرف الألف مارًا بالميم وإلى النون ثم الياء منتهيًا بالتاء المربوطة. «امنية، امنية» نبض قلبه بحروفها الأنثوية واحدة بعد الأخرى، مترنحا بين تعرجاتها ومتعبدا بين نقاطها. سرقت جزءا ضئيلا من بادية مخيلته كشعلة نار ينظر إليها العاشق من بعيد ولا يمكنه تفادي وهجها فالنار والإنسان يذهبان كفا بكف، أما الحب فهو كالماء عنصر جوهري للحياة. فكيف ينسى أميرة المدينة وملكة المستقبل، حامية الضعفاء وأم الأيتام.

دخل الفَرّاش حاملًا كأسا من الماء البارد وقدحا من الشاي على صينية، ولمح ربيع ابتسامته المشروخة. فقد فوزي بعض أسنانه الأمامية عبر الزمن ولم يبال بعلاجها فتركت فراغًا موحشًا بين لثته وبقية أسنانه الصفراء مما جعل ابتسامته تفقد معناها.

- «جو تعيس بالفعل يا أستاذ ربيع» وضع ما حمله على الطاولة.
- «كيف حالك اليوم؟» سأله ربيع بمودة.
- «لدي وجع مزمن في باطن قدمي يشبه طعنة الخنجر أما ركبتاي فلذلك قصة أخرى» جلس فوزي على كرسي مقابل مكتب ربيع مستجيبًا لضيافة زميله.

- «عليك بمراجعة الطبيب يا عمي فالمشاكل الصحية لا تحل نفسها» أخذ ربيع رشفة من الماء البارد ولطع شفتيه بنداوة رحبت بها شفتيه ثم أكمل «لقد فاتتك حفلة الأمس» قالها نافشًا ريشه كالطاووس.
- «أخبرني بما حدث؟ كيف حال العائلة؟ هل كان الطعام لذيذًا؟» تقدم فوزي في جلسته وانحنى متشوقًا.

بدأ ربيع الكلام بطريقة اعتيادية كأنه قد ذهب إلى العديد من الحفلات في مشوار حياته وأزال تكرار القصة جزءا من بريقها وخفض من قيمتها، لكن ربيع قدم مشاهد الحفلة كحكواتي قدير وكلما وصل إلى جزء مشوق أخذ رشفة من الشاي ومطَّ شفتيه لثانية ثم أكمل الكلام. شعت عينا الفَرّاش عندما جاءت سيرة النساء والطعام فلم يفقد ملذة الشهوات حتى بعد عمر طويل وسأل عن فساتين النساء وأجسادهن كما يسأل الطباخ عن أفخاذ الدجاج وأنواع الكباب، طويلة أم قصيرة، نهداها ضخمان أم ضئيلان، تكررت هذه الأسئلة كلما ذكر ربيع اسما لفتاة.

شعر ربيع بالغيرة على الأميرة امنية فتجنب سيرتها إطلاقًا وتفادى الموضوع كما يتجنب الغواص سمك القرش. لكن فوزي رغمًا عن سنه لم يكن غبيا فسأل ربيع:

- «دعنا نذهب للموضوع الرئيس يا عزيزي، كيف كانت الأميرة امنية؟»
- «في الحقيقة وانا لا أحب المجاملة ذات شخصية رائعة» رد ربيع متجنبًا الدخول في التفاصيل لكن الفَرّاش استمر بالتحقيق.
- «وكيف كان شكلها؟ لم ارها منذُ زمن طويل لابد أنها فاتنة الجمال.»
- «بالتأكيد أنها في أحلى مراحل حياتها ولديها ضحكة عفوية مُلأت بأنوثة رقيقة.»
- «تعرف يا ابني أن الجمال الداخلي والأخلاق مهما أيضًا» قالها فوزي مصطنعا التواضع ووجد أن جر الكلام من لسان صديقه أمرا متعبا.
- «أن جمالها الداخلي ينعكس خارجًا، فهي جميلة شكلًا وأخلاقًا.»

- «هل تعلم أن هناك فرق بين المرأة الجذابة والجميلة، لن تعرف هذا الفرق حتى تدخل في عقدك السادس.»
- «وما هو الفرق يا عم؟» تساءل ربيع بفضول.
- « المرأة الجذابة هي تلك الأنثى التي تكون جذابة في شبابها ثم تتلاشى هذه الجاذبية في كبرها، أما الجميلة فهي تلك المرأة التي لا تشيخ أبدًا وتبقى أنيقة خلال حياتها» قالها فوزي بندم فلقد دفع ثمن هذه الحكمة غاليًا. ثم أكمل «عذرًا لقد تأخرت سوف أتركك ترجع إلى عملك» أخذ الصينية معه واتجه إلى الخارج.
- «مع السلامة يا عمي، سوف أخبرك عما وجدت من فواكه في المرة القادمة» قالها ربيع وقلبه سعيد بالحفاظ على سر امنية داخل صدره.

خرج فوزي وترك الباب مفتوحا على مصراعيه، تمدد ربيع على كرسيه مستمتعًا بصوت حبات المطر وهي تطرق سقف البناية بإيقاع يزيد من شجون الإنسان. «هل هناك شيء أحلى من الحب في الخريف» تساءل ربيع في خلده وأضاءت صورة امنية وهي ترقص حافية القدمين في مخيلته، كل هزة من خصرها وكل خصلة من شعرها وهي تتلاعب مع الموسيقى الصاخبة لها صدى مكهرب يتردد في كيانه. «هل أنا معجب فقط أم أنا أحبها وكيف افرق بينهما يا إلهي أم انه غباء ملفوف بعنفوان الشباب» غمغم ربيع مغلقًا عينيه بسبابته وإبهامه. ضغط على جفنيه وشعر براحة فورية وتلاشت من مخيلته ولم يبق إلا خيالها يرقص متلاشيًا في الظلام.

«أشعر بأني كشجرة تساقط ورقها الأصفر مع النسيم فأصبحت عاري الأغصان أبحث عن حب جديد يوّلد لدي مشاعر حميمة فترتوي عواطفي من بئر الحب حتى اثمل وتخضرُّ أغصاني بأوراق ربيعية خضراء تتمايل مع نسمات فؤادي. هل تصدقيني أن قلت إن حبي لكِ كشلال يصب في شراييني، بلا بداية وبلا نهاية، ألا تسمعين صراخي وانا أقول لكِ احبك، احبكِ عبر هدير الحب، انصتي جيدًا وعندئذ سوف تعلمين أن حبي لكِ ليس كحب المراهقين

يخلق صباحًا ويتبخر مساء، بل كرجل يريد أن يرى الشمس تسطع في سمائه كل يوم، هكذا أريدك، معي إلى نهاية المشوار.»

ردد ربيع الكلمات مع نفسه، وقرر أن يكتب رسالة للأميرة حتى يشكرها لما قامت به، وتخيل نفسه يطرق مفاتيح آلة الطباعة بعنفوان، وهناك بين نوبات هذيان الحب، سمع الباب يُطرق بوقار. فتح عينيه فوجد طلال يدخل مكتبه حاملًا عواطفه الأليفة مرتسمة على وجهه وجلس على الكرسي. تنقل طلال بين غرف الصحيفة بسكون كأنه يحلق على بساط ريح، يتجول ويمازحُ الموظفين فكأن لديه صلاحية تامة تشبه سلطة رئيس التحرير. أستقبل ربيع معلمه بسلام وسأله إن كان يريد مشروبا ساخنا أم باردا فشكره طلال وقال:

- «كيف وجدت حفلة الأمس؟ لقد قرأت مقالك! لديك موهبة في الكتابة» حك طلال يده المبتورة بعفوية واسترخى جسده وتهدل كتفاه.
- «دعني أكون صريحًا معك، لقد استمتعت للغاية فلم أعهد صحبة الأثرياء من قبل» تكلم ربيع بصدق فلاحظ أن في وجه طلال سمات أبوية كان يبحث عنها طوال حياته جعلته يتحدث من أعماق القلب.
- «كيف وجدت العائلة الملكية؟ لقد ذكر المستشار الملكي راشد رئيس التحرير بأن هناك احتكاك وتوتر بين الملكة تمارا والملكة الأم» تداول طلال أسرار العائلة كما يقدم العلكة لصديقه بلا مبالاة.
- «بصراحة لم انتبه لشيء كهذا، ولكن الأكل والموسيقى كانا من كوكب أخر» تفادى ربيع الكلام عن الفتيات مع معلمه بأي شكل لكن طلال كان له هم آخر:
- «وكيف وجدت امنية؟ سمعت أنها أجملُ من أمها.»

توغل الخجل في صلبه فاحمرت وجنتاه، وتضخم لسانه فملأ فمه وضغط على أسنانه. وضع يديه في قعر جيوبه باحثا عن برودة تقلل من العرق الذي كان ينضح من راحتيه، لكنه تفاجئ بوجود ورقة ضئيلة الحجم فأخرجها

من جيبه وبرمشة عين لمح ألوانها وعرف أنها بطاقة اليانصيب التي حشرها في جيب السروال صباح اليوم. خاف أن تغسل جدته ملابس الحفلة، ففرغ كل محتويات جيوب الملابس البيضاء تحسبًا. وضع البطاقة على الطاولة ورد على طلال:

- «أعتقد أنها سوف تصبح ملكة ممتازة في يوم من الأيام.»
- «ولهذا جئت لزيارتك اليوم، أريد أن أتكلم معك عن المستقبل.»

لم يفهم ربيع بالضبط عماذا سوف يتكلم معلمه. في البداية أعتقد انه يتحدث عن التقاعد وتسليم تصميم الكلمات المتقاطعة إليه فهز رأسه موافقًا. عمَّ السكون لبرهة مرت على ربيع كسنين شعر خلالها بأن حياته تتبخر أمامه وقبل أن يفتح فمه دخل فوزي بغتة.

- «هل أنتما بحاجة إلى شاي أم قهوة؟» طرق على الصينية بأطراف أصابعه محاكيا لحنا قديما.
- «يمكنك أخذ الأقداح الفارغة» أشر طلال إلى الطاولة ونظر ربيع بصمت.

انتظرا الفَرّاش وهو يمسح الطاولة بفارغ الصبر وحمل الأقداح متجهًا نحو الباب، وحينها طلب طلال منه أغلاق الباب خلفه فرد فوزي «كما تأمر» وخرج من الغرفة. أصغى طلال لوقع الخطوات خارج الباب لبعض ثوان وعندما غمره الأمان الذي تبع السكون سأل:

- «هل تتذكر والديك جيدًا؟»

لم تتغير ملامح وجهه وهو يسأل السؤال فكان متحكمًا بكل شيء، أما ربيع فلقد راوده القلق في اللحظة التي أغلق فوزي الباب خلفه، كيف يجيب على هذا السؤال وهو لا يتذكر شكلهما، بل حتى أسمائهما التي تبددت في طين ذاكرته.

- «هل تعرف أين كانا يعملان؟»

سأل سؤالا أخر ببرودة أعصاب لكن تأثيره كان أشبه بضربة مطرقة حديدية هزت كيانه. «أين كانا يعملان؟ كيف أجيب على هذا السؤال وانا لا أتذكر لون عينيهما أو نغمات ضحكاتهما، كيف أجيب على هذا السؤال وانا شجرة بلا جذور» مر إعصار بعثر هواجسه في كل زاوية وجدت نفسه فيها ظل أمان. تلعثم ورد:

- «بصراحة لا اعرف» قالها مترددًا.

سكت طلال وانحنى متقربًا مضيفا شعورا بالسرية على ما سوف يقوله:

- «لقد كانا يعملان هنا، فارس وسمر، والداك هل تعلم بذلك؟»
- «كلا لقد قالت جدتي أن والدي كان كاتبًا، سألتها عندما وجدت آلة طباعة قديمة تراكم الغبار على مفاتيحها، أما أمي فقالت يومها أنها ربة بيت» رد ربيع محاولًا استرجاع ذكريات اندثرت مع رياح الزمن كحبات رمل على ساحل شاطئ.
- «كان والداك من أفضل الصحفيين الذين عملوا هنا قبل أكثر من عقدين، ولكن شغفهما الأول والأخير كان مقاومة العائلة الملكية، بدأ الأمر بكتابة مقالات معارضة تحت أسماء مستعارة ثم انضما إلى حركة المقاومة سويًا. كنا نعمل تحت سقف واحد لكن ميولي كانت نحو الأحاجي والكلمات المتقاطعة حتى جاء يوم بتر يدي، وعندئذ قررت العمل على تغيير القانون والسلطة، تكلمت مع والديك فحثاني على الانضمام لصفوفهم لتغيير الحكم وإرجاع ميزان العدالة لمكانه. أريد أن أتكلم معك بهذا الموضوع، أود أن تأتي معي الليلة للقاء أشخاص كرسوا حياتهم لمحاربة العائلة.»

شعر ربيع بضيق في النفس، وفتح بعض أزرار قميصه ودلك صدره معتقدًا انه يفرك قلبه من الحسرة ثم قال:

- «اعذرني لكن جدتي تنتظرني الليلة حتى أخبرها بما حدث في الحفلة فلم أرها منذ الصباح.»

- «أذهب إلى بيتك وتعشى مع جدتك ثم تعال إلى بيتي، تعال وأشرب الشاي معنا» قاطعه طلال.

فكر ربيع وأستسهل الموضوع فماذا يمكن أن يحدث بلقائه بعدد من زملاء معلمه، ربما يستطيع تكوين صداقات جديدة، ولكن دودة الشك حفرت في هواجسه:

- «سوف أراك الليلة» سلم على معلمه وارتاح لابتسامة طلال العفوية.
- «أحسنت هيا دعنا نرتب أحجية الغد.»

بدأ الضباب بالانقشاع وذاب الجليد تدريجيًا، ظهرت شروخ تمتد على طول كيانه تذكره بالماضي، من هم أهله وما هو مركزه الحقيقي في المجتمع، يتيم وفقير يا لها من رمية لنرد الحياة. تساءل مع نفسه حين كان يافعًا، ولكن الآن فأن كل ما يدور في خلده هو: «كيف نسيت الماضي والماضي محفور على جسدي»

◆◆◆

ثلاث سنوات على ولادة ربيع

دقت الساعة واحدة ظهرًا وبثت المكبرات القواعد والقوانين المعتادة في كل أرجاء المدينة. احتقنت السماء عند الأفق، واختفى قرص الشمس خلف غيوم وضباب كثيف، وهبت ريح حارة لاذعة فأحتمى كل من كان في الصحراء بظل نخلة أو بناية. ترك النخيل ظلالا على الأرض تشبه أوضاع البشر: رؤوس مطأطأة وظهور محدبة مدفونة تحت غبار الحياة. كبر ربيع وأصبح طفلا متعلقًا بجدته بسبب غياب والديه عنه لانشغالهما بمعضلات الحياة، تكلم كثيرًا وفضل الركض عن المشي مما أدى إلى إصابته بخدوش بين حين وآخر. عشق الاستماع لجدته وهي تتلو عليه قصصا أبطالها حيوانات وسحرة وكانت كل قصة تنتهي بفوز البطل وانتصار الحق على الباطل.

غنت جدته أغاني ذكرته بحنان الأم ومحبة الأب خلال تناول الطعام فصفق ربيع معها وضرب صحنه بالملعقة طالبًا منها الإعادة مرة تلو أخرى. تمشى بين دهاليز البيت وبيده خيارة ضغط عليها بين أسنانه اللبنية ونقب بين آثار البيت عن مغامرة ليخوضها. دفعت به مخيلته لخلق تنين من ظلال الستائر المنسدلة ومحاربته حتى ينقذ الأميرة المسجونة مستعيرًا إحدى معالق الطبخ من جدته مستخدما إياها كسيف ليحارب المخلوقات التي تتقافز على الجدران.

أصبح والديه بالنسبة له ضيوفا يراهما في نهاية اليوم لنصف ساعة فقط ثم يُترك في فراشه مع الدمى لينام، لكن التعب كان يفشل بالسيطرة عليه ولم يغلبه ولو لمرة واحدة. كان يتقلب في فراشه لعدة ساعات ويدخل لياليه كقرصان في ليلة وعلي بابا في الأخرى. عاش كل قصص جدته مستعملا فراشه

كبساط ريح منقذًا الأميرة من قبضة عدو شرير أو كسفينة يطوف بها بحار العالم باحثًا عن كنز من الذهب. وبعد كل مغامرة كان يخبأ رأسه بين مخدته الصغيرة ولحافه الأزرق محتميًا من خيالاته وينام كالفارس على جنبه ويده على دميته دمنة.

بقي صندوق أمه الأزرق في صالة المعيشة مع بقية العابه التي تغيرت بين حين وآخر ووضعت سمر صورا عائلية فيه: فارس حاملًا ابنه على كتفه، وربيع محتميًا بعنق أبيه، سمر نائمة على ظهرها وربيع مستلق فوقها، صورة لجدته وهي تعجن ويديها ملطختين بالطحين وربيع يضحك وفمه ابيض. تناثرت الصور حول الصالة كل يوم كبقية العابه من دمى وحيوانات اصطناعية، وكانت جدته ترتب البيت قبل خروجها مساء كل يوم. لم يبال ربيع بعدم وجود والديه إذ عوضت جدته عنهما بالقبل وأعدت ما يشتهي من كعكات وحلوى. انتبهت سمر لتعلق ابنها بجدته، فشعرت بالأمان عليه، فلقد التزمت بقضاء عدة ساعات خارج المنزل بعد أن أقنعها غازي بالرجوع إلى المقاومة. احتاج غازي لنصف ساعة فقط ليذكر زميلته بالمجازر والجرائم التي ارتكبت من قبل الحكومة ضد الشعب وان بقاءها في البيت لتربية طفلها سوف يسلب المعارضة رمزها الأنثوي والمدافع الرئيسي عن حقوق المرأة فتقلدها بقية النساء والفتيات ويصبحن سجينات البيت. «لقد حانت فرصتك الآن» قال لها ذلك قبل سنة في منزلهما قبل مغادرته في تلك الليلة تاركا القرار لسمر وفارس.

لفحت الشمس الحمراء ما ظهر من وجه سمر الحنطي وطفت تجاعيد ضئيلة حول جفنيها دلت على الضحك والفرحة التي ولدت مع طفلها. جثمت بجوار حائط واستنشقت رائحة التراب في الهواء، كان من المستحيل رؤية السماء الزرقاء التي لونت بفرشاة حمراء. تطايرت الرمال في كل اتجاه، ووجد النسيم لهُ بيتًا، ولكنها استعدت بكفاءة فلفت رأسها بكوفية غطت وجهها بالكامل وحجبت معظم ملامحها إلا القليل من حاجبيها وعيونها

الفاتنة. ازداد جمالها وبين ضفاف جفونها ترنحت رموشها كسنابل ذهبية ليغرق حبيبها في دوامة بؤبؤ عينيها. تذكرت تلك الليلة التي قضتها تناقش فارس بعودتهما إلى حركة المقاومة وكيف منعها بشراسة من الاشتراك بأية عملية، «أليست الأمومة كافية؟» رنت كلماته في أذنها وهي تنتظر خروج الشرطة من مكتبهم لاقتناص وجبة الغذاء.

- «أن الأمومة ليست قدر كل النساء وغازي محق في رأيه! أريد أن أصبح قدوة لبقية النساء المضطهدات» ردت عليه وقد اتخذت قرارًا لن تتراجع عنه.
- «وماذا عن ربيع هل تبقى أمي تربيه؟ ألا يحتاج لأم وأب، أريد أن أعيش لأرى نجاح ابني في حياته وربما يتزوج ويحصل على وظيفة يرتزق منها. لقد كبرت وتعبت من الاختباء بين الأحراش والعيش في رعب دائم، ألا تعرفين ماذا سوف يفعلون بنا إن قبضوا علينا؟ هل تريدين لربيع أن يصبح يتيمًا؟»
- «أسئلة سليمة، ولكني أحارب لمستقبل ربيع، لمستقبل مزهر حتى يستطيع قراءة الكتاب الذي يرغب به بلا رقيب، ولديه قائد يدافع عنه وعن مصالحه، أريد رئيسا من الشعب. لقد ذقنا اليابس والمر ولا أريد أن احكم من قبل ملك من ورق لا يتذكر شعبه إلا في المآسي. يمكنك البقاء مع ربيع وأمك لتعيش حياة مسالمة، ولكنها ليست حياة بل سراب تعدو خلفه حتى الموت.»

وضعت القرار بين يديه، لكنها لن تعيش يومًا واحدًا تحت جلباب سرجون ولديها رفيق مثل غازي تشاركه الأفكار والمبادئ، ولكنها تعرف جيدًا في قاع ذاتها كيف يفكر فارس، فلن يتركها لوحدها. لم يكتب أحدًا غيره مقالات لاذعة ضد الحكومة والعائلة الملكية، فاستخدم الصحيفة كمنبر يستنكر من خلال مقالاته القوانين جديدة بالسخرية والدعابة.

طارت شعرة وحيدة خارج الكوفية كعلم يرفرف مع نسمة هواء حارة ولمعت الشعرة العسلية بشرارة حمراء بما تبقى من ضوء ورأت شرطيان يخرجان من المكتب واتجها نحو البوابة بتسكع. «لقد عظهما الجوع» قالتها وهي ترتب القماش فوق رأسها محتويًا شعرها بالكامل. أحتاج فارس لدفعة تصحح من اختلال توازنه ليرى الأمور على حقيقتها، وكانت هذه الدفعة عندما أخبرته سمر بأنها ذاهبة للقاء غازي لمناقشة عملية جديدة وهناك قاطعها وقال لها «أنا زوجك ووكيلك ولا توجد امرأة تتجول في الشوارع مساءً لوحدها، سوف أرافقكِ إلى القاعة وانتظركِ خارجًا». وفي تلك الليلة انبهر فارس بالترتيب الدقيق من قبل غازي لعملية توقعها أن تكون صفعة في وجه الملك. تردد أولًا وتوتر كلما سمع صوت ربيع يتردد في وجدانه.

استطاع غازي خلال سنة واحدة إعادة تشكيل المقاومة من عناصر شبابية أعطت الحركة العنفوان الذي فقدته منذُ بداياتها. أغري فارس عندما علم أن هدف العملية سوف يكون تمثال سرجون وتمارا في معبد الصلاة، التمثال المشهور الذي تشرق الشمس عليه مرتين في السنة، شروق في الخريف احتفالًا بموسم الأمطار والزراعة والآخر في بداية الربيع احتفالًا بموسم الحصاد. اعتذر من زوجته التي أصبحت يد غازي اليمنى وعرض خدماته بأكملها، أسعد غازي هذا وأضافه للعملية فورًا بسبب خبرته الميدانية. اتفقا يومها بأن يبقى الموضوع سرًا عن والدته وابنه ووعد نفسه بان يخبر أمه في وقت لاحق. وهكذا وجد فارس نفسه لاهثًا بجوار سمر.

- «اخفض رأسك» أشرت إليه بالجلوس.

جثم فارس بجوارها وضاق نَفَسه وتطايرت الرمال في كل مكان.

- «هل رأيتهما؟ لقد خرجا وتركا البوابة مفتوحة خلفهما» قالت سمر وهي تقدم قنينة الماء لزوجها.

أخذ فارس رشفة من الماء وسألها «أين غازي؟ لا أراه في أي مكان» وأرجع القنينة لزوجته.

- «انه يختبئ خارج المعبد ينتظر إشارة مني، فهو يحمل كيسا ثقيلا يحتوي على ما نحتاجه من أدوات» أضاف قماش القناع الأبيض فوق فمها بحة مغرية لصوتها وضخم عينيها وصغر انفها.
- «هل قلت لكِ من قبل كم أنت جميلة» قالها وفرك كتفه بكتفها متلاعبًا.
- «توقف عن الرومانسيات ليس الوقت مناسبًا» قالتها ودفعته قليلًا.
- «وهل هناك وقت محدد ومكان معين حتى اظهر لكِ حبي» رد عليها وقد رفع المزاح حاجبيه قليلًا فظهرت شرايين حمراء فوق جفنيه.
- «نحن في مهمة سرية تعتمد على الوقت والحظ وتأتي الآن لتتكلم عن الحب، أين أنت في البيت يا عنتر.»

لم ير فارس فمها لكنه استطاع تخيل ابتسامتها الساخرة المرسومة على شفتيها. فرد عليها «عندي لكِ سؤال آخر، إن كان بمستطاعك أن تكوني حيوانا فماذا تختارين؟»

نظرت إليه وعيناها تكادان أن تخرجا من محجريهما ثم ردت ببطر «حمامة، أطير حيثما أشاء وأكل كل ما أريد» قالتها ونكهة الانتصار تفوح بين كلماتها.

- «هل تعلمين أن اختياركِ هو اختيار معظم الناس، يريد الجميع الطيران والتحليق في السماء متنقلين من مكان لآخر ولا أحد يفكر بأن تحريك الجناحين متعب جدًا وعليكِ بالاستراحة بين حين وآخر، وكما أن عليكِ الحذر من كل ما هو خطر من حيوانات شرسة ومن أخطار الحياة. وأين سوف تنامين؟ في شجرة؟ هل تحميكِ من المطر والريح؟ أنظري لهذا الغبار هل تعتقدين انكِ تستطيعين الترحال في جو كهذا. حمامة يا له من جواب عادي، لماذا لا تختاري لبوة أو سمكة أو حتى نملة.»
- «وأي حيوان تحب أن تكون يا عبقري» أخذت رشفة من الماء.
- «حصان» قالها والجواب حاضر على لسانه.

- «لماذا؟»
- «أن الحصان من أقوى الحيوانات على وجه الأرض ولديه صبر عظيم ويستطيع العمل لوحده أو مع مجموعة من الأحصنة. مثلي بالضبط فانا قوي وصبور أكتب في الصحيفة صباحًا وعضو فعال في المقاومة مساءً» قالها منتصرًا ثم أكمل «أنا الحصان الذي يجر المحراث خلفه صيفًا وشتاءً ناقلًا العربة من مكان لآخر، أنا الذي يركبني الفرسان في الحروب، أنا جزء لا يتجزأ من حياة الإنسان.»
- «كان عليك أن تختار البومة» قالتها بصراحة.
- «لماذا؟» تسأل مستغربًا.
- «لأنك حكيم وكلامك كله درر» ضحكا سويًا وغطت العاصفة الرملية على قهقهتما.

وعندها أشرت سمر بذراعها باتجاه البوابة، كررتها عدة مرات فلم تكن تعرف إن استطاع غازي رؤيتها من خلال العجاج الكثيف. جثا الزوجان بجانب بعض دون كلام منتظرين رفيقهما بفارغ الصبر. أصبح فارس متوترًا وتعكر مزاجه عندما دخل التراب في عينيه ومن خلال أزيز الريح وما تبقى من ضوء القرص الأحمر ظهر خيال شخص يحمل حقيبة فوق ظهره.

- «هنا يا غازي.»

صرخت سمر ملوحة بذراعها ككيس يُلكم بتيار من الهواء الساخن. ركض غازي باتجاههما لاهثا وجثم بجوار فارس، فاحت منه رائحة العرق التي اختلطت مع رائحة الأرض من حولهم. عدّل نظارته وقال:

- «لقد رأيت شرطيين يخرجان من البوابة، هيا ليس لدينا المزيد من الوقت.»

أعارت سمر قنينة الماء لغازي فشرب ما تبقى من الماء كتربة عطشى. ارتوت عروقه وابتل طينه وقال برصانة «دعونا نبدأ العملية». زحفوا واحدًا

تلو الآخر وقادهم غازي عبر الرمال كأفعى تعرف وكر ضحاياها مقدمًا، غطت العاصفة الرملية على أجسادهم فامتزجت ملامحهم مع تراب الصحراء.

وصلوا إلى المعبد، وتحرك غازي نحو الباب بخفة، وأراد أن يعرف إن كان هناك حارس آخر في انتظارهم. نظر من حوله ووجد حصاة مصقولة حجمها مناسبٌ للرمي. أشر لرفاقه بإصبعه وانتظرا تعليماته بهدوء حذر، جثما كصنمين بلا حركة، فاحت رائحة الأرض في كل مكان وتذوقا طعم التراب في أفواههم.

رمى غازي حصاة داخل المعبد وسمع صداها يتردد بين جدرانه، أصغى بكل جوارحه لأية حركة أو صوت لكن السكون كان قاطعا كالسيف. مد رأسه والتوتر يشدُّ معدته كعقدة صياد ولحسن الحظ لم يجد أي حارس داخل المعبد. غمز ومسح التراب عن وجهه، وتمعن النظر في كل الزوايا، وعندها أشر لهما بالانضمام إليه. وقف الثلاثة أمام بوابة المعبد المفتوحة مبتسمين عالمين أن الجزء الصعب من العملية قد مر بسلام. دفعت فطرة الاستكشاف الفضولية بهم إلى داخل المعبد والرهبة مرسومة على وجوهم العارية تاركين أفواههم مفتوحة من هول الصدمة.

كانت غرفة عارية التفاصيل فلا يتواجد فيها سجاد أو أثاث للجلوس مما جعل الصدى يدوي بسهولة. أعمدة رمادية رخامية ضخمة في كل ركن من المعبد. لوحة زيتية للملك الأول المؤسس وبجانبها أخرى للملكة الأولى في عز شبابها. وما لفت انتباههم وجود نوافذ زجاجية مستطيلة على طول السقف يشع منها لون احمر باهت وحبيبات من الرمل تقاوم الريح فتتأرجح من جانب لآخر. أنتصب تمثالان عظيمان أمامهم يتجاوز طولهما الخمسة أمتار، تمثال للملك سرجون ويده على مقبض سيفه وتمثال آخر للملكة تمارا. نُحتت التماثيل بحرفية عالية وبعناية دقيقة بيد نحات متمكن، فيمكنك رؤية اشدّ العضلات في ذراع الملك والشرايين في كف يده. أما تمارا فلقد نحت تمثالها

في أحلى إطلالاتها وهي ترتدي فستانا يغطي على تضاريسها الأنثوية وتقف شامخة بجانب زوجها.

وضع غازي الحقيبة على الأرض وفتحها بخفة يد ونادى رفاقه:

- «هيا بسرعة، ليس لدينا المزيد من الوقت.»

اجتمعوا حول الحقيبة كقطيع من الذئاب، وأخرج غازي إزميلا ومطرقة لكل منهم. واتجهوا نحو التمثالين والشرر يتطاير من عينيهم. لقد جاءت لحظة الانتقام التي انتظروها بفارغ الصبر لينتقموا لكل من مات ضحية على يد سرجون.

دوت الطرقات في أرجاء القاعة بلا كلل أو ملل، ضربة بعد الأخرى، في البداية قلدت سمر الرجال بأخذ المطرقة وضرب الإزميل بشدة لكنها وجدت استخدام المطرقة لوحدها أسرع في الحاق الأضرار وهكذا ضربت الرخام الأبيض بكل مستطاعها. امتلأ المعبد بسحابة من الغبار الأبيض الذي استقر على ملابس ورؤوس عناصر المقاومة. استطاعوا تدمير أجساد التمثالين جزئيًا في بضع دقائق لكن غازي ازداد غضبًا عندما رأى وجه سرجون مبتسمًا وتمارا تنظر إليه بحنان الأم المقدسة.

- «قف هنا وساعدني يا فارس» أشار إليه بسبابة إصبعه.

ترك فارس أدواته على الأرض ومشى بمحاذاة التمثالين ونظر إلى سمر التي تسمرت مكانها والاستغراب يقطب حاجبيها.

- «احني ركبتيك ودعني أتسلق على كتفيك» أمره كما يأمر المعلم تلميذه، فهمت سمر ما يحصل وأدركت أن وجهي التمثالين هما الهدف الحقيقي، ارتفع غازي وأصبح محاذيا لوجه سرجون الرخامي.
- «اقترب أكثر» امر فارس متمايلًا من جانب لآخر.
- «ممتاز توقف هنا» قالها غازي موازنًا نفسه أمام رأس التمثال.

أخذ الإزميل والمطرقة وضرب العينين أولًا وانتشر الغبار إلى وجهه وبدأ بالسعال لكن أرادته كانت اقوى من تراب في العين والفم. ضرب الإزميل بعنف ودمر كل ملامح الملك ولم يبق من وجهه سوى حفنة من تراب. راقبت سمر وساعدت زوجها بالاتزان وعدم الحركة وأصغت إلى الأصوات القادمة من الخارج. «عليك بالاستعجال يا غازي» قالتها وهي تنظر إلى بوابة المعبد المفتوحة. غمغم غازي وأمر فارس بالتحرك إلى اليسار ليصبح موازيًا لرأس تمارا، «لقد تأخر الوقت سوف يرجع الحرس في أي لحظة» قادت فارس ببطء من كتفه ببضع خطوات نحو اليسار.

ضرب الإزميل بشراسة وتطايرت شظايا الحجارة والغبار في كل مكان، دمر وجه الملكة وجعل منه عجينا، ازداد طمعا ودفع حقده المزمن للعائلة الملكية بأن يضرب تاج الملكة وعندها قالت سمر «توقف عن الضرب، أني أسمع صوتا.»

خيم الصمت عليهم وتعب فارس من حمل غازي على كتفيه فبدأت ساقيه بالارتعاش ووقفت سمر متنصتة وهناك بين أنين الريح الرملية سمعت صوت أحد الحرس «اللعنة، تعال نحتمي من العجاج في المعبد» اختلطت مخارج الحروف بالرمل. تدفق الذعر إلى فارس وانزل غازي بخفة ريشة وتحركت سمر بكل ثقة ووضعت ما تبقى من الأدوات في الحقيبة وحملتها على ظهرها بلا مبالاة.

ركض الثلاثة نحو البوابة مدركين أن الاختباء في المعبد لن يكون في صالحهم. توقفت سمر بمحاذاة جدار الباب ووقف رفاقها خلفها منتظرين أوامرها. انتظرت لحظة مناسبة لاختلاس نظرة سريعة وأصغت لأصوات أقدام الشرطة تقترب منهم، وحينها فقد غازي صبره وخرج من البوابة ركضًا حتى يجذب انتباه الحرس إليه.

«كلا» صرخت سمر ومدت ذراعها لتوقفه لكن فارس سحبها من ملابسها واحتضنها، سمعا صراخ الحرس وهم يصفرون بصافرة الإنذار التي اختلط صوتها بدوي الريح. استتر غازي بالعاصفة الرملية وركض بكل عزيمة نحو البوابة الرئيسة مستخدمًا السياج كمرجع له، استخدم الحرس السلاح الناري وأطلقوا الرصاص نحوه عدة مرات ولسوء حظه ارتطمت إحدى الرصاصات السائبة بالسياج ودخلت شظية في عينه اليسرى. سال الدم مختلطًا بالتراب والعرق لكن غريزته دفعت به بتسلق السياج والهرب من أيديهم تاركًا خلفه خطا رفيعا من الدم.

تسلل فارس وسمر من المعبد متجهين إلى بيتهم دون أن يراهم الحرس الملكي، وتأكدا من عدم ترك دليل واحد يدل عليهما. نفذا بجلديهما تاركين الحرس والشرطة يفتشون في غرف المعبد وساحاته وعندما دخلوا المعبد ورأوا ما فعله عناصر المقاومة بالتمثالين دقوا صافرات الإنذار وأطلقوا سراح الكلاب الملكية الشرسة التي تكشفت أنيابها البيضاء ولمعت بشدة تحت أشعة الشمس الحمراء وتقلصت عضلاتها وبرزت فكوكها بحثا عن نكهة الدم والفقر التي تدربت على مطاردتها. سال الزبد اللزج من أفواهها مع النباح الفارغ واتجهت نحو السياج الملوث بدم غازي. أمحت العاصفة كل دليل على العملية ولم يبق إلا وجهي التمثالين المشوهين ووجوه الحرس المتجهمة.

◆◆◆

٩

غطت العاصفة سماء المدينة، وتلاشت الشمس خلف قطع سميكة من سحب رمادية وزحف ضباب كثيف فوق التراب رويدا رويدا. غطى الضباب على مستنقعات الطين والمياه الآسنة مما جعل التنقل صعبًا على الأقدام. خلت الشوارع من كل كائن حي، إذ انشغل الأطفال بواجباتهم المدرسية، وعد كبار السن الأيام حتى تشرق الشمس في سمائهم مرة أخرى. أخذ مصمم القصر قرارا استراتيجيا عندما بنى القصر فوق قمة التل، وذلك لتهبط سيول المطر إلى الأرض المنخفضة وتسقي حدائق الزهور بسواق تمتد على طول منحدر التل وتجرف الطين في آن واحد. تمشى الحرس مدججين بالسلاح بخطى ثابتة، واحتموا بظلال الجدران. ذبل ضوء الظهيرة، وانشطر جذع الغسق إلى نصفين بخط ناري وغابت الشمس عن المدينة ليوم كامل، وبحركة خفيفة من يد ساحر ودون أن يلاحظ أحد انسدلت ستائر الظلام.

كان الليل أسودا كالحبر، ومُسحت النجوم والقمر من السماء بضربة ريشة فنان، وعندها نبحت الكلاب السائبة على كل من كانت لديه الشجاعة للتسكع في الجو البارد، ولم يبق إلا شرطي واحد ما زال في بداية مشواره المهني، تكون شاربه من هلب الطفولة، واقفا خارج مكتبه مستترًا من المطر والبرد. اخفى يديه في جيوب سترته الشتوية، وتدلت سيجارة لأثبات رجولته من فمه كالحلوى حاميًا بوابة القصر. جلس القصر كتاج فوق تل الورد وتلألأت أعمدته الرخامية بإضاءة ليلية انعكست أشعتها على قطرات المطر فانبلج القصر كسراب في بادية الصحراء. تمت إزالة زينة الحفلة داخلًا وخارجًا ولم يبق من أثاث الحفلة إلا مسبح يتيم يتصادم

المطر على ظهره ليؤنس عزلته. أغلقت الستائر الحمراء واستعد نزلاء القصر لليلة مألوفة بعد مساء الأمس. خيّم الصمت على الطابق الأرضي كالمعتاد وخلى من العمال والخدم، وفي غرفة وحيدة في زاوية معتمة تسرب شعاع ضوء من تحت الباب. علقت لافتة نحاسية على الباب كتب عليها «مكتب الأستاذ راشد.»

جلس راشد على كرسي احتواه تماما، ولم تبق مساحة للحركة إطلاقًا، فارتكز بكوعيه على يدي الكرسي، ومدد ذراعيه على كرشه الذي تضخم حجمًا. سُحب القميص بشدة حول الأزرار وانكشفت بطنه المشعرة من شق ضئيل بين جسده وقميصه. ارتدى قميصا أزرق بلون السماء فيه خطوط عمودية بنية وبالقرب من صدره ثمة جيب ضئيل يحتوي على قلمين أحمر وأزرق، لعب بشاربه محاولًا فتله وهز رأسه موافقًا وقال:

- «هل أنت متأكد من ذلك؟» كان سؤاله مشحونا بنبرة من التواضع يبحث عن استشارة زميل.
- «بالتأكيد مئة بالمئة» رد رجل في منتصف الخمسينات من عمره لم تتغير مشاعره مما أطفئ نار الشك في صدر راشد.
- «الملك يريد اجتثاث المقاومة قبل أن تبدأ وليس هناك بديل عن ذلك» أحنى ظهره مقتربًا من مكتبه الخشبي كأنه على وشك أن يفشي سرًا ووضع راحتي يديه فوق بعضهما.
- «المقاومة كالدودة الشريطية تنمو بشكل لا نهائي، إن قتلت جسدها تنفصل الدودة إلى مئات الأجزاء، ولكن الرأس يتكون ويتكاثر من جديد. الطريقة الوحيدة لقتل الدودة هي بتدمير الرأس أولًا ثم الجسد.»
- «اذًا اجلب لي رأس المقاومة» رد راشد بعفوية كأنه يطلب قدحا من الماء.
- «ليس بهذه البساطة، ولكن لدي فكرة» وترك جوابه مفتوحًا وعدل نظارته قارصًا اللحمة فوق انفه.

- «عظيم» فتح درج في مكتبه وأخرج رزمة من النقود ثم أكمل «متى سوف اسمع منك مجددًا؟» وناول المال لزميله.
- «أعطني بضعة أيام، سوف اتصل بك.»

وقف الرجلان وتصافحا ثم خرجا سويًا عبر دهاليز القصر. تمشى راشد بجانب زميله الذي ارتدى عصابة على عينه اليسرى مستمتعين بهدوء لأنشودة المطر على النوافذ المغلقة. خرج الرجل واعدًا راشد بالاتصال به قريبًا، أغلق راشد الباب وأصبح على وشك الانتهاء من يوم عمل آخر. وقف لبرهة في منتصف الطابق الأرضي مستمتعًا بالسكينة بمفرده.

حن لقدح من القهوة على حفيف النسيم وطرقات المطر، فوعد نفسه بقدح ساخن مستمتعًا به في مكتبه متجنبًا أي إنسان في هذه الساعة، ليشربه على مهل متذوقًا كل درجات المرارة على لسانه. عاش للحظات كهذه مختليًا بنفسه نازعًا حذاءه الذي قرص قدميه طوال اليوم، وجلس على كرسيه شاعرًا ببرودة الجو عبر زجاج النافذة عادا قطرات المطر، وكلما أضاع العد رجع وعدَّ من جديد. «فترة نقاهة» هكذا كان يسميها فوجد أن التعامل المستمر مع سكان المدينة والعائلة الملكية يمتص طاقته ويمتحن صبره يوميًا. «لم يبق إلا شيء واحد، أُعلمُ الملك بالتفاصيل وعندها سوف أخلو بنفسي» قالها في ذهنه وهو يصعد السلم منهكًا.

وجد باب مكتب الملك مفتوحا على مصراعيه، وفاحت رائحة الأشجار في الممر، وهناك تدفقت صور في مخيلته لأشجار أوراقها كثيفة لونها أحمر تحجب بصيص الشمس من المرور إلى الأرض، فلقد تم تغيير المكتب المشروخ بمكتب آخر أرقى صنعًا وملأ الحجرة بنكهة من الوقار. جلس الملك على كرسي مقابل المكتب مرتديًا ملابس مريحة منشغلا بترتيب القطع على رقعة الشطرنج.

- «تعال يا راشد، تفضل» قالها ملوحًا بذراعه.

ارتدى الملك ملابس النوم؛ بنطلونا أزرق حريري وقميصا يماثله لونًا، ترهل جسده كبالون فارغ يبحث عن الراحة بعد الانتهاء من يوم طويل. وضع ساقا فوق الأخرى موازنًا نعاله على أطراف أصابع قدمه اليمنى.

- «عذرًا يا سيدي لكن أحببت أن...» دخل راشد ببطء ولقد كوّن التعب جيوبا تحت عينيه مما جعلهما أصغر من الواقع.
- «اجلس هل تحب أن تلعب الشطرنج؟» أنتهى سرجون من ترتيب القطع وأدار رقعة الشطرنج ليواجه الفريق الأبيض، الفريق الملكي كما تعود على تسميته منذُ الصغر.
- «عفوًا يا مولاي ليس لدي المزيد من الوقت. أحببت أن أطلعك عما هو جديد.»

جُذب بقوة مغناطيسية إلى الكرسي المقابل للملك، وفقد القدرة بالتحكم بنفسه فجلس وداعب بأنامله رؤوس القطع المحدبة.

- «لن أخذ المزيد من وقتك، أخبرني بالتفاصيل وألعب في آن واحد، أستطيع أن اقتل الملك بأربع حركات فقط» عدّل الملك من جلسته ووضع ذراعيه حول الرقعة متأهبًا ثم أكمل «دعني أعطيك نصيحة ورثتها عن والدي، لا تخرج الوزير مبكرًا فعليك بالاحتفاظ به حتى النهاية والشيء الأخر هو هاجم دائمًا، حتى لو كنت تدافع، هاجم وهاجم حتى الرمق الأخير وأستخدم عدة قطع للهجوم في آن واحد.»
- «نعم سيدي» فتح راشد أزرار ياقة قميصه الذي حفر في عنقه، واستسلم للأمر الواقع. حك سرجون حافة صلعته بظفر خنصره وحرك القطع مبتسمًا وقال:
- «هيا أخبرني بما حدث؟»

حرك راشد بيدقا وحيدًا إلى الأمام، وكل ما كان يحلم به قدحا من القهوة في عزلة مكتبه، «لقد أخبرني عميلنا أن المقاومة على وشك تنظيم هجوم جديد» قاطعه الملك وقال:

- «أريد رأس الأفعى هذه المرة» رد بعنف على رقعة الشطرنج.
- «بالتأكيد وهذا بالضبط ما طلبته منه» وداعب شاربه مفكرًا.
- «عظيم، كش ملك» قالها بلا مبالاة وتمدد على الكرسي رافعًا ذراعيه خلف رأسه باسترخاء.

مثّل راشد دور الخسران فاتحًا فمه بأعجاب، ثم سأل عارفا الجواب مسبقًا «هل تحب أن تلعب مرة أخرى يا سيدي؟»

- «كلا انني مرهق وأنت لست بنظير لي، اذهب إلى بيتك إن أحببت.»
- «شكرًا يا سيدي» حبس الابتسامة واستبقه خياله إلى مكتبه، عاري القدمين، قدح القهوة باليد متطلعا إلى السماء المظلمة، هكذا دلل روحه مساء كل يوم.
- «راشد؟» سأله الملك مصارعًا النعاس بين جفنيه.
- «نعم سيدي» التفت راشد وقد ابتلع قلبه نصف دقة.
- «أغلق الباب خلفك» قالها متثائبًا فلقد خسر الجولة الأولى مع النعاس.

هز راشد رأسه موافقًا واتجه صوب الباب بخطوات خفيفة، وقبل أن يضع يده على المقبض سمع صراخا يأتي من قاع القصر: صدى لعويل وطرقات لحذاء شطرت هدوء الليل بالنصف. وثب الملك بعجلة وأختل توازنه لبرهة لكنه ركض نحو راشد منتظرًا مصدر الصراخ وقبضتيه مضمومتين في جيب سرواله.

خرج شبح من الظلام يرتدي ملابس بيضاء يركض باتجاههما رافع ذراعيه عاليًا باحثا عن مساعدة، وقف راشد وسرجون بجوار بعضهما ينظران إليه بتعجب وهو يقترب أكثر وأكثر منهما لكنهما فشلا بحزر هويته. تحول الركض إلى جري سريع ثم إلى مشي أعرج وعندها أختل توازنه وسقط على الأرض بكل قواه.

- «ساعدني يا مولاي» صرخت بكل ما تبقى لديها من نفس «أنها الملكة الأولى، أنها لا تكف عن الصراخ» رنت كلماتها بنبرة ملكية فعلما في

آن واحد أنها الممرضة عبلة. ركضا نحوها وساعداها بالجلوس. أسندت ظهرها على حائط الممر وأمر الملك مندوبه بجلب قدح من الماء إليها.

- «خذي نفس عميقًا عدة مرات» قالها الملك وهو يربت على كتفيها.

حاولت الممرضة النطق لكنها لم تستطع دمج الحروف لتكوين جملة مفيدة.

- «لا تستعجلي أن قلبكِ يدق بسرعة» وحينها خرج راشد بقدح من الماء، مشى بخطوات سريعة كاد أن يطوف فوق الأرض موازنًا القدح في آن واحد.
- «تفضلي.»

سقاها الملك بنفسه رافعًا القدح بحنان وهي تبتلع السائل البارد كبئر فارغ. رأى راشد لأول مرة الملك يخلع قناع الصرامة ويظهر وجهه الحنون الذي لم يره خادم أو عامل في القصر من قبل ولم يره راشد إلا مع ابنته. وعندما انتهت من شرب الماء مسح شفتيها بطرف قميصه الحريري وأرجع القدح الفارغ لراشد. أغلقت جفنيها وتنفست الصعداء وضمت كفيها على صدرها كأنها تصلي لرب صامت وقالت:

- «عذرًا يا مولاي عليك بزيارة الملكة الأولى، أنها في أسوأ حالاتها من الهذيان ولم تتوقف عن الصراخ، لقد أصبحت لديها مقاومة للمخدر ولا تستطيع النوم بسهولة.»

فزع الملك من المستقبل الغامض الذي ظهر أمامه وشعر بالندم لأنه لم يفعل شيئا إزاء تدهور صحة الملكة الأولى، «هيا يا راشد اذهب واجلب الطبيب بسرعة» أمر مندوبه واختفى راشد قبل أن ينهي الملك جملته. ترك سرجون الممرضة تلتقط أنفاسها في الممر متجهًا نحو جناح الملكة، ابتلعه الظلام رويدًا رويدًا فأختفى جذعه أولًا في مستنقع الظلام ثم ساقيه ووجدانه تاليا. أحس سرجون بمرارة تغمر أحشاءه وامتلأت رئتاه بالحسرة التي أثقلت

حركته ورفع قدميه بصعوبة. دق قلبه في عقله ودارت في خلده جملة واحدة تكررت على مدار الساعة «يا لك من أبن عاق.»

أنتهى العنبر الداكن ببوابة دلت على جناح الملكة الأولى، وحين دخل سرجون سمع صراخ مكبوتا. تركت النباتات المنزلية ظلالًا على الجدران المجاورة مما زاد من رعب سرجون الوجودي. ترنح بين جدران الممر مارًا بحديقة الملكة واعدًا نفسه بزراعة المزيد من الأشجار مع أمه لو مرت هذه المحنة بسلام. تشابهت جدران الممر رمادية مع جدران كابوسه اليومي الذي سلبه النوم. ألتفت رهبة عظيمة حول عنقه، وداهمه شعورٌ بالغرق فتنفس ثقيلًا وامتدت قشعريرة من عنقه إلى شواطئ ركبتيه، دعا لربه ألا يهاجمه عنكبوت عملاق يلتهم رأسه بلقمة واحدة. «كيف يخاف من حشرة كهذه انه ملكٌ بحق السماء» لم يتقبل ضعفا كهذا في وجدانه، ولكنه شعر بالغثيان كلما تذكر سيقان العنكبوت المشعرة وعيونه الجاحظة مع فمه الذي امتلأ بأسنان عوجاء.

وجد بابها مفتوحا على مصراعيه، فدخل بهلع وجلس بجوارها وأنصت لتنفسها الثقيل الذي أُثقل بخشخشة لا تدل على الصحة والعافية على الأطلاق. تمعن باللوحات المعلقة لوالديه ولاحظ جمال الشباب المرسوم على وجهيهما، انتصب جسداهما باستقامة مشبعة بغريزة الحياة. نامت الملكة كورقة يابسة في فراشها، ولاحظ سرجون بأنها أصبحت أقصر وأنحل خلال ليلة واحدة. سبح جبينها بالعرق وتبلل ما تبقى من شعرها فشحبت مخدتها كلون بشرتها، فتح فمها وسمع من قاع صدرها هدير وجلجلة في آن واحد.

اقترب سرجون منها واحتضن يدها التي تخللتها عروق صفراء وزرقاء بين يديه وامتدت ذراعها كغصن ناشف، تصلب جلدها وأخذت بشرتها لون بنيًا غير طبيعي يزداد غمقا حول إبطها. قبل يدها ووضعها على جبينه كما كانت تفعل له حين كان غلاما مريضًا. فتحت الملكة جفنيها وجحظت عيناها الصفراوان وشحب بياض عينيها إلى لون رملي شرخته شعيرات حمراء في

محيطه. «يبدو أنها تعبت من الصراخ» قال سرجون في خلده وانكسرت ابتسامة على طرف فمه الحزين ليستقبل والدته بها. نظرت إليه الملكة لبرهة وبكل ما تبقى لديها من قوة حاولت الصراخ، ولكن ضعفها قد هدها، فصدرت منها صرخة وحيدة كفقاعة في قدح ماء بلا صوت يُسمع. شدت شفتيها المزمومتين حول فمها المفتوح وعندها قبل سرجون يدها مرة أخرى فنزلت دمعة وحيدة على خدها الجاف ممتزجة ببقع العرق على مخدتها.

- «أمي» قالها وكل حرف يرتجف على نسيج لسانه.

تحركت عيناها الخاليتان من الحياة نحوه وحدقت به كأنها ترى من خلال كيانه الزجاجي، طفلا ضائعا يبحث عن امه.

- «أمي» قالها مرة أخرى وعيناه لم تفارقها.
- «من أنت؟ هل أنت زوجي؟» سألته ولم تغير ملامحها درجة واحدة.
- «أنا ابنك سرجون» ضغط على يدها بين أصابعه الغليظة.
- «أين ابنتي؟ حبيبتي لقد اشتقت إليك كثيرًا» ردت عليه ونظرها يبحث عن شخص آخر في الغرفة.
- «أنا سرجون أبنك الوحيد. ولدي ابنة اسمها امنية، هل تتذكرين حفلة البارحة؟»

لم تكن هذه أول مرة يسمع بها هذيان أمه عن ابنتها وعن الماضي.

- «كل الرجال من نفس التربة لا تصلحون إلا أن تكونوا سمادا للمرأة، تترعرع الفتاة وتنمو وحين تنضج وتزهر وتصبح امرأة مثالية، تأتون بلا مبالاة وتقطعونها» قالتها بطريقة كأنها قد تدربت على مقولتها عدة مرات.
- «لقد طلبت من راشد دعوة الطبيب فورًا» وقف سرجون ولم يعرف ماذا يفعل فتحرك بين الكراسي والفراش عدة مرات وهو ينظر إلى لوحة والده باحثا فيها عن دليل ليفتح الماضي.

تأوهت الملكة وأغلقت عينيها وعضت على شفتها السفلى وطعنها الألم في عدة أماكن في آن واحد. تشنج جسدها والتوت بحركة غير إنسانية وغرست ما تبقى من أظافيرها في الفراش. عضت على مخدتها بكل قوتها فبرزت عضلات فكها كجزيرة من تحت الماء وتصلبت في مكانها. وقف الملك داعيًا لها بلا فائدة فلقد تأخر راشد والطبيب وشعر بأن ما تبقى لها من دقائق معدودة على هذه الأرض تسللت عبر أصابع يديه هدرًا. وبدون أي ضجة دخلت امنية الغرفة وجلست على الكرسي بجوار جدتها.

- «امنية انظري ما حصل لجدتك» قالها الملك والدموع تبلل جفنيه.
- «دعنا ندعو إليها يا أبي، أن الصلاة تساعد المريض وأهله» قالتها بهدوء وكان جوابها يسبقها عمرًا.
- «لا فائدة يا ابنتي، أن إله الشمس لا يسمع لعباده» قالها بغضب.
- «وكيف تعلم ذلك؟ أنت الذي توقفت عن الكلام مع الرب. كيف تعلم أن الرب لا يسمعك وأنت لا تطلب ولا تسأل وحتى لا تسمع. أن كل شيء في الحياة امتحان وعليك الدعاء من الرب أن يمنحك القوة والجلد لخوض الامتحان وليس بالهرب منه.»

حدق الملك بها وزال الغضب من عينيه وتداخلت المشاعر في وجدانه وشعر بالدوران. التفتت الملكة نحو صوت امنية وفتحت عينيها ببطء بعد أن توقفت عن العض وقالت «أبنتي لقد اشتقت لكِ كثيرًا، أين اختفيتِ كل هذا الوقت؟»

لم تستغرب امنية منها فلقد سمعت هذا الكلام عدة مرات فردت عليها بهدوء ملكي:

- «أنا حفيدتكِ امنية» وضعت يدها على جبين جدتها ومسحت ما تبقى من العرق براحة يدها الباردة.
- «عذرًا يا ابنتي، لم يكن لدي القدرة أو العزيمة لإيقاف الملك الأول ومنعه من أخذكِ» خيّم الصمت على الجميع ثم أكملت «أنها جريمة

ماذا فعل بكِ وأنت طفلة رضيعة» قالتها وكأنها تزيل صخرة عن فؤادها.

- «ماذا فعل جدي؟» سألتها امنية وهي تؤدي دورها.
- «جريمة بحق السماء، لقد سرقكِ من حضني وحرمكِ من حناني ودفئي بعد أن خرجتِ من بطني وشربت من لبني، لم أغفر له بعد ذلك أبدًا وعندما رجوته أن يعيدك لي قال لي لن تحكم المدينة فتاة، فاسترجعي عافيتك وانجبي ولدا يحكم المدينة بقبضة من حديد.»
- «ما هذا الهراء يا أمي، أن أبي ليس بمجرم كما تصفيه.»
- «ليس هراءً يا سرجون، كان لديك أخت أكبر منك بسنة، كانت جميلة الوجه رموشها طويلة وعيناها واسعتان كالبحر لكن والدك وضع مستقبل المدينة على عاتقي كي أنجب ولي العهد الذي اعتبره أعظم تخليد له.»
- «أن الدواء يجعلكِ تهذين، أين ذهب راشد؟»
- «أسمعاني جيدًا، كلاكما لديكما وحمة بشرية على جسديكما مثل أبيكم وهي الإشارة الملكية لعائلتنا.»

أشرت امنية لباطن ساقها كاشفة عن بقعة داكنة اللون دائرية الشكل.

- «بالضبط، لدى سرجون واحدة شبيهة بهذه في أسفل ظهره واختك لديها واحدة على ذراعها.»

ثم أكملت «أن الحبل السري لا ينقطع إلى الأبد و ...» قاطعها دخول راشد والطبيب الملكي خلفه يلهث من الركض.

- «عذرًا يا سيدي أخرنا المطر والطين» قالها راشد والعرق يسيل من عنقه.
- «لا داعي للاعتذار.»

تحرك جانبًا ليدع الطبيب يفحصها وشعر ببرود كامل يغلف جسده كلحاف من جليد. أعد الطبيب مخدرا جديدا وبحث عن وريد في ذراعها

اليابسة، وفي لحظة دخول السائل السحري في شرايينها ارتخى فكها عن شفتها السفلى وبقت حفرتان عميقتان يتراوح لونهما ما بين الأزرق والأسود. خيم الصمت على الجميع، تطلع سرجون إلى لوحة أبيه ولم يجد إلا عيونا صارمة تنظر إليه بصمت أزلي.

•••

تطاير رذاذ المطر مع هبوب الريح، وانتهز الناس هذه الفرصة للتنقل من مكان لآخر، تدفقت سيول الغيث بجانب الرصيف منجذبة نحو مصرف أو حفرة وتحول التراب إلى كتل من طين. طار بعوض فوق بركة من وحل، وتدفقت تموجات خفيفة كسرت انعكاس ضوء الشمس المكتوم. فاحت رائحة الأرض الندية زاحفة بين زوايا الشوارع القذرة، واندمجت مع روائح المياه الآسنة، سُمع نباح الكلاب يتردد بين جدران البنايات الرمادية الذي اعتاد سكان المدينة على تجاهلها.

تجمعت كتيبة من طيور بنية اللون تأكل من إحدى الكتل الطينية، وحينما كانت تسمع دبيب خطوات لإنسان أو حيوان تطير متشتتة باحثة عن غصن شجرة للإيجار. دقت مكبرات الصوت مع حلول المساء، ورددت القوانين الجديدة وذكرت السكان بالقواعد الراهنة. أغلقت بعض الدكانين أبوابها مع صدى المكبرات واختلط صوت البوابات الحديدية بضوضاء المكبرات فأرتفع الضجيج كعلامة لانتهاء يوم عمل آخر. تسرب الناس إلى الشوارع وعجنت أقدامهم كتل الطين وتكاثرت برك الوحل مما جعل المشي مهمة صعبة. امتزج رماد السماء في الأفق مع ألوان العمارات والشوارع الطينية فأصبح من الصعب الفصل بين السماء والأرض. عطت رائحة الاكتئاب بكل من أمتلك روحا ضعيفة، واشتاق الناس لظلالهم الشمسية فتوقف بعضهم بجوار نوافذ البيت متطلعين إلى الأفق باحثين عن نور الرب ليضيء كل زاوية عتمة في وجدانهم.

اشتعلت الإنارة في نوافذ البيوت في آن واحد بحركة من يد مايسترو، وفاحت رائحة الطبخ كفيضانات المطر باحثة عن إنسان جائع لتصب فيه. انعكس خيال ربيع على جدران البيوت مترهل الكتفين، واجتمعت كافة همومه كحدبة في ظهره تتأرجح مع خطواته. انغمس في خلده طارحا سؤالا بعد آخر محاولًا أجابتها بقدر استطاعته. أن ما أخبره طلال من معلومات

كان أشبه بقنبلة موقوتة تنتظر الوقت المناسب لتنفجر لتخلف دمارا في وجدانه وشظايا في فؤاده.

«سوف اسأل جدتي عن أهلي» قالها متفائلا متفاديا برك الطين وبراز الطيور والكلاب. مر بجانب لافتات ملكية أضاف المطر عليها ضبابا فأضفى بصمة إنسانية على الأشخاص المرسومين. نظر بشرود نحو ملعب كرة القدم الفارغ الذي ترك وحشة في قلبه، ولو كان باستطاعته تسلق الجدار الحاجز والتسلل إلى الملعب في الظلام حتى يتمدد على العشب الأصفر المبلل بندى المطر ويصرخ بأعلى صوته مفرغًا كل ما يحمله من عبء في قلبه. يتردد صراخه على الجدران الباردة وفوق المقاعد الإسفلتية الخشنة، يركض بكل طاقته من جانب لأخر متمتعًا بخروج البخار من فمه. تبللت عيناه بالدموع واستطاع إيقاف سيلها برعشة من رأسه، وعض باطن شفته السفلى واضعًا ذراعيه خلف ظهره، وتسكع نحو بيته وعكس خياله صورة لرجل هرم مهزوم.

انتصب تمثال النصر في ميدان الوحدة شامخًا، غسل جسده بقطرات المطر وترسبت المياه حوله مكونة بركة طينية لعب الأطفال بها. بحث بعضهم عن شراغيف أو ضفادع لأبادتها وبحث الآخرون عن دودة الأرض فلم يكن للأطفال تسلية أخرى ودفع الضجر بهم إلى اختراع ألعاب جديدة لا تحتاج إلا لغصن شجرة وحشرة. إما الحيوانات الذكية كالقطط فتعلمت الدرس من أول مرة وتفادت البشر أجمعين.

لمح ربيع الأطفال وبيد كل منهم عصا يضربون الأرض بقوة بينما يتناثر الطين كألعاب نارية في كل مكان. فرك أحد الأطفال عينيه، وتذكر ربيع ذلك الشعور الكريه عندما دخل الطين عينه والتصق بالجفنين. فكر بأن يلقنهم درسًا ويضربهم بالعصا بنفسه فربما سوف يمنعهم ذلك عن ضرب الحيوانات لكن نداء أمهاتهم استبقه مناديًا لوقت العشاء، ركض كل منهم في اتجاه والبخار يتسرب من أفواههم الدافئة تاركين العصي غاطسة في الطين.

زحفت ريح قارصة، وأصبح الجو صقيعًا، وخلت الشوارع من كل مخلوق حي بعجلة، تجاهل ربيع الأطفال واتجه إلى شارع محلته، تاركًا للتمثال مهمة حماية المدينة من كل ما هو مكروه. انتبه لشفق الشمس الأحمر مختلطًا بضباب رمادي في الأفق مما جعل هالة الشمس الحمراء اقل وهجا، وتذكر عندما سأل جدته حين كان غلامًا أين تذهب الشمس وقت الغروب فردت عليه أن إله الشمس يذهب للنوم في هذا الوقت ولذلك على عباده بالنوم أيضًا. وهكذا كلما حصل مكروه له أو لأصدقائه في وقت المساء، يقرر عقله البسيط أن الرب فقد قوته لحمايتهم في هذا الوقت وذلك بسبب انشغاله بالنوم ولهذا عليه بأخذ الحذر في الظلام فهنالك الكثير من المجرمين والشريرين يستخدمون راحة الرب لمصلحتهم. ابتسم ربيع ابتسامة واسعة مدركا جيدًا مقدار سذاجته حينها، فغمس يديه في جيوبه وتمشى نحو بيته.

وبدون أي تحذير شعر بصليب ناري ينغرس بين ضرسه ولثته، ضغط على فكه بقوة ثم لوى لسانه ودلك المكان برقة محاولًا عصر طرف لسانه بين الضرس واللثة. استرخت عضلات فكه كلما خفَّ الألم لبرهة. دعا ربه أن يكون هنالك المزيد من ورق النعناع في البيت، وتأكد في يقينه أن زيارة طبيب الأسنان أصبحت ضرورية، ذلك الطبيب الذي تجنبه منذُ أن كان طفلا يافعًا. كانت قرصة الجوع أشد من البرد، فحلم بما يمكن أن تكون جدته قد طبخته مساء اليوم فمن الصعب التنافس مع وليمة الأمس لكنه ما زال يفضل طعامها على اكل الملوك، أن الفقر يضيف ملحًا للطعام لا يوجد في قصور الدنيا بأكملها وما أن يتذوقه الإنسان فمن الصعب نسيانه.

تلاعبت أصابعه في جيبه، ولمس ورقة مستطيلة ألتفت حول سبابته فأخرجها وكانت ورقة اليانصيب، رسمت بعض التجاعيد أنهارا على امتداد الورقة مما شوه من منظرها وتلاشت بعض ألوانها بسبب عرق يده. سبعة أرقام عشوائية قد تغير حياتهما إلى الأبد، «سوف تفرح جدتي بها» قالها في خلده وهو يعيد الورقة إلى جيبه وأخرج علبة الكبريت بحرص. كان شكل

العلبة قديمًا وفقد الكرتون قوته وأصبحت زواياها متلثمة، أما شريط الكبريت الماروني فلقد فقدت خلاياه السداسية ألوانها وتضاريسها وتركت أعواد الثقاب خطوطا نارية على طوله. تمعن ربيع في منظرها المعتاد وتلاعب بها بين سلامات أصابعه وهزها بين حين وآخر ولم تصدر خشخشة على الأطلاق. «سوف يتمتع العنكبوت بهذه الذبابة» هز العلبة مرة أخرى وأرجعها إلى جيبه وشعر بفخر كأم ترجع إلى أطفالها محملة بالطعام.

فاحت رائحة الثوم والبصل مع نسمات الهواء الباردة. سمع ربيع أصواتًا تتسرب من مختلف المطابخ المجاورة للشارع وأمهات يصرخن على أطفالهن من صميم أفئدتهن. اختلطت أصوات القلي مع قرقعة أدوات الطبخ في كل مكان وانتشرت رائحة اللحم المشوي والبطاطس والطماطم المقلية كالطاعون بسرعة رهيبة.

سال لعابه وتحول التسكع إلى مشي سريع، وقبل دخوله إلى الشارع الموازي لبيته، اختلس نظرة نحو التل حيث يقبع القصر الملكي الذي كان الضباب يكسوه بلحافه. تحسر وتساءل عماذا تفعل الأميرة الآن. قرصه قلبه عندما تذكرها ترقص وتنفس الصعداء وتمنى لو كان استطاعته رؤيتها مرة أخرى. ربما يستطيع أن يطرح الفكرة على رئيس التحرير حتى يوصي به لمهمة ملكية أخرى. تخيل نفسه ملتقيًا بها بصدفة مصطنعة فتتذكره وتحييه بسلام حار كصديق عزيز «لا اقبل اقل من قبلتين على الوجنتين» ضحك في وجدانه وتخيل نفسه يميل بجسده نحوها وساقيهما تتلامسان بين لحظة وأخرى وهما مندمجان بالحديث يضحكان ويتسامران حتى منتصف الليل. تخيل نفسه يرقص معها كما رقص والداها بحرفية عالية، وفي تلك اللحظة ارتفعت قدماه الاثنتان عن الأرض بسعادة.

أندمج بحلم اليقظة لبرهة، وتلاشت معاني الزمان والمكان في ذهنه، فهرول نحو بيته دون تفكير، متجاهلا روائح الأكل والزبالة وأصوات الأطفال وصراخ النساء. لكن الحياة لا تصبر على أحد، إذ سرعان ما عاد إلى الواقع عندما

وجد مجموعة من الأطفال يلعبون بشيء ما. اجتمعوا مكونين دائرة صغيرة، وانحنت رؤوسهم فلم يستطيع رؤية وجوههم. تحول الجدال إلى همسات حلقت كالفراشة بينهم ببراءة يلمح الإنسان البالغ شفافيتها، وانتهى الحوار عندما رأوا ربيع يتقدم نحوهم وتقلصت عضلاتهم وأصبحوا أصنام ساكنة.

- «ماذا تفعلون هنا؟» سأل ربيع متقدمًا بحذر متوقعًا دما ولحم على الأرض.
- «لا شيء» رد عليه أحد الأولاد بصوت منخفض.

مد ربيع عنقه ورأى الولد الذي رد عليه يحمل حجرين أسودين بكل يد وهناك على الأرض ورقة صفراء مجعدة سال حبرها وذبلت كلماتها وعندها لاحظ أن الورقة من صحيفة المدينة.

- «ماذا تفعل يا ولد؟» سأله ربيع وبدأ صبره يتلاشى من رأسه فتشنجت عضلات فمه.

كانت هناك فتاة واحدة وسط تلك الحلقة الذكورية لا يزيد عمرها عن السادسة، لفت رأسها بحجاب ابيض غطى على شعرها وعنقها بالكامل. ردت على ربيع:

- «أننا نحاول إشعال نار يا عم» قالتها ببراءة عفوية.
- «نار؟» استغرب ربيع وقفز نحوهم كإطفائي.
- «لقد تعلمنا في المدرسة اليوم أن الإنسان القديم أشعل النار بضرب حجرين.»

رد عليه الولد الأشقر وضرب الحجرين مرة أخرى دون جدوى، ابتسم ربيع وتذكر نفس الدرس حين كان في المدرسة الابتدائية. دخل الدائرة وتحرك الأطفال جانبًا وجثم بين الفتى والفتاة.

- «هيا أعطني الحجر، دعني أجرب» ومد يده مستعدًا لتسلم الحجر.

تردد الولد في البداية لكن بقية الأطفال حفزوه على المشاركة فأعطى ربيع الصخر ووضع يديه على خديه الورديتين ليدفئهما.

أخذ ربيع الصخر، وصهل حصان الطفولة في أحشائه، ولمعت عيناه بالشر، أقترب من مركز الدائرة ووضع الحجرين فوق الورقة الصفراء ثم سأل الأطفال «مستعدين؟»

شجع الأطفال زميلهم الشجاع بالتصفيق الذي أخذ دور المعلم التطبيقي وطرق الحجرين بكل قوته. قدحت شرارة ضئيلة لبرهة ثم اختفت مثل لمح البرق، تنهد الأطفال وغصت حلوقهم بخيبة الأمل. «لا تستسلموا بهذه السرعة» قالها وضرب الصخرتين عدة مرات وتطايرت الشرارات كالذباب وعندها ذابت حلقة النار في وسط الورقة وانتشرت بسرعة هائلة «ابتعدوا» قالها ربيع محذرًا وتراجعت وتمددت الحلقة في آن واحد. امتدت ابتسامة غريبة على وجوههم وبرقت عيونهم على وهج النار الجذاب، ارتفعت الورقة عن الأرض وتطاير الرماد منها وتراقص الدخان الأسود مع مهب ريح شمالية. بدأ الأطفال بالجري عندما سمعوا صياح أمهاتهم وتركوا ربيع لبرهة وحيدًا مع شعلة تلفظ أنفاسها الأخيرة. دعس الورقة بطرف حذائه ليخمد مما تبقى من حياة تتشبث بها ورمى الصخر إلى جانب الطريق.

التف نحو واجهة بيته وخيم الظلام على حدوده، فلقد كان المنزل الوحيد بدون ضوء ينير أركانه. لم يبال وهو يبحث عن مفتاح البيت معتقدًا أن جدته قد نست إشعال الأضواء الداخلية. اقترب من مقبض الباب بخطوات دلت على جوعه، حنى رأسه باحثًا عن المفتاح في كل جيوبه. فزع عندما رأى باب البيت مفتوحا جزئيًا ويستتر الظلام الدامس خلفه. «يا إلهي» رنت الكلمات بين أذنيه واقترب من الباب بخطى مرتعشة، توقف أمام الباب وتسمر هناك لبرهة. نظر إلى جيرانه واستقبل بنوافذ مضيئة على مدى البصر، «ماذا أفعل؟» تسأل مع نفسه لكن غريزته دفعت به إلى الأمام.

تجمد العرق على جبينه، وتباطأ الدم في شرايينه، وأحس بتضخم لسانه وجف ريقه، تنفس من فمه واضعًا يده على مقبض الباب. استقبلت راحة يده ببرودة شديدة لم يعتد عليها من قبل، كأن المقبض قد صنع من الثلج. فتح الباب على مصراعيه واستقبل برائحة طعام زكية كتلك التي اعتاد عليها في بيته لكن الظلام سلبه من هذه المتعة الوحيدة وجعل قلبه يركض أسرع من عقله.

- «جدتي هل أنتِ على ما يرام؟» صاح بنبرة عادية «انا ربيع» أكمل الجملة ودخل إلى بيته وأغلق الباب خلفه.

أحاطه الظلام مستبدًا يشبه الغرق في بحر أسود يحيط الغريق ويدخل من نافذة جسده حتى يهيمن عليها كليًا. شعر ربيع بالدوران ومد ذراعيه محاولًا الاستناد على حائط مجاور لكنه فوجئ بوجود فراغ شامل، تنفس البيت الصعداء وتمدد وتوسع بين فترة وأخرى. احتاج لدقيقة كاملة حتى اعتاد نظره على الظلام وعندها استطاع رؤية خيال لأثاث البيت وأشباح الجدران المجاورة. لم تكن جدته موجودة في صالة المعيشة حيث كانت تنتظره كل يوم بابتسامتها المرحبة تنزع عنه هموم العمل وتغسل روحه من صعوبات الحياة.

- «جدتي» رفع نبرة صوته لكن حنجرته خانته فتنحنح وصاح عاليًا «جدتي هل أنتِ بخير؟» تحرك بعجالة بين دهاليز البيت ووجد كل شيء كما تركه صباح اليوم.

«هل من المعقول أنها ذهبت لزيارة أحد الجيران؟ ربما لتطلب القليل من العدس» تسأل مع نفسه مفسرا اختفاءها وإيجاد حل لمشكلة لم تمر عليه من قبل لكنها مشكلة عاشت في أحشائه منذُ كان طفلًا. أن يفقدها الآن فتلك نكبة لم يستعد لها كليًا. مرت عليه خاطرة مثل هذه بين الحين والآخر عندما يكتب مقالات النعي السوداء فلقد عمّرت جدته أكثر من بقية ضحايا الحياة.

«سوف يأتي اليوم الذي ترحلين فيه يا جدتي وتتركيني لوحدي» كان يقولها في خلده متحسرًا فليس باستطاعته إيقاف الموت عن أحد.

«ربما كانت نائمة» هرع ربيع وأقدامه تلامس الأرض بالكاد متجهًا إلى غرفة جدته التي لم يدخلها منذُ مدة طويلة، وجد بابها مغلقا كما اعتاد عليه في كل ليلة. طرق على الباب معلنًا نواياه، «جدتي هل أنتِ نائمة؟» سألها وصوته متقطع بسكين الشجون. دام الصمت برهة فطرق على الباب وفتحه في آن واحد. ترعرع الخوف بسرعة وثقلت قدماه اللذان عرقلاه بدل أن يحملاه، فجلس بهدوء على الفراش الخالي وحدق في زوايا الغرفة العارية. كانت غرفتها غير مؤثثة إلا بالأساسيات، كرسي صغير أمام مرآة قديمة، دولاب بابه مفتوح تتدلى بعض الملابس منه دون روح، ونافذة تطل على الحديقة الخارجية.

وجد ربيع نعالها الوردي الذي لا يفارق قدميها إلا قبل النوم بجانب الفراش وعندئذ علم أنها ليست على ما يرام. «أين ذهبت يا إلهي؟» تساءل في خلده متمددًا على الفراش واضعًا رأسه على وسادتها الخالية. استنشق عطرها الأمومي الذي اعتاد عليه منذُ الصبا وترقرقت عيناه بالدموع وشعر بدمعة يتيمة دافئة سالت من ينبوع عينيه وصبت على المخدة مكونة بقعة مالحة. تنفس ببطء وغطى على وجهه بذراعه ماسحا كل دليل على حزنه وحينها اختلس نظرة إلى النافذة التي مر ضوء القمر منها مضيئًا جزءا ضئيلا من الغرفة.

ارتدى القمر معطفًا مطرزا بالنجوم فأضاء الليل وما حوله وتغلغلت الرومانسية في الهواء تُصيب بالعدوى كل من أنار القمر وجهه. لمع حبل الغسيل كخيط من خيوط شبكة العنكبوت وهناك رأى ربيع ملابسه البيضاء ترفرف مع نسمات الهواء القارصة. أنتصب جسده بزاوية قائمة وتدفق الذعر في شرايينه فعض على شفتيه وقال «الحديقة الخارجية»، قفز بكل قوته وحلق باتجاه الباب وانغرست أظافره بورق الجدران مجتثًا كل ما كان في

طريقه، ترنح عبر دهاليز البيت وفقد شعوره بكل شيء ففي تلك اللحظة فقد الوقت معناه وتجمدت عواطفه.

انعكس ضوء القمر على عينيه ونبض الذعر في حاجبيه، التفت بسرعة نحو حبل الغسيل ولم يجدها هناك، فلقد كان جسدها الهرم في الاتجاه المعاكس يستقر على الأرض بلا حركة، وكما يستبق البرق جلجلة الرعد في العاصفة صُعق برؤيتها ثم دوى كيانه على آنين أنفاسها. ركض نحو عين العاصفة ووجد جسدها دافئا وبخارا حارا ابيض يتسرب من فمها، «جدتي! جدتي»! هز كتفها بلطف. حاولت الكلام لكن الحروف التي خرجت من فمها ليست بأبجدية يفقهها، استسلم جسده لجاذبية الأرض وزحف بجوارها.

أضاء القمر الحديقة بنوره البارد الأزرق وشهق ربيع عندما رأى ما حوله، حُفرٌ على امتداد العشب الأخضر بمختلف الأحجام. التف حول جذع جدته الذي استتر بالظلام وحاول أن يحركها بأي طريقة لكنه لاحظ عندما اقترب منها بأنها تحتضن شيئا ما. قاومته في البداية عندما جره منها لكن إصرار حفيدها كان اقوى. أحس ربيع ببرودة أقرب للثلج وهو يستشعر صندوقا بين يديه عاكسًا ضوء القمر على جسده المعدني. «ما هذا؟» استغرب ربيع وهو يبحث عن طريقة لفتح الصندوق في الظلام. تبللت راحة يديه من العرق الذي سال على جسده بالكامل مما جعله حساس لأي نسمة هواء تهبُّ على عنقه العاري، تزحلق الصندوق بين ذراعيه عدة مرات مما ضاعف من غضبه وشتم حظه العاثر.

تفاجئ عندما فُتح الصندوق وتسرب الظلام لداخله، برك بجوار جدته ملتقطا أنفاسه مفكرًا بما يفعل تاليًا وحينئذ لمح طرف ورقة على ضوء القمر. بحث في الصندوق وأخرج مجموعة من الصور مستعينا بضوء الشارع. لم يميز الناس والمكان، ولكن توقف عند صورة للكادر الصحفي كان قد رآها معلقة في مكتب رئيس التحرير. درس الصور مرة أخرى وكانت أحداها لزوجين يحتضنان بعض بجانب نافذة، وثمة قفص عصافير خلفهم، الأخرى لامرأة تحمل طفلا

رضيعا في حضنها، الطفل يركب الأب كحصان، الأب وألام يحتفلان بالطفل وهناك كعكة مقطوعة. وبعد أن قلب الصور بسرعة توقف عند صورة لامرأة في خريف حياتها ترتدي لباسا أسودا وتحمل طفلا على كتفها.

«هل من المعقول أن تنسى معالم والديك» تسأل في خلده والدمعة تنشف قبل أن تصل إلى خده. ابتلعته دوامة من العواطف الشجية فأمامه كان كل شيء اشتاق إليه وحرم منه في طفولته. فتح فمه لكن لسانه التصق في جوفه ونطق «جدتي!»

◆◆◆

أربع سنوات على ولادة ربيع

عُزفت الأناشيد الوطنية على مسامع الناس منذُ الصباح، فارتجت المكبرات في أرجاء المدينة، وأصغى كُل من أهتم بأخبار العائلة الملكية. يوم صيفي الفَ سكان المدينة حره وجفافه، وتطاير فيه الذباب من قمامة لأخرى حاملًا معه نكهة الصيف المعهودة. عبق الهواء بطنين الذباب ولدغات البعوض وعندئذ ضجر الشعب من الجو الحار ودعوا لقدوم موسم شتاء قارص. احتوت الأناشيد الوطنية على عبارات تدعو الاله ليمد في عمر الملك، وتُذّكر سكان المدينة بحسناته ومكارمه خلال حكمه. لُقّب على أسماء الطيور الجارحة والحيوانات المفترسة وذلك لحدة مناقيرها وبراثنها وأجنحتها الطويلة العريضة وكذلك بالأسلحة الحادة كالسيف والخنجر. عُزف النشيد الوطني على مدار الساعة وابتلت شفاه الكبار بكلماته الثورية وأخذ الصغار التحية العسكرية مقلدين ما يفعلونه في المدرسة صباح يوم الخميس.

انتصب القصر الملكي فوق التل، وتلألأت نوافذه مع سراب الصحراء، واستتر بعض الجنود تحت ظلال أشجار النخيل المتناثرة على امتداد الطرقات والشوارع. جلس بعضهم على الأرض يحركون الهواء أمام وجوههم بقبعاتهم الكاكية، ولمعت التيجان الملكية المطرزة وسط كل قبعة تحت ضوء الشمس. كانت الحراسة اقل من المعتاد وبدا القصر أكثر هدوء من أية بقعة في البلاد، ولكن ما كان يحدث داخله كان عكس هذا تمامًا. لم يكن حمل تمارا سهلًا، بل مر بمشاكل مستمرة، واعتاد الخدم على منظر الطبيب يتجول بين ممرات القصر. فمنذُ أن برزت علامات الحمل على تمارا لم تتوقف عن الغثيان واستمر ذلك طوال المرحلة الأولى، وبعد ثلاثة أشهر

انفتحت شهيتها وأكلت لأثنين كما اعتادت الإعلان وهي تملأ صحنها لثالث أو رابع مرة.

تضخم بطنها في المرحلة الثانية، واعتاد الخياطون التردد على القصر لتغيير أو توسيع ملابس الملكة، إذ أحبت أن تكون حسنة المظهر وتبقى أناقتها لافتة، نصحها مصمم أزياء من مدينة مجاورة بارتداء اللون الأسود يوميًا بكل ظلاله إذ يعطي ذلك اللون انطباعًا بأنها نحيلة الجسد وعندما سألها سرجون على من أعلنت الحداد فإجابته بابتسامة لاذعة وقالت «جسدي، انني حزينة على جسدي» تفادى السجال بعد ذلك وتراجع إلى مكتبه قاضيًا صباحه ومساءه بتناول الطعام والشراب.

تحدى سرجون توقعات الكاهن عدة مرات بأن المولود سوف يكون بنتا لكن الكاهن لم يتنازل عن رأيه وقال يومها أن ليس بيده حيلة فهو رسول لرب الشمس وكلمة الرب لا تُكسر. ثم نبهه إلى حجم بطن الملكة وقال له أن البنت تحب اللعب والسباحة في البطن الواسعة، أما الولد فيبقى جالس عاقلًا في بطن أمه الضئيلة. وذكره بأن المولود هدية من الرب وجنسه غير مهم وربما تمارا لن تنجب أطفالًا بعد ذلك وعليه بشكر ربه بالصلاة والعبادة المتواصلة لسلامتها وسلامة الطفل. سمع سرجون الكلام، ولكنه لم يأخذ ما سمع على محمل الجد، وتفاءل بان يكون ولي العهد صبيًا فيعلمه المبارزة والفروسية، وترك الأمر للقدر، وأقنع نفسه بأنه حتى لو جاءته بنت فسوف تكون أحلى وأغلى أميرة، وربما ستمنحه تمارا في المستقبل الولد المنتظر الذي سوف يستلم الحكم في يوم من الأيام ويرفع راية العائلة الملكية من الشمال إلى الجنوب.

انشغل سرجون بمهام السلطة اليومية من طرح قوانين جديدة على الشعب وكبح أي نَفَس لمقاومة أو معارضة في بداية حياتها. ومع انشغاله ترك تمارا لتدير كل احتياجات الحمل والولادة، قضت معظم وقتها في ترتيب غرفة المولود وشراء ملابس باهظة الثمن لنفسها ولرضيعها. طلبت من راشد

أن يصبغ الغرفة باللون الأصفر وتفادت الألوان التقليدية للولد والبنت وكان ذلك قرار استراتيجيًا لإرضاء سرجون.

ازدادت آلامها مع دخولها المرحلة الثالثة، وتورمت أطرافها الأربعة مع انفها المصقول وشفتيها المنحوتتين، أجبرها الطبيب أن تبقى طريحة الفراش للمدة المتبقية وعمل فريق كامل على تدليك ساقيها وقدميها المنتفختين. ظهر هذا كبؤس لعين الملك وحاشيته من الرجال لكن تمارا مرت بأسعد لحظات حياتها عندما شعرت بالجنين يرفس ويلكم ما حوله فبرز كوعه في مرة وقدمه في مرة ثانية مما جعل نومها عسيرًا.

أما الملكة الأولى فكانت في زيارة مستمرة لجناح تمارا وكانت تسمع آخر الأخبار من الخدم وابنها، وفي وقت فراغها حاكت بدلة زرقاء لنوم المولود القادم طرزت على صدرها تاجا ملكيا ذهبيا وأهدتها إلى تمارا قبل أسبوع من موعد الولادة. بدأت الكوابيس تلتهم أحلامها يوما بعد آخر، وزرع الأرق نفسه وراء عينيها المحمرتين، تقلبت في فراشها من جانب لآخر ممتنعة عن النوم على بطنها. سألها الطبيب عن الكابوس بعد أن فحصها جسديًا ولم يجد شيئا يدل على الخطر، ردت عليه وقالت «يبدأ الكابوس كل مرة وأنا أبحث عن طفلي في حديقة خضراء شاسعة، يتردد صوتي المذعور مع تغاريد العصافير وحفيف الأشجار. أجدُ بئرا مفتوحة تتوسط إحدى الحدائق فأركض نحوها بعجلة وأنا أنادي باسم ابني صارخة. تتردد صرخاتي على الصخر الندي ولم أكن أرى إلا جوفا اسود، يتعود نظري على الظلام والاحظ انعكاس أشعة الشمس على تموجات الماء، وهناك أرى جسد ابني مستقرا بلا حراك. أنادي بأعلى صوتي والعرق يسيل من جبيني مختلطا بزبد فمي، أتشبث بأصابعي ويتصلب ظهري عند حافة البئر وتتمزق أظافري وتسيل الدماء على الصخور الصلبة. وهنا استيقظ وأجد نفسي في بركة من العرق وأصابعي مغروسة في الفراش الندي وحلقي ناشف وحنجرتي تؤلمني بشدة». استقر الطبيب بجوارها ووضع يده على جبينها بحنان وقال لها أن مشاكلها نفسية وليست

جسدية ويمكنه اقتراح طبيب نفسي يستطيع زيارتها في أقرب وقت ممكن. ثم سألها بنوع من الخجل هل أعلمت زوجها بهذا الكابوس فهزت رأسها بالنفي فربت على كتفها بأبوه وقال لها بما معناه انه سوف يعالج الموضوع بنفسه.

انقشع ضباب الكابوس بعد عدة زيارات من الطبيب النفسي وبعد تحليل أحلامها وعلاقتها بزوجها اقترح الطبيب وجود الملك ليخبرهما سويًا بأن المشكلة الرئيسة هي عدم معرفة جنس الجنين وعليها بالرضوخ للأمر الواقع سواء كان المولود ولدا أم بنتا. أعلمه سرجون أن من أهم شروط الدستور أن يكون ولي العهد صبيًا ولهذا فأن الوضع مشحون بسبب تكهنات الكاهن، ردد الطبيب ما سمعه سرجون من بقية رعيته بأن المولود هدية من الرب وتستطيع تمارا إنجاب المزيد من الأطفال في وقت لاحق فما زالت في عمر مناسب. هدأت أعصابه وتفادى الحديث بالموضوع مع والدته أمام زوجته، استمرت أمه بحياكة ملابس ولادية لحفيدها الأول. تبخر الكابوس من ذهن تمارا كليًا ونامت لثلاث ليال متتالية وعندما استيقظت مبكرة في الصباح، أدركت من حركة الجنين الهادئة بأن اليوم يوم المخاض، دونت التاريخ في فضاء ذاكرتها فسوف تصبح اليوم امًا.

جلس سرجون خارج غرفة تمارا محدودب الظهر يدعك ركبتيه براحتيه، وازداد هرمًا خلال بضعة أيام. حك صدغيه في آن واحد وتنفس الصعداء منتظرًا آخر التفاصيل من الطبيب، فلم تحبذ تمارا أن يكون معها وقت الولادة. احتضن صحيفة اليوم وطواها تحت إبطه وبحث عن فرصة مناسبة لقراءتها فحدق يمينًا ويسارًا طارقا لسانه بسقف فمه. غمغم مع نفسه ووضع الصحيفة على فخذه وعدل تجاعيدها بإبهامه ثم فتح الصفحة الأولى على مصراعيها. أن إحدى القواعد غير المكتوبة بين سرجون وراشد انه لا يحب قراءة خبر جديد في الصحيفة لا يعلم به مسبقًا، فالصحيفة بالنسبة له هي عبارة عن تلخيص لأحداث وافق بنفسه على طرحها للعامة.

انجذب بصره إلى عنوان المقالة الرئيسي «القبض على رأس الأفعى» وبجانبه صورة بالأبيض والأسود لرجل قصير القامة نحيلا يرتدي عصابة عين سوداء مكتوف الأيدي واقفًا بين شرطيين ضخمين مما جعل حجمه أقرب للقزم. عدل سرجون الصفحة ثم لفها بطريقة ليظهر الخبر لوحده ووضعها على بعد شبرين من انفه وباشر بالقراءة.

«تم صباح الأمس اعتقال زعيم خلايا الإرهاب (غ. ب) المسؤول الأول عن عدد كبير من العمليات الإرهابية في المدينة لعقد كامل. شنت الشرطة المركزية وفرق مكافحة الإرهاب بمساعدة كتيبة من الحرس الملكي عملية منظمة في مطلع الفجر وطوقت البناية المشبوهة في جنوب المدينة. تم التعرف على صورة للشخص من قبل العامة، مما دفع قواتنا بالتقدم وانتهاز فرصة نوم المجرم واعتقل وحيدًا في شقته. فتشت الشقة بالكامل وكان في حوزته أسلحة بيضاء بدون مبرر شرعي. لم يتم العثور على أي نوع من المخدرات، ولكن كان في حوزته كتب ممنوعة، حُوّل المجرم إلى مكتب الادعاء العام منتظرًا بقية الإجراءات القانونية. صرح المستشار الملكي أن القبض على رئيس المعارضة نصر ليس للمدينة فقط، بل نصر للسلام والمحبة وسوف يتم اجتثاث كل سرطان أو جرثومة تحاول أن تهز الاستقرار الأمني وعلى جميع العامة الاتصال وارسال تقارير عن كل شخص مشبوه. وأكمل الأستاذ راشد بأن العدالة سوف تنصف الجميع وسوف ينتظر قرار المحكمة بفارغ الصبر. وعندما طُلب من محامي المجرم التعليق رفض بشدة وقال إن المتهم برئ حتى تثبت أدانته.»

لم تتغير ملامح وجهه وعدل من جلسته ولمح بطرف عينه اسم كاتب المقال «فارس فارس»، قلب صفحات الصحيفة باحثًا عن الكلمات المتقاطعة التي يتمتع بحلها يوميًا فأخرج من جيب قميصه قلم الحبر الذي يفضل استخدامه على قلم الرصاص في حل الأحاجي. وجد المربعات البيضاء تنير الحبر الأسود وهناك سمع طرقات أقدام خفيفة تقترب منه فتنحنح مستعدًا،

ولكنه لم يرفع بصره عن الصحيفة. جلس راشد بجواره ومسح جبينه بمنديل ابيض طرزت الأحرف الأولى من اسمه عليها، «كيف حال الملكة يا سيدي؟» كان سؤاله ممزوجا بسلام.

ارخى الملك ذراعيه فانسدلت الأوراق على فخذيه محتضنًا كرشه ورد:

- «ما زلت بانتظار خروج الطبيب لقد مرت ساعة كاملة وهما في الداخل» رفع حاجبيه باتجاه الباب المغلق الذي لم يتسرب أي صوت منه.
- «على خير، أن الكاهن وزملاءه يصلون لها في المعبد وأمرت المكبرات الشعب بالدعوة والصلاة لتنهض الملكة بسلام» ردد راشد المعلومات كطالب يردد واجبه المدرسي عن ظهر قلب. نبض لسانه في داخله باحثًا عن نداوة ترطب تضاريسه.
- «هل قرأت المقالة؟» أغلق سرجون الصحيفة مؤشرا على الصفحة الأولى بسبابته آمرًا.
- «بالطبع لقد نقح خليل المقالة بعد بضع تعديلات من جانبي. ما رأيك؟» نطق حرف الكاف بنغمة عالية تدل على التفاؤل.

هز سرجون رأسه وشفتيه عاليًا بدون مبالاة فكان مهتما بما سوف يأتي لاحقًا.

- «لقد زرت مكتب مكافحة الإرهاب وقمت بمقابلة الشخص الحقير بنفسي، صدقني لو رأته أمه الآن فلن تعرفه، لقد ضربوه ضربًا مبرحًا. وجدته معلقا من قدميه متدليًا من سقف الغرفة وكلما ضجر شرطي من الضرب دعا زميله للانضمام إليه.»

قاطعه سرجون برفع راحة يده التي استقامت أصابعها وشَدّت عضلاتها رافضًا بما سمعه وقال:

- «أن غازي ليس بشخص حقير، بل هو خصم لي وكلما ازداد أعدائي كلما ارتفعت قيمتي لدى الشعب» ثم أكمل «وهو ند لا يستهان به فلقد

كان كشوكة مغروسة بيد الأسد تشل حركته ويبقى عاجزًا حتى يتم استئصالها.»

لم يستغرب راشد من مقارنة سرجون نفسه بالأسد فلقد كان ذلك تغيرا محببا بعد استخدام الطيور الجارحة كتشبيه لفترة طويلة من الزمن.

- «بماذا تأمر يا سيدي؟» سأله ماسحًا الزبد عن زاوية فمه وخرجت رائحة كريهة من جوفه.
- «عليه بأن يدفع ثمن الخيانة، يوفر معلومات مقابل رقبته، عليك أن تجعل منه عميلا لنا» طوى الصحيفة بين كفيه وضربها على فخذه.
- «بالتأكيد يا سيدي، ولكن ماذا أفعل إن امتنع عن الكلام؟»
- «ليلة واحدة في السجن تجعله يساوم أمه بلحظة واحدة.»
- «نعم سيدي.»
- «أسحق سنان الرمح ولا تكسر متنه» رد سرجون مغمض العينين.

وقف راشد محني الظهر وغض البصر احترامًا، مد سرجون ذراعه وسلم الصحيفة الملفوفة لمستشاره ورفع ذقنه عاليًا مؤشرا له بالرحيل. أصبح كالصنم يجلس أمام غرفة زوجته منتظرا تسرب أي خبر من الداخل. انتابه الملل كموجات تلاطمت على جفون عيونه فشعر بالنعاس يعشعش بين رموشه مبللا سنابلها وتثاءب بين الحين والآخر. أصبحت كل دقيقة تمر عليه كموسم كامل فذبلت أوراق روحه في دقيقة وحيت في دقيقة أخرى.

وهكذا فقد الوقت معناه الذي كان مهمًا بالنسبة له، فعدد في ذهنه ماذا يستطيع أن يفعل بكل هذا الوقت من اكل وشراب وممارسة الفروسية وتذكر انه لم يركب حصانا منذُ ثلاثة عقود، تساءل إن حان الوقت لكتابة سيرته الذاتية التي كان ينتظر كتابتها حين يصبح رجلا مسنا أو يجد كاتبا ليكتبها له. حاول أن يكتب السطر الأول في مخيلته الفارغة لكنه لم يستطيع أن ينسج ست كلمات مع بعضها وهناك وهو يصارع عقله تجاهل خطوات على إيقاع واحد تقترب منه. التفت فوجدها بجواره في أجمل حلتها، تبعثرت

الكلمات على وزن لسانه وعدل من جلسته وفرد كتفيه وسأل «أمي ماذا تفعلين هنا؟»

- «لقد جئت لأرى حفيدي الأول، هل اخترت اسما له؟» قالتها وهي تمص شفتيها فتجسمت خطوط حول فمها.
- «لقد اخترت اسم الولد بنفسي واختارت تمارا اسم البنت» قالها متفاديا مطبا آخر وهو يدرك جيدًا انه سوف يقع به ثم أكمل «ليث وامنية» واختلس نظرة سريعة بطرف عينه في لحظة نطقه للتاء المربوطة. تغيرت ملامح وجهها كأن التاء قد التفت حول عنقها تشنقها. جحظت عيناها من محجريهما ودلكت عنقها الغليظة.
- «أسماء جميلة على مسمياتها» قالتها بدبلوماسية وعضت على أسنانها كأنها تأكل طعام الكلاب.
- «شكرًا يا أمي» رد عليها مؤديا دور الابن البار.
- «ماذا سنفعل إن كان المولود بنتا يا ولدي؟» جرته من الحبل السري لتعطي سؤالها جرعة من الحنان.
- «لا شيء، لا اعرف عماذا تسألين؟»
- «عن السؤال الذي يطرح على عقول الناس ومسامعهم، لا يمكن لمدينة أن تحكم من قبل امرأة فلقد كتب والدك الدستور بنفسه.»
- «أن العقل يقول بأن ننتظر أخبار الطبيب وبعدها نقرر ماذا سوف نفعل، إن كان المولود بنتا فسوف تحبل تمارا مرة أخرى وتنجب ولي العهد في وقت لاحق وإن جاء ليث فستصبح كنيته ولي العهد منذُ اليوم.»

مرة برهة قبل أن تكمل الملكة الأولى جدالها، وهي تنظر إلى باب الغرفة منتظرة الهامًا يساعدها بأن تفتح موضوعا لا تحب أي أم أن تفتحه مع ابنها، فردت عليه «ماذا سوف نفعل إن لم تنجب أولادًا؟»

- «لا وقت للهراء يا أمي بالتأكيد أنها...»

- «ماذا سوف نفعل إن لن تنجب بطنها ولي العهد؟» قاطعته كالسكين وسألته مرة أخرى.
- «أغير الدستور بنفسي» رد عليها وابتعد جسده عنها نافرًا.
- «هل أنت مجنون؟ لا تستطيع أن تغير الدستور بفرشة رسام، سوف تصبح أضحوكة بين شعبك.»
- «وماذا تريدني أن أفعل؟» عقد ذراعيه فوق صدره.
- «عليك أن تتزوج امرأة أخرى» قالتها بفظاظة.

فتح فمه ولم يعرف كيف يجيبها واستدار خاتمه حول إصبعه عدة مرات، تفادى التسرع ونطق كلمات بذيئة لمعت في مخيلته. غمغم مع نفسه وقبل أن يفتح فمه خرج الطبيب من الغرفة. كان الطبيب متوسط الطول وعريض الكتفين وعاري اليدين، لمع شعره الخفيف على ضوء الممر الخافت وابتسم بشيء من الخجل عندما رأى الملكة الأولى بجوار ابنها. امتلأت صدريته بالدماء وتلطخ سرواله البني ببقع بمختلف الأحجام، حنى رأسه للملكة ثم سلم على الملك بحرارة.

- «مبروك يا سيدي، لقد جاءتك بنت هل لديك اسم جاهز؟» قالها الطبيب كأن لديه المزيد من الأخبار.
- «بالطبع، امنية، أحسنت صنعًا، كيف حال تمارا؟» رد على الطبيب وتحركت قدماه نحو الغرفة.
- «عفوًا يا مولاي قبل أن تدخل الغرفة عليك أن تعلم أن ولادة الملكة كانت عسيرة للغاية ولقد خسرت الكثير من الدماء واحتجنا لمعجزة لإنقاذ الطفلة، ولكن...»
- «ماذا؟» قالها وكل حرف يطعن لسانه، تفادى النظر إلى والدته التي تضاءل حجمها.
- «لقد أزلت الرحم بكامله لإيقاف النزيف وانقاذها.»
- «هل هي على ما يرام؟» قاطعه سرجون والتفاؤل ينبلج بين أسنانه.
- «الملكة تمارا بخير، ولكن...»

- «لن تنجب أطفالًا بعد الآن» أكملت الملكة الأولى الجملة ببرود.

شعر سرجون بالدوران وذابت عافيته بين أضلاعه رويدًا رويدًا كمكعب ثلج يذوب في قدح من الماء. ارتفعت الحرارة إلى رأسه ودخل إلى الغرفة تاركًا الباب مفتوحا على مصراعيه والطبيب وأمه خلفه. وجد تمارا ممدودة على فراش ملطخ بالدماء تمسح الدموع بطرف ثوبها وامنية ترضع من نهدها بسكينة. تفادى المناشف الدموية والممرضات وقبل زوجته من جبينها، لفت تمارا خنصرها حول إبهامه وضغطت على جفنيها وعليه في آن واحد. رأى سرجون لأول مرة الوحمة على ساق امنية وهناك قرر بأن ابنته سوف تصبح الملكة الحاكمة في يوم من الأيام.

♦♦♦

١٠

انقشعت الغيوم الرمادية عن المدينة مطلع الفجر وشقت أشعة الشمس طريقها معلنة بداية يوم جديد. تنفست الأرض الصعداء، وخرج بخار من تربتها المرتوية كسراب خيالي على قرص الشمس الأحمر. ارتفعت درجات الحرارة التي اسُتقبلت بسعادة من قبل سكان المدينة، نشفت جدران البنايات وتلألأ سعف النخيل وثمارها مذكرًا الناس بجمال الشمس وأهميتها. الحاجة للشمس والمطر من أهم متطلبات الحياة اليومية بالنسبة لسكان المدينة، فعندما يُحصد المحصول يشكر الرب في المعبد بتضحية كبش فداء سنويًا. تبخر معظم الماء من التربة كضريبة دفعتها الأرض من أجل بضعة أيام من المطر. انشقت شروخ عمودية على وجهها وانعقفت زواياها عاليًا كأنها تخوض مظاهرة ضد الشمس ولكل مظاهرة متضرر ومستفيد. وهكذا مشى موكب من النمل بلا مبالاة عبر تعرجات التربة اليابسة يحملون بيضا مدورا فوق رؤوسهم.

تحركوا ككتيبة جيش واحدة تلو الأخرى لا يعلم من يشاهدهم بالعين المجردة من أين جاءوا وإلى أين يذهبون، هل هم لاجئون، أم مهاجرون أم سكان الأرض الأصليين. قادهم رأس الحربة بصرامة وتحرك اتباعه مقلدين سرعته وإيقاعه بالمشي. سيل من النمل على مدى البصر يتدفق من باطن الأرض الساخنة ولمع ما حملوا فوق رؤوسهم كلؤلؤ. حاولت امنية حزر اتجاههم فتحركت بعض خطوات في كل اتجاه متفادية السقوط في المسبح. كان سطح المسبح هادئًا وتألقت أرضيته الزرقاء بلون الياقوت عكست

توهجات على جانبي المسبح، شكلت قطع من القرميد الأحمر أسم الأميرة في قعر المسبح. وقفت امنية مرتدية لباس سباحة أصفر اللون تداعب موكب النمل بغصن استعارته من شجرة مجاورة، انسدل شعرها المبلل لجهة واحدة وكانت تعدل من لباسها كلما دخل القماش بين ثنايا فخذيها. سحبت نملة واحدة عن زميلاتها وحركتها جانبًا وشعرت امنية بهلع المخلوق الصغير من حركتها السريعة وهي تدور حول نفسها. استخدمت الغصن كطعم ووضعته أمام النملة التي تسلقت بعجلة تبحث عن موكبها. تمشت امنية بحذر متفادية كرسيها الأبيض ومظلة حمراء غطت بما وضع تحتها بظلها الذي انتهى عند حافة المسبح.

لسعت حرارة المرمر قدميها الناعمتين فعقفتهما وتمشت على رؤوس أصابع قدميها. لونت أظافرها بلون داكن تلائم مع لون بشرتها وتبللت أناملها وهي تقترب من حافة المسبح فتمتعت بنداوة الماء وحكت قدميها ببعض متحملة حرارة المرمر. أخذت الغصن بقبضة أنثوية وغمسته في الماء رويدًا رويدًا وتفرجت كيف ركضت النملة بعيدًا عن النهاية المبللة. تدفقت الأثارة في شرايينها وتوسع بؤبؤا عينيها وأنتصب شعر ذراعيها، لطعت شفتيها الناشفتين مرتين وضرب طعم الملح لسانها بلكمة فشعرت بالعطش ونشفت عروقها بعجلة وتمنت لو كان باستطاعتها شراب ماء المسبح البارد بأكمله كالجمل.

ضجرت من اللعب بالغصن وغمسته كليًا وكلما تغير لون الغصن كلما تصاعد الحماس في دمها وتركته يطوف على سطح المسبح، أضاعت النملة لبرهة وحدقت بتركيز شديد فأتخذ حاجباها مظهرا شريرًا وتسمر قدماها في مكانها وانتصبت عضلات فخذيها كأنها تستعد للجري. وجدتها تطوف بجانب بيضة مدورة بلا حركة ودفعت بهما تموجات الماء بتمهل نحو جدار المسبح الندي. ورجعت إلى كرسيها لتتشمس بعد أن طمست قدميها بالماء وأحست بحرارة المرمر كالجمر تزداد كلما اقتربت من المظلة.

تمددت على كرسيها وقاطعت سيقانها فوق بعض وطوت أصابع قدميها عدة مرات ووضعت ذراعيها تحت رأسها. كانت قصيرة القامة لكن ملابس السباحة أطالت من ساقيها. لم تعتد على هذا الترف، حتى لو كانت أميرة فلقد قضت معظم وقتها في غرفتها خلف مكتب الدراسة. لكنها قلدت ما رأته في الصحف والمجلات من مدن مجاورة، فوضعت قبعة شمسية فوق رأسها واغمضت عينيها لترتاح. ارتفع صدرها مع كل نفس وترك القماش الأصفر فتحة صغيرة تظهر واديا ضئيلا بين نهديها. رفرف قماش المظلة على نسمة هواء باردة حملت معها رائحة المسبح العذبة فلمست روحها وهدأت من روعها وذكرتها بجمال الطبيعة، أن اخضرار الأشجار يهذب الأخلاق والروح في آن واحد. سحبت دفترا وقلما من تحت المظلة وأرادت تثبّت الجمال الذي يطوقها على الورق.

حلقت فراشة التعب حول جفنيها وهي تحاول رسم زهرة عباد الشمس فوضعت خطوطا رصاصية وهمية على الصفحة السمراء، وعندئذ استرخى جسدها وتبخر التعب من أنامل قدميها، أغلقت امنية جفنيها وشعرت بلحاف الشمس يحتضنها كليًا. طارت شعرة حمراء من إحدى خصائل شعرها ورقدت على وجنتها الندية فذابت امنية في وهج الطبيعة وأحست بنسمات الهواء ودفء الشمس وطنين البعوض وملح الصيف. سقطت في فخ النعاس كأرنب واستسلمت بكل عواطفها لأمير النوم فدفعتها غريزتها نحوه، أرتفع القلم والدفتر مع نهديها كلما تنفست ببطء وانتفخت شفتاها مع كل نفس منتظرة قبلة من أميرها.

وقف سرجون بجانب نافذة في مكتبه ينظر إلى المسبح حاسدًا امنية على نومها بطمأنينة بين نباتات الحديقة وهدوء الماء الأزرق. لم يذق جسده طعم النوم منذُ هذيان والدته، فلقد كان اعترافها بركانا شطر الأرض وزلزال هزَّ كيانه منذُ تلك الليلة. «كيف لم أصغ لهذيانها من قبل؟» تردد هذا السؤال في وجدانه على مدار الساعة وتدفق الذنب ببطء في شرايينه وأعضائه حتى

استحوذ عليه كليًا. قضى سرجون الليلة بشرب النبيذ في مكتبه محاول إيجاد طريقة لاثبات ما قالته والدته ولكنه شك بأنه هذيان الحمى فقط وبعيد عن كل حقيقة علمها منذ الصغر.

لكن الخمر واضطراب النفس لا يمتزجان معًا ولا يصلحان لبعض فخاف سرجون وأكله الوسواس مع كل لحظة. أضاف إلى ذلك الشعور بالمؤامرة الموجود في قلب كل من سكن المدينة من أفقر إنسان إلى أغناهم ولم يختلف الملك عنهم فجلس على كرسيه يعد كل أعدائه وكل من يرغب بإطاحته من العرش. أن فكرة الانقلاب مزروعة في قلب كل طاغية يخاف من شعبه فهو في سباق مع الزمن ليحتفظ بالعرش، فبعد أن ذاق الإنسان جبروت الحكم والسلطة فكيف يقبل أن يحكم من قبل شخص آخر. لذلك يقوم الحاكم بنشر الإشاعات من وقت لأخر والبطش بشعبه ليذكرهم بمكانهم في السلسلة الغذائية فهو الأسد وهم الفئران.

«ماذا أفعل يا إلهي» غمغم مع نفسه واضعًا ذراعيه على المكتب مدلكا صدغيه بأنامل أصابعه. «البحث عن كل من لديه وحمة تشبه الوحمة الملكية، ما هذا الهراء؟» ترك الخمر مرارة أزلية في فمه لم يستطيع إزالتها لكنه فضل الخمر على أي شيء آخر، أن يبقى في حالة سكر ويشعر بسراب يغلف كل قرار ويخلي كل مسؤولية تقع على عاتقه أفضل من أن يكون واعيًا بكل ما يدور حوله من جنون. «هل من المعقول أن لدي أخت لا اعلم بما حصل لها ولا اعرف مصيرها، تعيش بين العامة تأكل التمر وتشرب ماء الينبوع ولديها عائلة وتعتني بأطفالها؟»

قالها في ذهنه وانبعثت الحيرة في أحشائه فتكونت بحيرة سبح الشك فيها، وكلما أخذ رشفة من النبيذ وسأل نفسه الأسئلة تكرارًا رمى حجارة التردد في بحيرة أحشائه، ورأى تموجاتها تنعكس في وجدانه. شعر بالقشعريرة كلما تذكر ليلة الأمس وعينا أبيه الثاقبتين الممتحنتين تنتظران جوابًا لسؤال وجودي ليس له حل كقفل بلا مفتاح. جاءته فكرة دون تحذير تركت فمه

مفتوح وأربكته فعليًا، «ماذا لو قمعت أختي كبقية نساء المدينة على أيدي الشرطة والجيش، يا إلهي» لمعت فكرة الدعاء لربه في قلبه للحظة لكن عقله استهجنها وذكره بأن الدعوة عديمة الفائدة وأن أراد معجزة لإيجاد شقيقته فعليه بالتأكد بما قالته والدته، استند على مكتبه وبحث عما تبقى في جذعه من طاقة متجهًا نحو غرفة الملكة.

«أن الوحمة الملكية نقمة وليست بنعمة هذا ما لا يعرفه الجميع، أن تكون قدوة لشعب مسؤولية كبيرة. لقد نسى الشعب تعب والدي الذي شقي طوال حياته حتى استطاع أن يوحد العشائر والقبائل فصهرهم وصنع شعبا مثاليا واحدا، تستطيع أن تقودهم كقطيع عبر العصور بلا ثورة أو انتفاضة. لدى الإنسان قدرة فذة على النسيان فينسى كل ما هو عسير ويتذكر كل ما لمس روحه وأطاب نظره. لكنني لن أنسى كراهية الناس وسخريتهم مني حين كنت وليا للعهد، أصارع وجداني الذي سقاني من قدح النسيان، ولكنني تشبثت بذكرياتي قدر المستطاع رافضًا كل غريزة تأمرني بالتخلي عنها» خاطب سرجون نفسه متجهًا نحو جناح أمه التي لم يتوقف صراخها حتى منتصف الليل وأنتشر صدى أنينها في ممرات القصر كضباب ثقيل يزحف فوق الأرض. خرج صوت مخيف من قاع صدرها ينبه المرء بأن أيامه معدودة بين السماء والأرض.

«لماذا» سؤال الشك الذي طعن يقينه منذُ الأمس، سؤال خاف الجميع منه سالبًا جميع أعضاء العائلة الملكية سلامهم المفترض. وبعد لماذا جاءته «كيف» سؤال أصعب من الآخر وترددت مقولة أستاذه ان فهمت السؤال فهذا نصف الجواب. «كيف يتنازل الإنسان عن أطفاله وهم خلاصة نسله من دمه ولحمه، فلا تفعلها إلا الحيوانات ولا بد أن هنالك حكمة في قرار والدي». كيف ولماذا سؤالان يدوران في دوامة جرت سرجون لقعرها فوجد نفسه يشك في صخب الماضي. سجين لقرارات أبيه وطليق لقدر الحياة فلا توجد زنزانة يتسع حجمها لحبس تأنيب ضميره فيها.

«كيف أتمكن من التوجه نحو المستقبل وانا ما زلت في صفحة الماضي الحزين» تساءل مع نفسه وقدماه منغرستان بانتفاضات الماضي كرمال متحركة تجره نحو جوفها الدافئ وكلما تقدم خطوة إلى الأمام رجع خطوتين إلى الوراء، لذلك وجد سرجون نفسه في ركود تراكمي نفسيًا وجسديًا.

تهاوت الأسئلة على رأسه واحدة تلو الأخرى وسلبته وقاره وجزءًا من بريقه الملكي، فمشى محدودب الظهر حتى وصل إلى باب غرفة والدته متأملا بين ازدواج الماضي وانتقاضات الحاضر. وجدها نائمة على ظهرها وغطي معظم جسدها بلحاف أبيض، فمها مفتوح وذقنها مسترخ على طرف اللحاف. شك في البداية أنها على قيد الحياة إذ أصبحت بشرتها بنية بظل أزرق وتصلبت أنوثتها حول فكها، لكنها أخرجت صوتًا لحظة جلوسه بجوارها. لم ينتبه أنها تناديه باسمه فاعتبر ما خرج من فمها تأوها وأنين، لكنه أقترب منها عندما وجد نمطا في صوتها «سرجون» قالتها من بئر جوفها.

جلس على حافة السرير ووضع يده على جبينها وقال لها «أنا هنا يا أمي» تفادى النظر إلى صورة والده المعلقة فوق السرير. ابتلعت ريقها ولطعت شفتيها ثم قالت «سرجون أنا لا اكذب عليك.»

- «أعلم بذلك يا أمي، لا تتعبي نفسك، عليكِ بالنوم» تفاجئ سرجون من مقاومتها لمخدر الطبيب.

مسد على شعرها وداعب المساحة بين حاجبيها بإبهامه وهزت رأسها موافقة على أوامره. رد وجلس على كرسيه المجاور لفراشها وهو في حيرة من أمره. «هذيان أم أنها بين اليقظة والنوم» تساءل مع نفسه عندما رأى راشد يدخل الغرفة باحثًا عنه.

خفض رأسه احترامًا ومشى بخطوات خفيفة لا تتلاءم مع بدانته وجلس بجوار سرجون حاملًا معه التقرير اليومي. «لقد قالوا لي أنك في غرفة الملكة. هل مازالت تصرخ؟»

- «كلا لكنها مازالت تعيش بين آلام الماضي» قالها سرجون وأحنى ظهره إلى الأمام ووضع يديه على خديه حائرًا ثم سأل مستشاره ما صهر صدره «هل باستطاعتنا البحث عن أختي؟» رنت كلمة أختي على لسانه بصعوبة فلقد قبل عقله ادعاءات أمه ورفض قلبه إنكار جرائم أبيه.
- «من الصعب...» وعض راشد لسانه وتذكر القاعدة الأولى التي تعلمها من الملك الأول «لا تقل كل ما كان يعتمل في قلبك» ثم صحح راشد نفسه وقال «بالتأكيد يمكنني أن أسأل في المستشفيات وملاجئ الأيتام وحتى العمال والخدم القدامى.»
- «تُحسن صنعًا» رد سرجون واختلس نظرة نحو والدته ثم رفع رأسه وحدق بعيون أبيه بعناد ثم أكمل «ماذا هناك في التقرير؟»
- «نعم سيدي، لقد أخبرني عميلنا أن المعارضة على وشك بعث رسالة مشفرة وسوف نحاول اعتراضها قبل أن تقع بيد عناصر المقاومة. لقد طلبت من غازي باستعجال الأمور و ...»

قاطعه سرجون برفع اليد وقال له «كل شيء في وقته لا تستعجل فليس هذه أول مقاومة أو آخرها. هذا الدرس الأول الذي تعلمته حين كنتُ وليا للعهد.»

استغرب راشد من صراحة مولاه فلم يره بهذه الشفافية من قبل وعلم أن الموت يطوف بين دهاليز القصر وليس هناك ما يذُل الإنسان ويرجعه متواضعًا إلى مكانه غير الموت.

- «هيا! أودُّ أن أزور الطبيب بنفسي تعال معي، يمكننا الكلام عن بقية الأمور في طريقنا» قالها سرجون بشرود.
- «نعم سيدي.»

وقفا وقبل سرجون والدته من جبينها مودعًا وخرجا سويًا تاركين الباب مفتوحا ورائهما، أبتعد صدى خطواتهما مع كل لحظة ولم يبق إلا خشخشة

تخرج من صدر الملكة. وبعد برهة اقتربت خطوات مترنحة مكتومة نحو الباب ووقفت الأميرة امنية تفرك جفنيها وتتثاءب في آن واحد، عقدت خصلات شعرها المبلل خلف رأسها فأزداد وجهها جمالًا. تركت خطواتها بصمات ندية على بلاط الأرض تتبعها حيث جلست على الكرسي وتمعنت بجسد جدتها الهش ومع كل نفس صعب أخذته الملكة ارتخى جسد امنية متضامنًا.

ارتدت فستانا أحمر مغطيًا أنوثتها وعلى ملابس السباحة في آن واحد وعندما وضعت ساقا فوق آخر ارتفع الفستان وظهرت ركبتاها النديتان. تحسست امنية النتوءات حول ركبتيها وهي تفكر «أنتِ سبب المشاكل والشؤم في هذا القصر» قالتها في وجدانها وهي تحك بخشونة، « لو متِ اليوم لن يشتاق لكِ أحدًا.»

ترك النعاس غشاوة على عينيها فبقت مرتبكة بين النوم وأحلام اليقظة. رأت في مخيلتها أنها تحبو نحو فراش جدتها تضغط على أسنانها والزبد يتكتل على زوايا شفتيها. جرت نفسها بمخالبها وصرخت بصمت يتأوه من قاع أحشائها وهي تقترب من فراش جدتها والنداوة تتبعها كظل في غرفة مشمسة. «سوف يزول توتر أمي ويرجع أبي إليها» لمعت الكلمات في خلدها كنجوم ساطعة وتوقفت عند حافة الفراش وأخذت وسادة بحجم ذراعها وغرست أظافرها بجانبيها، مالت بجانب جدتها وأحنت ظهرها والشر يشده كالوتر، ارتكزت ركبتيها على الفراش وشعرت ببرودة امتصها جسدها بعطش.

رنت طبلتا أذنيها وهي تنظر إلى وجه جدتها المسالم وقالت «نامي إلى الأبد.»

◆◆◆

وجد ربيع نفسه ضائعا بين طيات الماضي وموجات المستقبل في مستشفى المدينة منتظرًا استيقاظ جدته من الغيبوبة. وضعت جدته في غرفة مجاورة لقسم الطوارئ تحت عناية مركزة، وقسمت الغرفة إلى أربعة أقسام. انفصل كل قسم عن الأخر بستارة زرقاء خفيفة الوزن. كلما سمع ربيع حفيف الستارة تفتح أو تغلق علم بوجود طبيب أو ممرضة في الغرفة، شعر بالطمأنينة لوجود كادر متخصص بمشاكل كبار السن. كانت هذه زيارته الأولى للمستشفى وأعجب بحجمها وجمال الطبيعة حولها، توازي نوافذ المرضى بستانا على طول المستشفى. اختلفت الأشجار حجمًا ونوعًا من النخيل إلى أشجار الليمون والزيتون والرمان، ثمة شجرة تين ضخمة في زاوية تحوم الطيور حولها بفرحة بعد أن تتذوق حلاوة التين المدمنة. وعندما سأل إحدى الممرضات هل هناك حكمة في تصميم كهذا، إجابته بهزة رأس وأضافت بأن من كهل جسده ووصل إلى عمر الشيخوخة تجد روحه هدوء وطمأنينة بمنظر الأشجار والحيوانات فينسى الإنسان الموت الذي ينتشر بين دهاليز المستشفى كالعدوى وينشغل المرء بهوايات عشقها منذُ الصغر.

وضعت صور للعائلة الملكية في صالة الاستقبال للمرضى وأقربائهم وصورة لسرجون في بداية كل قسم، حظيت المستشفى بحصة الأسد من ميزانية المدينة لكل عام وتقول المتداولات أن الملكة الأولى أمرت بذلك خوفًا على صحتها. ومع ذلك ثمة تجارة حتى في الموت إذ وضعت إعلانات حول المستشفى تذكر السكان بمكرمة الملك عليهم وتذكيرهم بالدعوة إليه خلال أيام الحداد على موتاهم. شيدت المستشفى في الجزء الغربي من المدينة مما جعل انعكاس أشعة الشمس على نوافذ البنايات مبهرًا فيتلألأ الزجاج كموجات البحر صباحًا ويلهب باطن الغيوم الطويلة الرفيعة بالأحمر تدريجيًا وترك المنظر بهجة في قلوب المرضى الزرقاء.

أسند ربيع جبينه على زجاج النافذة وهدأت روحه على برودة انتشرت في جسده، حتى رأسه وشاهد الناس يدخلون ويغادرون المستشفى عبر زجاج

عازل للصوت. رأى عصفورا ضئيل الحجم يلحق بسرب حمام مشكلًا رقم ثمانية «يا لهم من محظوظين يستطيعون الهجرة كما يحلو لهم» قالها في وجدانه. انعكست تعاسة وجهه على الزجاج وأندمج خيال جسده بأشجار البستان ولون سعف النخيل بقميصه الأبيض. طرق الزجاج الغليظ بطرف سبابته وتمنى لو كان باستطاعته أن يحلق مع الحمام فوق المرضى وأقربائهم تاركًا كل شيء خلفه، يحوم الأرض ويأكل من خيراتها عابرًا الحدود الإنسانية المرسومة كما يحلو له. حلق نحو الشمس مرفرفًا بجناحيه وداعبت نسمة ريح خصله شعره وامتدت القشعريرة على جسده وأنتصب شعر ذراعيه وأطراف أصابعه، فتحت الممرضة الستارة وأخرجته من أحلام اليقظة كالبرق الخاطف.

وقفت بجانب الأجهزة الطبية التي رنت بمختلف الأصوات بانتظام ثم كتبت بعض الملاحظات على استمارة عُلقت بجانب السرير. وضعت يدها على جبين جدته ثم طرقت لسانها بسقف فمها، أحنت ظهرها وأخرجت جهازا لفحص الضغط من درج مجاور. مكث ربيع بجوار النافذة يشاهد الممرضة تضع سوارا حول ذراع جدته ببساطة ثم نفخته بمنفاخ بحجم يدها حتى أغلقت الشريان تمامًا، أنصتت بواسطة سماعة طبية عند مفصل المرفق. انتظر نتيجة التحليلات كما تنتظر الحبيبة رسالة من عشيقها ورأى الممرضة تبتسم عندما خفضت الضغط بتمهل وسمعت تدفق الدم في الشريان مرة أخرى. رجعت إلى استمارة الملاحظات وكتبت بعجلة أرقاما رمزية لا معنى لها بالنسبة له.

رفعت بصرها نحوه وقالت «أن جدتك سعيدة الحظ، أن ضغطها أفضل من ضغطي»، أعادت الورقة إلى مكانها ووضعت القلم في جيب صدريتها.

- «متى سوف تستيقظ؟» سألها متجنبًا المجاملات.
- «سوف يزورك الجَرّاح قريبًا ويطلعك على كل شيء» قطبت حاجبيها ولم تتحرك شفتها العلوية.

تنبأ ربيع بأن هناك أخبارًا سيئة بانتظارهما، إن كانت هنالك ثغرة لم يملأها الاكتئاب والملل فلقد عجت بالشك والذعر. أغلقت الممرضة الستارة خلفها وفتحت واحدة أخرى في نفس الغرفة متحركة من مريض لآخر كما يتحرك المزارع لحلب الأبقار في مزرعته. يشعر المريض بالرفاهية حينما يرى الممرضة بحلتها البيضاء وابتسامتها الملاكية بعد الانتظار لعدة ساعات مفرغًا كل ما في صدره إليها متذمرًا من التدخل في طعامه وشرابه والضجر القاتل الذي غرق جميع المرضى فيه.

أنجذب نحو سرير جدته وشعر بثقل في قدميه، جلس على المقعد بترهل وتقاطعت ساقاه إلى الوراء عند الكاحل وأحنى ظهره متقدمًا وانضمت ذراعاه حول صدره. استقر الصندوق الذي وجده في الحديقة بجواره غطاءه مفتوح كهمزة وصل بين الماضي والحاضر. تطلع إلى الصور وما تبقى من قطع لأحجية الصورة المقطوعة وألعاب لطفل داخل الصندوق. كانت أشياء عزيزة على قلبه في وقت قد مضى وتمنى لو كان لديه فهرس حتى يرتب ذكرياته المتشتتة وينسقها حسب حقبة زمنية معينة. هدأ الغبار في زوايا الصندوق الذي أصبحت جوانبه سوداء وعندما حكها ربيع بخنصره تكلس الرماد تحت أظفره.

رنت الأجهزة الطبية وتراقصت أرقام على شاشاتها بمختلف الألوان بنمط ممل. خرجت الممرضة من الغرفة بعد أن أغلقت ستارة أخرى خلفها. تحولت الأحاديث إلى همسات خلف الستائر ورغب في أن يكون بمقدوره التصنت على جيرانه فلقد امتلأت أوردته بالملل والذعر في آن واحد. أراد أن يدعو ربه كي يشفي جدته من كل ما هو مكروه، ولكنه لم يعرف كيف يبدأ، فأغلق عينيه وأحنى جذعه واضعًا رأسه بين يديه وقال في خلده «يا ربي أعرف أن إيماني ضعيف، ولكن لم يبق لدي خيار آخر، أعاهدك أن أصبحت صحة جدتي جيدة سوف أصلي يوميًا وادعو مع شروق الشمس وغروبها. كل ما أريده

منك أن تجعلها تنهض وتتعافى وترجع كما كانت، جدتي التي أحبها» عض على شفتيه واستقام في جلسته ومسد على ركبتيه في آن واحد.

ارتعشت شفتاه مع رنات الأجهزة المجاورة وقال بخشوع «يا رب! يا إله الشمس والأرض، دعها تنهض بسلام، خذ جزءا من عمري كعربون بيننا، يا رب دعها تعود إلى ديارها بالصحة والعافية» تبللت عيناه بالدموع مع لفظ التاء المربوطة. أطلق العنان لنفسه وصهلت روحه عبر صحراء مشاعره ونزلت الدموع على وجنتيه. فُتح باب الغرفة وأغلق فمسح وجهه بكم قميصه، اقتربت الخطوات نحو الستارة الزرقاء رويدًا رويدًا ثم فتحت برقة وبشفافية مطلقة، دخل الجَرّاح بصمت وأغلق الستارة خلفه.

تبادلا المجاملات بصوت خافت وتوقف الطبيب ليقرأ الملاحظات المكتوبة، عكست استقامة ظهره الأرقام التي نقلت الأخبار بدون مشاعر. كان متوسط القامة، عريض الكتفين وبرزت عضلات كتفيه عبر ملابسه الزرقاء التي التصقت حول خصره، تصلبت الشرايين حول ذراعيه وتضخمت حول المفصل كأنهما قُدّت من حجر. امتد الجبروت ليديه التي كانتا مثاليتين لجَرّاح، أصابعه طويلة نحيلة وقلمت أظافره بعناية فأعطت الشعور بأن قبضته محكمة من الفولاذ.

أخرج الطبيب نظارة القراءة من جيب قميصه وقرأ الملاحظات ولوح برأسه مع نهاية كل فقرة، أضاف إطار النظارة الشفاف من رهبة الجَرّاح لدى ربيع الذي انتبه لنعومة أذنيه وانفه المصقول. وتمنى لو كانت لديه بشرة نظيفة وسليمة المنظر، سحب ربيع كمي قميصه الأبيض وأنتظر الجَرّاح والصبر يتسرب من فؤاده. وفي تلك اللحظة وقف غراب على إطار النافذة يرمق الغرفة بعينيه البراقتين، تقدم الجَرّاح نحو ربيع وتغيرت مشاعره بعد أن وضع الملاحظات في مكانها، عبس حاجبيه وعدل نظارته بسبابته.

جلس بجوار ربيع وتجاهل الصندوق ومحتوياته وأحنى ظهره مقتربًا بحكمة ووقار. وضع الطبيب ساق فوق ساق وعقد أصابع يديه معًا.

- «عفوًا هل أنت من أقربائها؟» سأله الطبيب محاولا أن يحكم على ربيع.
- «أنا حفيدها الوحيد. هل هي بخير؟» تمتد الشجون على سؤاله.
- «لقد سقطت سقطة قوية ونجت منها بأعجوبة وكانت محظوظة عندما لم يرتطم رأسها بحافة حجرية أو صخرة، لكن وركها قد انكسر والغضروف في ركبتيها مهترئ. هل تعلم أنها كانت تأخذ أدوية كثيرة؟» سأله الطبيب ببرودة أعصاب.
- «كلا هل هي بخير؟» سأله ربيع باحثًا عن جواب مختصر بنعم أو لا.
- «لقد كانت تأخذ أربعة أدوية في آن واحد وأحدهما يسبب ضعفا في العضلات، هل تعلم أن ٢١٪ من كبار السن يسقطون بسبب اختلال التوازن كل سنة.»
- «ما هذا الهراء» قالها ربيع في خلده وهز رأسه موافقًا.
- «على كل حال بعد أن تنهض جدتك من المخدر، سوف نضعها بكرسي للمعاقين، يمكنك استئجار أو شراء واحدا بعد دفع فاتورة المستشفى» ربت الطبيب على كتف ربيع ووقف مستعدا للرحيل، رأى ربيع انعكاسه على نظارة الطبيب والحيرة مرسومة على وجهه.
- «عفوًا، ماذا تعني بكرسي للمعاقين؟» أحسَّ بأن القدر قد غدره مثل كل مرة لكن كلمة معاقين تركت لسعة جمر في فؤاده.
- «أن جدتك كبيرة في السن ولن تتعافى من مضاعفات العملية لفترة طويلة فعليها أن تبقى طريحة الفراش أو التنقل بكرسي متحرك، عفوًا لدي الكثير من المرضى. إن كان لديك سؤال أخر فأسأل الممرضات وداعًا!»

سلم الطبيب ومد ربيع ذراعه المرتخية وأنسحب الدم منها فبرزت خطوط يديه كأنها مقطوعة بالسكين. خرج الطبيب بعجلة ودخلت الممرضة

مرة أخرى وبيدها فاتورة المستشفى وأسعار تأجير الكرسي من صيدلية قريبة، رأته جالسًا على الكرسي صامتًا يحك ذقنه بطرف أصبعه فقالت له:

- «لا تزعل لقد عملت في هذا المجال منذُ مدة طويلة ورأيت مآسي أعظم وظروف أصعب من موقفك، عليك بشكر الرب من أنها لم تمت من البرد أو مضاعفات العملية، أن هذا الرجل أفضل طبيب في المدينة وهو جَرّاح الملكة الأولى ويعمل في المستشفى العمومي ليوم واحد فقط وكان من حسن حظك أنه موجود عندما جلبت جدتك.»

تفادى ربيع النظر إليها وراقب الغراب وهو يداعب ريشه بمنقاره ولمعت عيناه بشكل مريب، ثم سألته الممرضة «هل تحب التمر؟»

- «بالطبع» إجابها بعفوية فمن لا يحب التمر في مدينتهم.
- «ممتاز أن الحياة كالتمر، لذيذ الطعم بكل أشكاله وأنواعه والبعض يفضل نوعا على الآخر، ولكن كل منا يعلم جيدًا أن يتفادى النواة كي لا تؤذي أسنانه. هل عضيت على نواة في يوم من الأيام وامتنعت عن التمر لمدة طويلة في حياتك؟ كلا فإذن عليك بالاستمتاع بحلاوة الحياة والتعود على تفادي الصعاب والإيمان بالرب عند المرور بظروف صعبة.»

أعطت الفاتورة لربيع الذي اشتهى التمر فجاءة وشكرها على خدماتها. قالت له الممرضة وهي تستعد لأغلاق الستارة «إن احتجت إلى مساعدة باختيار الكرسي تعال إلى هذا الجناح وأبحث عني، سوف أنصحك بمميزات كل واحد وأسعاره». أغلقت الممرضة الستارة خلفها وتأمل ربيع مستقبله وطرح السؤال الأزلي نفسه كيف يستطيع دفع كل هذه الفواتير فهو في نهاية المطاف شاب يعمل في صحيفة يكتب الأحاجي اليومية بسعر بسيط. رنت الأجهزة الطبية كالمعتاد وتحسر ربيع على وضعه، ووجد الغراب مازال يحدق به من خلال النافذة الكاتمة.

نهض ربيع متنهدًا وتحرك بخطى خفيفة نحو الشباك الذي عزله عن الحقيقة الجديدة في حياته، أن جدته تعتمد عليه كليًا الآن. جلس الغراب يحدق إلى انعكاسه ولم يشعر باقتراب ربيع من حافة النافذة. تمعن ربيع بقبح هذا الحيوان العجيب، أسود الريش مرتديًا عباءة الليل ومنقاره حاد معقوف كأخلاق الجَرّاح، أما عيناه فكانتا أشبه بخرز براقة مع حركة رأسه الدائمة. مال بجسده على النافذة وأسند جبينه على الزجاج البارد متأملا الغراب الذي لم يره على الأطلاق. رفع رأسه نحو الأعلى وتطلع إلى الشمس الدافئة والغضب يفور في أحشائه كالبركان.

«لماذا يا إلهي، لماذا» تسـاءل ربيع في خلده وترك جبينه بقعة دهنية على النافذة. «أين العدالة يا إله الشمس الم تجد امرأة أخرى تسرقها من أهلها، ماذا سوف أفعل دون جدتي؟ الم تشبع من نهش لحم الفقراء والضعفاء، ألا تتعب من امتحان المرء، كيف سوف تعيش وهي عاجزة عن الحركة؟ أن قلبك قاس، ولكن صمتك له صدى أقسى من كل عقوبة نزلت بها على عبادك. الم تصل جدتي بما فيه الكفاية، لقد قضت معظم حياتها وهي تدعو لك وتطلب غفرانك صباحًا ومساءً. ماذا سوف أفعل؟ عليك اللعنة تشرق شرقًا وتغيب غربًا وتحلق في سمائنا بدون كلمة واحدة لعبادك، أنك لست بكريم، بل بخيل بكل المشاعر الإنسانية.»

حاول ربيع القبض على الشمس بكل قوة وسحقها بين قبضتيه منتقمًا من القدر الأعمى لكنه تذكر مقولة جدته حين كان غلامًا «لا تستطيع أن تحجب الشمس بأصبع واحد». « يا إلهي الم تجد شخصا آخر تبعثر حياته؟» قالها وقد ترك الندم عقدة في لسانه، ضغط على زجاج النافذة بأطراف أصابعه وضرب جبينه على الزجاج عدة مرات. تطلع الغراب حوله من زاوية لأخرى مداعبا ريشه بمنقاره المشعر. أعجب ربيع من هدوء الغراب وهو يتشبث بأطراف مخالبه بحافة النافذة، فطرق النافذة بعقلة سبابته متوقعًا رد الغراب بالطيران.

حدق الطير بزجاج النافذة بعينيه الثاقبتين لبرهة ثم نقر الزجاج بمنقاره، استغرب ربيع من ردة فعل الغراب فطرق النافذة مرة أخرى وإجابه الغراب بنفس الرد. بقت رنات الأجهزة تغذي ربيع بالطمأنينة المزيفة وأنكر ما قاله الجَرّاح والممرضة وأعتقد أن جدته سوف تسترد عافيتها في يوم من الأيام. حدق بمنقار الغراب المغلق وفاحت رائحة عفنة حوله أقرب لرائحة الموت أحاطته من كل الجهات، التفت ليبحث عن مصدرها لكنه تفاجئ عندما نقر الغراب الزجاج لوحده. تمنى ربيع لو كان باستطاعته أن يشم فم الغراب ليعرف إن كانت الرائحة تبثق منه، اقترب الطير من النافذة وفتح منقاره وقال «مرحبا يا ربيع.»

ارتد ربيع مندهشًا وصلّب الفزع عضلات وجهه وفتح ثغرة فمه وصغرت عيناه في محجريهما. فتح الغراب منقاره وقال مرة أخرى «مرحبا يا ربيع». شعر بالدوران واختل عقله للحظة فكان في فضاء بلا جاذبية تجذبه إلى أرض الواقع وهناك شعر بيد باردة ربتت على كتفه فأستدار رويدًا ووجد طلال مرحبا. وقف شخص آخر لم يره من قبل بجوار طلال مرتديًا عصابة عين وابتسم ابتسامة خفيفة عندما وقع نظره على ربيع. نعق الغراب مودعًا وطار بسلاسة نحو البستان باحثًا عن طعام لنفسه.

- «مرحبا أنا غازي» مد الرجل ذراعه مرحبًا وأكمل طلال «انه زميلي منذ زمن بعيد» رد ربيع السلام ببرودة وارتخت ذراعه من المفاجأة ودعاهما للجلوس بجوار جدته. جلسوا في صف واحد، غازي الأقرب إلى الجدة وطلال بينهما، احتضن ربيع الصندوق وبحث بصره عن الغراب وأنصت بقية الضيوف إلى رنين الأجهزة الطبية. انتهز طلال الهدوء الدائم وسأل عن حال المريضة فإجابه ربيع بالأخبار السيئة، وتجهم وجه طلال تضامنًا مع زميله بينما التزم غازي الصمت.
- «لقد انتظرتك مساء أمس مع بقية الأعضاء وعندما لم تأت انتابني شعور غريب كأنني شعرت بمحنة جدتك» قالها طلال محاولا شرح سبب وجودهما في المستشفى.

- «لقد نويت الزيارة، ولكن ...» رد ربيع ولكن الشجون ضغطت على كل حرف وتحركت عيناه الصغيرتان نحو جدته.
- «وعندما بحثت عنك في الصحيفة ولم أجدك سألت الكادر والفرّاش وقالوا إنك غائب ولم تأت اليوم، علمت حينها أن هناك مشكلة» وضع طلال يديه على ركبتيه وأحنى ظهره متواضعًا.

هز ربيع رأسه موافقًا على تسلسل الأحداث وضم ذراعيه إلى صدره وتقاطعت ساقيه عند الأقدام.

- «ذهبت إلى بيتك وعندما وصلت إلى الشارع وسألت مجموعة من الأطفال قالوا إنك أخذت جدتك إلى المستشفى بعجلة ولم يعلم أحد بما حدث فاستعنت بمساعدة غازي وجئنا سويا.»

نصت ربيع وابتسم مجاملًا أستاذه، ولكن ثقل الأخبار السيئة تركه في حالة تعيسة وهنا أكمل طلال «غازي عضو فاعلٌ في المعارضة وأحبَّ زيارتك معي.»

- «تمنيت لو كانت الظروف أحسن من ذلك، ولكن الوقت لا يسمح بذلك، أنا وطلال من مؤسسي حركة المعارضة في المدينة، وأنا من حث والديك إلى الانضمام إليها. لدينا كتيبتان في الجيش على الاستعداد للانقلاب على الحكم ونحن بحاجة إلى مساعدتك.»

ارتفعت رنات الأجهزة الطبية تدريجيًا وقال ربيع «وكيف باستطاعة شخص مثلي مساعدتكم؟» تساءل مستغربًا.

- «كل ما عليك هو أرسال رسالة مشفرة عبر الصحيفة» أعطاه حلا لسؤال متوقع وازدادت دقات الأجهزة وضغطت جدته على جفنيها مع كل كلمة قالها غازي.

اقترب ربيع برأسه من محتويات الصندوق وقال في خلده «لماذا؟» وأحنى جسده كعلامة استفهام.

- «وهل تحتاج إلى سبب بعد كل ما مر عليك من أيدي العائلة الملكية، لقد ولدت ورضعت العلقم من نهدي السلطة الفاسدة، هل تعرف كم شخص مثلك في هذه المدينة؟ مئات! لقد حان الوقت الانتقام، لا تخف من المستقبل فسوف نعتني بجدتك وندفع الفاتورة الطبية.»
- «اسمعني يا ربيع أن مستقبل المدينة لن يتغير ويبقى الحاضر والماضي خطين متوازيين متشابهين إن لم نجتث هذا الحكم غدًا. ألا ترى الأميرة تستعد للحكم بعد سرجون وهي أكثر شراسة من والدها وسوف تدفن جدتك بيديك كما دُفن والديك» رد طلال محاولا دفع ربيع نحو الاختيار الأفضل.

رمشت الجدة بسرعة، وارتفعت الأصوات في زوايا الغرفة، وسمع ربيع وقع خطوات الممرضة، أراد السؤال عن الصور لكن الغضب والتخبط النفسي دفع به للقيام بشيء لم يفعله من قبل، رفع كميه فتكشف ذراعاه بتضاريسهما المشوهة وقال:

- « هل تعرف ما حدث لجسدي؟»

رد طلال بشجن امتص بريق عينيه، وعاد إلى ماضٍ كان قد نسى طعمه وقال: «لقد حدث كل شيء حين كنت في الخامسة من عمرك.»

◆◆◆

خمس سنوات على ولادة ربيع

بزغ القمر في سماء المدينة، ولم تسلب بثور وجهه شيئا من وسامته، وأضاءت هالته ما أحاطه من غيوم. كان أقرب للؤلؤة أضاءت قعر محيط ارتدى سواد الحداد. هبطت درجات الحرارة، وخلت الشوارع من كل كائن حي، وزع القمر لسعة زرقاء على كل جماد في محيطه، مما ضاعف الشعور بالبرد ورهبة الليل. طارت بومة في السماء، وشقت الليل بجسدها الأبيض وحفيف أجنحتها واستقرت على غصن شجرة طويلة بجانب منزل سقفه أخضر. حركت رأسها من جانب لآخر، ولم ترمش عيناها الثاقبتان على الأطلاق. عينان بلون صفار البيض يتوسطهما بؤبؤان بلون القهوة. احتوت جسدها اللحمي بجناحيها كمعطف من ريش، واخترق نعابها سكون الليل البارد. يشي تحدب منقارها بشؤم قادم في هذه الليلة، فحتى القمر الوحيد وجد لنفسه غيمة ليغريها إلى صدره وقبلها خلسة. أنصتت البومة إلى دبيب الأرض، ولفت رأسها بحدة حين سمعت الأعشاب وهي تُهرس تحت أقدام ثقيلة، وعندها رأت مجموعة يُشتبه أنها تابعة للقصر الملكي تتجه نحو بيت أُضيئت نوافذه بإنارة داخلية. اختبأوا بين الأحراش، واستخدموا الظلام لمصلحتهم فتدثرت أجسادهم بعباءة الليل. غُرست أقدامهم بالتراب وامتزجت رائحة الأرض برائحة النباتات المهشمة التي اعتاد الجميع عليها بعد برهة. وقف بعضهم بجوار أشجار مجاورة للبيت مراقبين ما يحدث في الداخل، وجثم ما تبقى منهم على الأرض منتظرين إشارة للهجوم. أرتدى كل عنصر منهم ملابس سوداء من الرأس إلى أخمص القدمين وأضاف القناع رهبة لهيبتهم. اندمجت أجسادهم بظلال الأشجار وأصبحت أطرافهم أغصان تحمل ثمار الأذى والشر.

تسامروا وتبادلوا الدعابة والخرافات كأنهم في مقهى أو سوق مما أعطى انطباعًا أن هذه ليست مهمتهم الأولى. جلبوا براميل حمراء فاحت رائحة النفط منها وضعت في مكان استراتيجي تبعًا لإشارة من رجل احترمه الجميع. خيمت رائحة النفط الحمضية على التوتر الموجود حول المنزل، ودامت هدنة الصمت عندما توقف الجميع عن الكلام. تابع الرجل البيت وأحداثه بدون حركة وتقلص جسده كغصن شجرة على وشك أن يُكسر، لمعت عيناه ببريق مخيف فأصبح كحيوان مفترس ينتظر فريسته.

امتزجت رائحة النفط اللاذعة مع ندى النباتات فانبعثت رائحة كريهة أقرب للثوم وقد انتشرت حول البيت كالطاعون. زحف ضباب فوق الأرض بشبر واحد، وخشع الجميع لقدسية الليل والخوف الذي يستنزف روح الإنسان. كان البيت ذو السقف الأخضر معزولا عن بقية بيوت المحلة، إذ يقعُ في نهاية طريق لا يدخله الا من تَعَنَّى زيارة سكانه، فلا يصل أي صوت من المحلة إليه ولا يُسمع أي صوت خارج منه إلى الشارع العام.

أفتقد الشارع الضيق الإنارة لتضيء تضاريسه بعد غروب الشمس فتجنبه المارة من سكان المحلة. هبت نسمة هواء حملت معها برودة استبقت وقتها فارتعشت الأجساد وتغرغرت عينا الرجل المراقب بالدمع. طلب الهدوء منهم حتى يستطيع التنصت بكل حواسه، بل ليصبح جزءا لا يتجزأ من البيت وعندها أشر إلى أحد رفاقه بسبابته طالبًا اقترابه.

- «هل أنت متأكد من هذا البيت؟» سأله رئيس المجموعة.
- «نعم لقد قال العميل أن سقف البيت اخضر ويقع في نهاية شارع ضيق» همس زميله والبخار يفوح من فمه الحار.
- «أني لا أرى أحدًا، هل أنت متأكد أن عناصر المقاومة تعيش هنا؟»

لم ينطق زميله فإنارة البيت الداخلية أجابت على سؤاله، وهما معتادان على التحدث بالعيون لا باللسان، تنحنح وردد معلومة معروفة على الجميع.

- «لقد ساوم السجين ذو عصابة العين حتى يقلل من مده حبسه وبعد تعذيب استمر لعدة أشهر اعترف وأعطانا مقرهم. وهو يعلم جيدًا إن كان العنوان خطأ فسوف يدفع الثمن برقبته.»
- «أعلم بذلك لكنني لم أتوقع أن يكون المقر بيتا في منطقة سكنية كهذه، لقد طلب المستشار الملكي بنفسه بأن أشرف على هذه العملية بنفسي وهذا شيء لا يحدث كل يوم. على أي حال أطلب الرجال بالانتشار حول البيت وامنح لكل ثلاثة رجال برميلا من النفط وأمرهم بانتظار إشارة مني.»

ابتلع الليل الكلمات، وهز زميله رأسه موافقًا، واختفى وقع قدميه مع حفيف الأشجار. شعره أسود كظلام بين النجوم، وشاربه يوافقه لونًا، بينما نثر عليه الشيب رمادا يشي بعمره، ترك الرجل مكانه واقترب من البيت بخطى خفيفة واندمج جسده المتين بظل البيت وبانت تضاريس عضلاته المفتولة على ضوء تدفق من نافذة مغلقة. توقف بجانب حائط مواز للنافذة وتنصت على ما يجري داخل البيت. كانت النافذة متوسطة الحجم عليها نقش بلوري يمنع الرؤية من خلالها. استطاع الرجل أن يرى خيالين من الخارج لامرأة وطفل.

قرب أذنه من النافذة قدر المستطاع وأنصت بحذر، تقع غرفة الحمام في الجهة الأخرى من النافذة وكانت تعجُّ بالبخار والصراخ، فالليلة ليلة الخميس وهي الليلة الرسمية للاستحمام. وجد ربيع نفسه في حوض يصهر جسده بالماء الساخن وجلست جدته بجواره تدلك جلده بالليفة. تلألأت فقاعات الصابون على ضوء الحمام وجلس الطفل أمام جدته ينظر إلى بشرته الوردية ويصرخ «كفى يا جدتي رجاء». لم يعتد على تقبل الألم من جدته إلا في وقت الحمام إذ كانت تهرس جلده بكل قوتها وتتقلص عضلات ذراعيها كجذع شجرة سميكة.

كان ربيع في الخامسة، وأمتلك جرأة والدته ولسان أبيه وامتاز بطاقة خيالية لا تنتهي إذ كان يحب الجري واللعب في الحي. جسده ممشوق كالحربة نحيلا وشعره مجعد كأبيه، ولكنه أخذ أجمل شيء في أمه، عينيها، أمتلك لوزتين لونهما بني فاتح وتجسدت كل مشاعره من خلالهما. التفت قبضتها حول ذراعه وجرته نحوها وهي تدلك ظهره بالأخرى وغنت له «يا بط يا بط تسبح بالشط» قاطعها ربيع وقال «كفى يا جدتي أي هراء هذا، سوف أصبح بطة بحق السماء.»

صغرت عيناه وبللت الدموع رموشه الطويلة، فأصبحت داكنة اللون كأنها مغمورة في قنينة الحبر. لم تبال جدته بما قال، واستمرت بالدلك «قل للسمكة أنتِ الشبكة» وضغطت على جلده بقوة فبرزت شراايينها حول ساعدها وعضت على باطن شفتها السفلى ثم أكملت «ميلي عنها تنجي منها». حكت وحمة ظهره بكل قوة راغبة بإزالتها كليًا، ولكن صراخ ربيع المستمر منعها من ذلك، أوجعها قلبها بسبب الشجن المنبعث من صوته، فأحنت ظهرها وفتحت ذراعيها لتحتضنه. رفضها كليًا وسالت الدموع على خديه وصرخ بكل مستطاعه من فمه المفتوح على مصراعيه. «تعال يا ربيع» وأضافت حنانا إلى صوتها «لديك وحمة مثل أمك، تعال هنا يا حبيبي» رد عليها بنظرة شرسة وقال لها «ابتعدي عني يا عجوز شمطاء.»

فوجئت بجسارة حفيدها الذي قضت سنين تربيه كما تشاء فاعتبرت الإهانة لها ولتربيتها الذهبية فتحول بؤبؤا عينيها إلى الأحمر وطفح وريد أزرق على عنقها وأنشد ظهرها كالخيزرانة وانتفضت عليه كاللبوة. جفل ربيع وارتد إلى الوراء وضم رأسه بين ذراعيه المتقاطعتين فعلم جيدًا ألم الصفعات المبرحة على الوجه وقرص الأذنين. صرخ للنجدة وركض بقدر المستطاع لكنه تحرك رويدا بسبب مقاومة الماء في حوض الاستحمام التي جعلت منه هدفا سهلًا فاصطادته جدته بصفعة على الوجه جعلت أذنه اليسرى ترن وشعر بالغثيان وأكملتها بعدة قرصات على جذعه وتبخر غضبها مع كل عقاب.

ابتسم الرجل خارج النافذة وخرجت فقاعة بخار من فمه، ضم ذراعيه خلف ظهره ليدفئهما وتذكر أيام الطفولة في مخيلته وسرح في أحلامه لبرهة، انقطع حبل أفكاره عندما سمع باب الحمام يفتح ويغلق بعجلة وسمع صوت امرأة فرجع متصنتًا مرة أخرى. ركضت سمر نحو ابنها وقالت «ماذا حدث؟ على ما تتصارعان؟» بركت على الأرض بجوار الحوض واحتضنها ربيع وتكتل البكاء في حنجرته، احتوى نفسه بين صدرها ولعب دور الضعيف وتبللت ملابسها، ولكنها لم تبال فشعرت بتلاصق جسدها على جسده النحيل ودبت الأمومة في نهديها مرة أخرى.

- «انه كالقطة لا يحب الماء كما تعرفين جيدًا ولقد أطال لسانه علي.»

حدقت الجدة به تنتظر جوابه، لكنه لم يتجرأ على فتح فمه بوجود أي منهما. ربتت سمر على شعر ابنها المبلل ووبخته لإساءته لجدته وذكرته بكل التضحيات التي قامت بها يوميًا، هز ربيع رأسه موافقًا ووقف عاريًا يلهث وحك عينيه الحمراوين بقوة.

- «لقد تعب الغلام» قالتها الجدة وهي تغسل الصابون عن جسده.
- «سوف أترككما تنتهيان من الحمام» خرجت سمر وأغلقت الباب خلفها وضاعت خطواتها بين دهاليز البيت.

أصغي الرجل خارج النافذة بحذر ورسم في مخيلته ما حدث داخل الحمام خطوة بعد خطوة لكن السكون دفع به للاستكشاف حول البيت باحثًا عن نافذة أخرى. جثم الرجل بجوار نافذة انسدلت ستائرها وخرج ضوء من شق بين إطار النافذة والستارة. اختلس النظر وعلم فورًا أنها غرفة ربيع من الصور المعلقة على الحائط، وسريره الذي غطي بلحاف رسمت عليه كرات بمختلف الأحجام. وضعت بجانب الفراش صور لحيوانات ضاحكة وصور عائلية وبجانبها علق علم لفريق المدينة لكرة القدم وصور للاعبين. وعلى بعد مسافة ضئيلة من الفراش هنالك طاولة بيضاء صغيرة احتوت

على مصباح للقراءة وكتب ملونة بجواره، حدق الرجل بعجلة وعلم أن عليه بالبحث عن نافذة أخرى.

زحف الرجل حول البيت بين الأعشاب وأشجار الليمون، والتصق جذعه بجوار البيت مختبئًا عن الأنظار، وانجذب نحو نافذة مفتوحة تتأرجح ستائرها الشفافة مع هبوب الريح. أحسَّ بنداوة على أطراف أصابع قدميه، فلقد تبللت مقدمة حذائه بندى العشب لكن الستارة البيضاء أغرته رويدًا رويدًا. جثم جسده خلف البيت يلتهث أنفاسه التي ألتهمها الظلام الدامس، وشعر بدقات قلبه بين جفنيه. أخذ مكان استراتيجيًا تحت النافذة العتمة وجثم بإرادة انصقلت على مدار سنين ينتظر الفريسة، تأقلمت عيناه على الظلام وأصبح ظلا أخر للوحة الظلام.

أصغى لدقات أقدام سمر العارية تداعب الأرض على أطراف أصابعها كأنها تتفادى قطعا من زجاج وتدفقت رعشات في جسده مختلطة بالإثارة والرهبة. أضاءت الغرفة إنارة قوية تركت مربعا أصفر دافئ على الجدار المقابل للرجل. اقتربت خطواتها من النافذة بعجلة وأغلقتها بقوة فالتصق جسده بحائط البيت كالحلزون وتدفقت الخيبة في صدره عندما سمعها تسدل الستارة بخفة يد. تضخم توتره مع كل لحظة سكون، لكن تدريبه وخبرته وأرادته أمسكت بزمام الأمور وتحكمت بمشاعره وغرائزه، لكن عينه اشتهت معرفة ما يحدث داخل الغرفة. قرر اختلاس نظرة سريعة فوقف بجوار النافذة كالصنم وتنصت بكل حواسه محاولا أن يرسم صورة في مخيلته للغرفة ومحتوياتها لكنه لم يسمع إلا صوت تنفسه ولم ير إلا غيوما تتلاشى مصنوعة من بخار حار خرج من فمه.

زحف أحد زملائه خلف البيت وفاحت رائحة النفط في كل مكان، لمعت عيناه في الظلام كالأفعى تنتظر أمرًا من قائده، أوقفه الرجل بإيماءة وأمره بالرجوع إلى الخلف وانتظار إشارة منه. تنفس الصعداء وتبللت مقدمة جواربه وتلاعب بأطراف أصابع قدميه، حك شاربه بطرف خنصره وقرر

اختلاس نظرة أخرى من النافذة بعجلة. استطاع رؤية خيال لجسد من خلال الستارة الرقيقة في البداية لكنه حدق بتركيز ورأى ظهر سمر عاريًا بالكامل وابتسم الرجل ابتسامة مالحة.

خلعت ملابسها المبللة ورمتها على الأرض بلا مبالاة وأصبحت شبه عارية مرتدية ملابسها الداخلية فقط وتمتعت بهذه الخلوة التي اشتاقت إليها. ندمت وقطبت حاجبيها بحسرة وبرزت خطوط حول فمها، تمنت لو غسلت لربيع بنفسها لتتفادى كل هذه المشاحنات مع جدته. مرت من جانب مرآة وضعت بجانب منضدة للزينة وانعكس جسدها الندي ولمعت الوحمة على ذراعها، فتحت بابا أندمج لونه بلون جدران الغرفة يقود إلى دولاب ممتلئ بالملابس الرجالية والنسائية. سقط ضوء الغرفة الأصفر على جسدها وتلألأ شعر بطنها الذهبي وبرزت سرتها كما تنعكس الشمس على الجليد.

ارتدت ثوبا ابيض وجلست على طرف السرير متمتعة بخلوتها وحدقت بطرف عينها نحو المرآة، وضعت ساقا فوق ساق وتأملت أصابع قدميها. نهضت واتجهت نحو منضدة الزينة للبحث عن طلاء الأظافر الذي وضعته هناك ليلة الأمس. امتدت القشعريرة على جسدها وحست بلحظة أنها مراقبة. خرجت سمر من دوامة الرعب عندما سمعت فارس يغسل يديه في الحمام الداخلي للغرفة وفتح الباب مرحبًا، وجدها أمام المرآة متجهمة الوجه ولم تكن هيئتها على ما يرام.

- «ما هذه الضجة؟» سألها مقتربًا منها.
- «ربيع ووالدتك في صراع الجبابرة» قالتها بلا مبالاة وهي تخلع قرطي أذنيها.

اقترب فارس منها وعانقها من الخلف وسجنها بين ذراعيه التي عقدت حول بطنها «هل أنت بخير؟» سألها وهو يقبلها من عنقها المطلي بعطر الزهور.

- «نعم» أغلقت جفنيها ومالت برأسها نحو رأسه ومسدت شعره براحة يدها الناعمة.
- «أن تعابيرِ وجهكِ لا تدل على السعادة» مسد بيديه حول ثنايا جسدها وداعبت خاتم الزواج بأطراف أصابعها.
- «لا شيء.»
- «قولي بما تفكرين؟»

ابتسمت وحررت نفسها من بين ذراعيه وقالت «أني أخاف من المستقبل، أخاف على ربيع وحياته في هذه المدينة، هل تتذكر آمالنا؟ لقد فشلنا بتغيير الحكم، كيف سوف يعيش ربيع لوحده. كان علينا أنجاب أخوة وأخوات له.»

- «ما زلنا في بداية حياتنا، مازال هنالك الوقت لنحاول» ابتسم ابتسامة خبيثة وقبلها من شفتيها الطريتين وشد بجذعه نحوها، لذعتها حرارة جسده التي اشتاقت إليها لكنها دفعته بلطف وقالت:
- «أمك هنا يا عنتر» احمرت وجناتها بلون فاتن.
- «ماذا تقترحين إذن؟» سألها وفمه شبه مفتوح.
- «ألا تندم على ضياع السنين في المعارضة، يا ليتنا عشنا كبقية الناس بسلام.»
- «ما زلتِ في عيني أجمل امرأة في الدنيا، أنسي الماضي لقد رحلت الثورة مع مؤسسها غازي فلم نره منذُ سنين.»
- «أن عمر الإنسان لا يقاس بالسنين، بل بأحلامه وليس لدي طموح بعد الآن» وجدت طلاء الأظافر على المنضدة وجلست على طرف السرير مرة أخرى.
- «لماذا لا ننجب طفلا آخر؟ أن ربيع بحاجة لرفيق ليهذب من أخلاقه ويعلمه الرفق. أن المستقبل يبدو مزدحما بأحداثه سوف يذهب ربيع إلى المدرسة قريبًا.»
- «أسمعني جيدًا يا فارس لن أضع جسدي في محنة أخرى من أجل رغباتك الوحشية» ضحكا سويًا.

- «سوف اذهب للاطمئنان على ربيع وأمي» رد فارس والضحكة مازالت في حنجرته.
- «أتمنى لك حظا سعيدًا» قالتها بسخرية معهودة.

خرج فارس من الغرفة وبقت سمر تمسح طلاء أظافرها القديم لتطليها بلون جديد، ولأول مرة منذُ مدة طويلة فكرت بموضوع الولادة. تنصت الرجل خارج الغرفة على كل شيء وحصل على الدليل القاطع انه خارج المنزل الصحيح، أشبع شهواته بجانب النافذة ورجع إلى زملائه. وجدهم يتسامرون برفاهية مطلقة وصمت الجميع على وقع خطاه المعهودة احترامًا وأصغى الجميع لأوامره.

أحاطوا البيت من كل الاتجاهات، وأغلقوا الطريق المؤدي إلى باب البيت بقطع من فولاذ، فاحت رائحة النفط وغمرت روائح الأشجار والأعشاب. انتشر الجنود بإيقاع واحد، ووقف جندي مقنع أمام كل نافذة وبجانبه برميل احمر غطاؤه مفتوح. أمسك كل جندي بقطعة قماش مستطيلة الشكل ولف القماش بقوة على عصا سميكة ثم غمست بالبرميل، سالت خيوط النفط اللزجة في كل مكان وانتظروا الإشارة المعهودة. وقف الرجل ذو الشارب السميك أمام مقدمة البيت وبيده صافرة تشبه أنياب الكلب وصفر بها بكل قوته، تضخمت شفتاه السوداوان حولها وانتفخ صدره كالبحر الهائج وقطب حاجبيه فأصبح كالذئب.

خرج صوت نادر من الصافرة يشبه نباح الكلبة على ابنها الضائع، صرخة حيوانية أقرب إلى قلب الإنسان من بقية أصوات الطبيعة، وعلى مسمعها سكب كل رجل محتويات البرميل حول البيت في آن واحد وتشبعت الأعشاب بالنفط. أوقد كل رجل عصاه بعود ثقاب ورماها نحو البيت بكل قوته.

سالت أنهار النار رويدًا وأحاطت البيت وتسلقت جدرانه كأوراق العنب، وركض الجنود نحو بر الأمان مشاهدين ما يحدث أمامهم. تكونت بحيرة من النار توسطها البيت كقارب يغرق بثقل وزنه وتأججت الحديقة بأكملها، ألتهم اللهب أوراق النباتات وأغصان الأشجار وذابت كما تذوب

دمعة على خد حزين. أضاء وهج النار وجوه الحيوانات والحشرات التي انتشر الرعب في صدرها وامتدت ابتسامة خبيثة على وجوه الجنود المسلحين الذين انتظروا ردة فعل سكان البيت الذي خيم سكون غريب عليه. تسلقت النار إلى السقف الأخضر وازدادت كثافة الدخان في أرجائه، خرج الجيران ليطمئنوا على سكان البيت لكن رؤية الجنود في الشارع دفعت بهم للاختباء في بيوتهم. انكسرت نافذة بعد أخرى وترك صوت الزجاج رعشة في وجدان شهود العيان، صرخات من الوجع تشطر الليل بالنصف وصرخات تطلب النجدة من رب عقيم.

حاول من سكن البيت فتح الباب الأمامي بعجلة لكن مقبض الباب التهب كالجمر ولحقته صرخة متأخرة تدل على اليأس. انعكس لهيب النار على الأشجار وما تبقى من زجاج والتهم الدخان البيت بالكامل، ابتسم رئيس الكتيبة ولعب بشاربه باقتناع. أمر الجنود بالانسحاب من موقع الجريمة، وقرر بنجاح العملية وكما جاءوا على أطراف أصابعهم مع مهب الريح اختفوا كالسراب. فاحت رائحة الموت في الشارع، وبقي السكون يخيم على المكان بظل أسود، وبعد برهة فتح الباب الأمامي جزئيًا وخرجت امرأة لفت نفسها بعباءة سوداء كالفهد وحملت طفلا التهب جسده كالجمر في حضنها يصرخ من قاع جوفه. وضعت صندوقا تحت إبطها وركضت نحو المجهول وذابت كالملح في بحر الليل.

♦♦♦

١١

مرَّ الأسبوع الماضي كجحيم على ربيع، فبعد الخروج من المستشفى ونقل جدته العاجزة إلى بيتهما، أصبح مسؤولا عنها وولي أمرها. استطاع بموافقة خليل تغيير ساعات عمله وقضاء المزيد من الوقت مع جدته. وافق رئيس التحرير على أعارته آلة طباعة حتى يمارس طقوس العمل حينما يشاء في بيته. سددَّ غازي وطلال كل نفقاتها بما فيه فاتورة المستشفى وأجرة كرسي للمقعدين، بقت جدته في رهبة خرساء بعد رجوعها والتزمت الصمت المطلق. نقل ربيع الكرسي بعسر في أرجاء البيت الذي لم يصمم ليحتوي على إنسان عاجز، وأصغى لنصيحة الممرضة بوضع جدته بجوار نافذة تطلّ على حديقة المنزل الداخلية لترى الأشجار المثمرة.

دخلت بعد ثلاثة أيام في كآبة طحنت صدرها وثقبت إيمانها بربها وترك الاكتئاب ثغرات سطع ضوء الحقيقة المجردة على روحها لأول مرة منذُ صغرها. إما ربيع ففعل كل ما في قوته ليرضيها وإدخال السرور إلى حياتها مرة أخرى، فردد ما تذكره من قصص على مسامعها وطبخ كل ما أحبت إلى قلبها بمساعدة الجيران. ولكن الجوع والاكتئاب لا يمتزجان كالماء والزيت فرفضت الجدة الطعام بالكامل.

كان يجدها شاردة تنظر نحو الأفق البعيد بنظرة صارمة عكست موجات التناقض في روحها، هكذا كانت نهايتها التي سلبت منها حرية الحركة، ضغطت على منديل بين أصابعها حتى انقطع الدم من الوصول إليهم.

مسحت دموعها المالحة باستمرار وتقوس ظهرها بانخذال نحو النافذة كأنها تبحث عن حبة أمل قد ذابت أمامها. قبلها ربيع من جبينها ويديها ووعدها بتحسن حالتها النفسية إن خرجت إلى الحديقة لتستمع إلى هفيف الأشجار وتغريد الطيور.

انشغل ربيع بين المنزل والصحيفة وتغاضى عن التفكير بأي شيء آخر. كان يستيقظ مبكرًا ويذهب إلى عمله ليستلم مهامه من خليل بنفسه الذي وعده بأن يقلل من عبء العمل والمسؤولية عن عاتقه لكن ربيع رفض الاقتراح من أساسه، وبعد ذلك يرجع إلى البيت بعجلة ليعتني بجدته ويباشر بالتنظيف والطبخ. مهمتان ساعده الجيران فيهما في كل خطوة، فشاب في عمره لم يدخل المطبخ أو يدفع مكنسة في حياته. بعد أعداد الطعام، يأخذ جدته إلى فراشها لتنام في وقت الظهيرة حسب تعليمات الطبيب. كان ربيع يقضي وقته منحنيًا على الآلة الكاتبة يعمل بجهد ولذة خيالية لم يشعر بها من قبل، صمم الكلمات المتقاطعة بنفسه وكتب مقالات لا تنتقد ولا تمدح ما يكتب عنه، هكذا علمه خليل بان يكون محايدًا في بداية مهنته الصحفية.

وبعد أن تستيقظ جدته من قيلولتها يعدُّ لها فنجانا من القهوة، ويضعه بجوارها مع قارورة حليب متجنبًا تذكيرها بطعم الحياة المريرة. ولكنها في تلك الأيام الثلاثة رفضت كل شيء وكان يجد الفنجان كما تركه بينما يطفو على سطح الزجاجة رغوة حليب رائب كسمك ميت. ولكن عزيمته لم تنكسر، وازدادت أرادته كلما رفضت مساعدته، فكان يقبلها من جبينها ويربت على كتفها بعطف. حاول إطعامها بنفسه عارضًا عليها ملعقة من الطعام لكنها كانت ترفض بهزة رأس عنيفة، أبقى الطعام بجوارها وملأ حقيبة عمله بما طبعه. وبعد تناول الطعام يغسل الأطباق القذرة ثم يقف أمام نافذة المطبخ يشرد بنظره نحو أشجار الليمون التي زرعتها جدته من قبل. كان يجد قدسية في هذا الروتين، غسل الأطباق واحدا تلو الآخر فكان هذا الوقت من الأوقات القليلة التي كان يستأنس بها.

كان يشعر وكأنه يزيل كل شوائب جسده بالماء الدافئ، ويستمتع بملمس رغوة الصابون بين أصابعه، وارتقت روحه كلما فرك الإسفنجة المبللة بأواني الطبخ والأقداح القذرة. ينتهي الروتين بأعداد الشاي لجدته ولنفسه فيجلسان في الحديقة الداخلية مستمعين لهديل الحمام، وحفيف الأشجار ونقيق الصراصر. وجد أشعة الشمس منعشة واستغرب كيف كرهها طوال عمره، بل حتى شعر بلذة حلوة في فمه مستمعًا لأصوات الأطفال الذين كانوا يلعبون خارج بيته وهدأت أعصابه على نباح الكلاب المستمر، وجد جدته تحاول أن تغطي على الشمس بأصبع واحد ولكنها توقفت بعد عدة محاولات.

هكذا مرت عليه أول ثلاثة أيام عاشها من لحظة لأخرى يبحث عن ضوء لينجده من متاهات الحياة. أخذ رشفة من قدح الشاي ونظر إلى جدته التي أحنت رأسها وتلاعبت فوطة شعرها على نسمة هواء وتركت الشاي في مكانه يتدفق البخار منه كآمالها. وبعد العصر احتاج ربيع للذهاب إلى الصحيفة ليسلم مقالاته فأجلس جدته بجوار المذياع لتستمع إلى موجز الأخبار واتجه نحو عمله. ذهب ورجع بعد ساعة متفاديا رفاقه والحديث الفارغ وباشر بتحضير مراسيم العشاء. تجنب ربيع الكلام عن الماضي معها وبقت الأسئلة تغلي في قلبه لكن التعب كان أجدر به فوجد نفسه ينام مبكرًا ويستيقظ على تقلصات عضلاته والآلام فقرات ظهره. غسل لها أيديها وأقدامها قبل النوم يوميًا وحملها إلى فراشها، أصبح جسدها ضئيلا بالنسبة لسريرها كأن المرض قد سحب العافية منها فانكمشت كردة فعل.

برزت أول ابتسامة لها منذُ الحادث في اليوم الرابع كما تذكر ربيع، كان في الحديقة الداخلية يروي النباتات والأزهار وأشجار الليمون وجلست جدته تحت شجرة ضخمة وعندها لمح ابتسامتها تظهر كقوس قزح، فرد عليها بابتسامة مشابهة. جلس بجوارها وفاحت نداوة الماء المختلطة برائحة الزرع وسقط بصيص الشمس عليهما عبر أوراق الأشجار فتلألأت ظلال الأغصان

على الأرض بجوارهما. قال لها ربيع يومها «هيا لنصلي معًا يا جدتي» وبرقت عيناها كالقطة وفتحت راحة يدها كزهرة عباد الشمس والتحمت أيديهما سويًا وأصبحتا يدا واحدة تدعو إلى إله الشمس بالمغفرة وأصبحت هذه نقطة البداية لتسترد عافيتها.

ابتسامة وصلاة كل ما احتاجتهما في اليومين التاليين لتشق طريقها عبر مراحل الحزن، انشغل ربيع بالعناية بها وتحضير كل مستلزماتها. حاول السفر في بحر ذاكرته لكنه أرسى قاربه بجوار جدته في كل مرة. نطقت بأول كلمة في يومها السابع وخرج صوتها كحديد يصهر بالنار. نشفت حبالها الصوتية ولم تستطيع إكمال اسمه. نطقت اسمه بعد عدة محاولات ولم يصدق ربيع ما سمعه فلقد نسى صوتها فنادته مرة أخرى «يا ربيع»، جاءها والطيف يفيض من عينيه «نعم جدتي.»

أشرت إلى فمها المفتوح بأنها جائعة وتنحنحت بشدة، ركض ربيع كالبرق وأعد العشاء بعجلة وجلب لها كل ما اشتهته وأكلت بشهية مفتوحة ومع كل هذه الفرحة والخطوة إلى الأمام شعر ربيع بجرح الماضي ينبض بالدم وفاحت رائحة معدنية بين منخريه كرائحة الجثث الميتة. تفادى إرهاقها وابتسم ابتسامة كاذبة معقودة حول حافة شفته العلوية منتظرًا الوقت المناسب. تحسنت صحتها بسرعة، وخلال بضعة أيام أصبحت قادرة على نطق جملا كاملة والتحكم بالكرسي المتحرك بمهارة عالية، سألها ربيع يومها «على ماذا تبتسمين يا جدتي؟» ردت عليه «لقد رأيت الرب في كل مكان وفي كل مخلوقات الأرض من الحيوان إلى النبات.»

تردد ربيع وتناسلت الأفكار في مخيلته وكلما حاول فتح الموضوع مع جدته تفادت نظراته المبهمة بإصرار، ومرت ثلاثة أيام كمطاردات بين قطة وفئران. ولكن في اليوم العاشر كانا جالسين يتناولان العشاء بسلام سألته جدته وهي تؤشر إلى راحة يدها «هل تعرف ما هذا يا ربيع؟»

رأى نتوءات وفوضى لحمية في كف يدها اليمنى التي لا تشبه يد إنسان طبيعي ورد عليها «كلا يا جدتي هل هذه الندبة عيب خلقي؟» وأشر إلى بشرته.

- «كلا يا ابني لقد حدث مكروه قبل زمن بعيد حين كنت في الخامسة من عمرك.»

ألتزم الصمت وسمع أحداث الفاجعة من شفتيها واستمرت الجدة بالكلام «لقد كانت ليلة تشبه أخواتها وكنا جميعنا في بيت والديك ولقد غسلت لك كالمعتاد». توقفت الجدة عن الكلام وأغلقت جفنيها للحظة كأنها تحاول إيجاد كلمات ضاعت بين حبات الرمل ثم قالت:

- «عفوا يا ابني لكن ذاكرتي ضعيفة» بلعت ريقها وناولها ربيع قدحا من الماء البارد ثم أكملت الجدة «كنت أقرأ لك إحدى قصص الأطفال التي تحبها وجلسنا على فراشك لنتسامر، كنت تحب الرياضة في ذلك العمر وكان لديك غرفة مزينة بالكامل بصور كرة القدم.»

بقي ربيع صامتًا كالصنم فهو يكره كرة القدم وكل رياضة خلقت على وجه الأرض.

- «ألا تتذكر الصور المعلقة على الحائط؟»

هز ربيع رأسه نافيًا وتبخرت شهيته لتناول الطعام كما يتبخر الماء على سطح رصيف في يوم حار. ضمت قبضة يدها إلى صدرها وشعرت بلسعة الماضي كجمرة مازالت تحفر في كف يدها وأكملت «وفجاءة سألتني هل تشمين رائحة الدخان؟ ما زلت أتذكر ذلك السؤال الغريب الذي خرج من فمك الطفولي. فتحت ستارة غرفتك ووجدنا لهيب النار ينعكس على النافذة بجبروت عظيم والتهمت النار الأخضر واليابس، حملتك على كتفي وخرجنا من الغرفة بعجلة وبحثنا عن والديك فوجدنا الدخان الأسود قد ابتلع دهاليز البيت كالوحش.»

بقي فم ربيع مفتوحًا وبحث في فهرس مخيلته عن صور لهذه الحادثة لكنه وجد مرحلة الطفولة متشعبة كالمرجان وأكملت الجدة:

- «زحفنا نحو صالة الجلوس على أطرافنا وامتلأ البيت بالدخان الأسود وعصرت نوبة من السعال صدرك ما زلت أتذكرها وهناك دوت جلجلة اقوى من الرعد في أنحاء البيت وتهشم الزجاج بالكامل وأكلت النار الأثاث وما وجدت في طريقها. أصبح الزحف صعبًا ودخلت شظايا الزجاج في ركبتي وذراعي، ولكننا استمررنا بالبحث عنهما حتى وجدنا أمك جاثمة بجوار والدك تضع منشفة مبللة على وجهها ولقد أعارتها لك حينما رأتك مختبأ في صدري.»
- «حاول والدك كسر الباب بكتفه لكنه وجد صعوبة في ذلك، تباطئ الوقت وأصبح التنفس صعبًا للغاية، وبدأت الهلوسة تمحو عقولنا، وكنا نسمع ضحكات المتفرجين بين فترة وأخرى. أصبحت الرؤيا صعبة واحمرت وهاجت عيوننا وسالت الدموع لا إراديًا. كان غشاء الظلام يهيمن على كل شيء ولو وضعت يدك أمامك فلن تراها إطلاقًا. وقف والدك وركل الباب بكل قوته، ولكن لم يجيبه أحد فحاول فتح الباب بكل عزيمته واستطاع فتحه قليلًا لكن مقبض الباب كان متوهجًا فلسعه وسقط والدك وعوى كذئب جريح» أخذت الجدة رشفة من الماء وتنفست الصعداء ثم أكملت:
- «عندما سقط والدك وجدت يده مساحة ضئيلة بين الباب وإطاره فأغلق الباب على خاتم زواجه وبقي الباب مواربا. عشنا على نسمة هواء تمر بين حين وأخر وأصبحت الصالة عتمة بالكامل ولم اسمع إلا عويل أمك وهي تبحث عن أبيك. زحفت نحو التيار ورأيت ضوءًا يمر عبر الشق فاستخدمت العباءة كلحاف ووضعتك تحتها وأنصت حتى اختفت القهقهات وعبارات الاستهزاء.»
- «وبعد برهة مرت علينا كعقد من الزمن، ذبل بكاء أمك تماما، وحينئذ علمت بأن علينا بمغادرة البيت فلم يبق إلا جثث ورماد. فتحت الباب

بيدي الاثنتين بكل قوة واحترقت راحة يدي من سخونته» فتحت راحة يدها مرة أخرى نحو ربيع ثم أكملت «كان الهدوء خارج البيت غريبًا ولم يحتج أي من مخلوقات الأرض على هذه الجريمة، وفي تلك اللحظة علمت أن عليّ حمايتك من هذه المدينة وليس ذلك وحسب، بل حمايتك من الماضي، ألا تتذكر أي شيء من هذه الحادثة؟» سألته بعفوية.

هز ربيع رأسه نافيًا لكنه فتح أزرار قميصه وأثنى كميه ونظر إلى بشرته المحروقة وقالت له «هذه هي الحقيقة» هز ربيع رأسه موافقًا وامتدت الطمأنينة إلى جفنيه لأول مرة منذُ مدة طويلة. استوعب الأحداث بسلاسة، ولكنه عانى من البحث في محتويات الصندوق الذي استعمر الرماد زواياه وسرق جزءا من بريقه. جلس بجوار جدته وتكلما عن كل صورة حُرقت زواياها وفسرت حب والديه الأزلي إليه وكم اشتاقت لأبنها فارس وسمر التي أصبحت كأبنة لها. تغزلت بجمال شبابها وحنّت إلى أيام الماضي عندما كان كل شيء على ما يرام، «ربما ليس في كل أرجاء المدينة» قالتها بحركة سخرية من يدها اليمنى «ولكن عائلتنا الصغيرة كانت في أجمل حالاتها، حياة بسيطة خالية من التعقيدات.»

تواصل الشجون على أوتارها وهي تعزف مقطوعة موسيقية قديمة أهملها الجميع منذُ زمن بعيد وطليت المدينة بغلاف ذهبي فبرقت كل تفاصيل حكاياتها. اعتاد ربيع على سماع القصص من جدته مجددًا وكلما سألها عن ثغرة في الماضي وجدت له قصة تشبع فيها فضوله يكون فيها والداه أبطالًا لا يهزمون. ذكرت إليه كيف كانا يعيشان في شقة في بداية حياتهما وانتقلا إلى بيت صغير سقفه اخضر عندما حبلت أمه به وجعلوا من البيت قصرًا ملآه بالحب. اختارا هذا البيت لقربه من مدرسة ابتدائية وهناك قضى ربيع أول خمس سنين من حياته. وبعد فاجعة الحريق واحتراق خطط المستقبل بأكملها، رجعت جدته إلى ديارها مع ربيع وربته لوحدها. ذكرت إليه أسماء الجيران الذين ساعدوها في البداية وحكايات غير متسلسلة، ولكنه لم يتذكر أي منهم، أسماء مألوفة لأوجه مبهمة.

- «كانت السنوات الأولى صعبة للغاية، رجعت من المدرسة باكيًا بسبب سخرية الأطفال من بشرتك المشوهة، وعندما ذهبت إلى المدرسة بنفسي وطلبت من المعلمات بأن يمنعوا الأطفال من الإساءة إليك، ازدادت المشاكسات ونادوك بربيع الأجرب، لذلك قررت أن ترتدي ملابس ذات أكمام طويلة حتى تبلغ وتصبح رجلًا. لكن السخرية لم تكتف بالمظهر الخارجي فقط، بل سخروا منك في عيد الأم ونادوك باليتيم الأجرب. دفع بك كل هذا الضيم لأن تكون شاب انطوائيًا في بداية عقدك الثاني. أحببت دفن الماضي التعيس إلى الأبد وتمنيت لك حياة جديدة منفصلة عن عالم والديك، ولكن للحياة شأن أخر فمن المستحيل الهرب من الماضي». أخذت رشفة من الماء ثم أكملت «اسمعني يا ربيع لقد تحسنت صحتي وأستطيع أن اعتني بنفسي، عليك بالرجوع إلى العمل» قالتها ببساطة.
- «ولكن الطبخ والتنظيف...»
- «يمكنني أن اطبخ بمساعدة الجيران، عليك بالعمل حتى تستطيع دفع فاتورة المستشفى» قاطعته جدته.
- «ولكن...»
- «اسمعني جيدًا أن الإنسان بحاجة إلى شيئين في الحياة، الحب والعمل.»
- «حاضر يا جدتي» حمل ربيع الصندوق تحت إبطه واتجه نحو غرفته.
- «ربيع» نادته وسؤالها الثاني على طرف لسانها.
- «نعم يا جدتي.»
- «هل ما زلت تكره بشرتك المحروقة، يمكننا الذهاب إلى طبيب...»

قاطعها ربيع وقال «كلا، كل لسعة وكل تشوه وسام افتخر به طوال حياتي» التقط أنفاسه ثم أكمل «عذرًا يا جدتي عليَّ أن أحضر أحجية الغد.»

- «سوف أناديك إن احتجت إليك.»

تحرك ربيع نحو غرفته وعكست مخيلته صورا لمرحلة طفولة قد نساها، سخرية الأطفال منه وهو ينافسهم بلعبة كرة القدم، ركوب الدراجة الهوائية،

طعم المر الذي تركته المدرسة الابتدائية. «كانوا جميعهم على خطأ، انا لست بيتيم طوال هذا الوقت، بل كنت ابن الشهداء» قالها في خلده والغضب يشع من عينيه كنجم يحترق في الظلام محاطًا بهالة حمراء.

دخل إلى غرفته وصدره مثقل بالذنب فلقد كذب عندما سألته جدته كيف سيدفع فاتورة المستشفى، أجابها أن الصحيفة سوف تتكفل بها وتجنب أخبارها بزيارة طلال وغازي. كان القرار قراره فلقد عاش حياة مزيفة حتى هذه اللحظة، فلقد ذاب الغشاء عن عينيه، ورأى الحقيقة بواقعية مجردة. انه ابن فارس وسمر، انه ليث أبن الأسد، ولذلك وعد نفسه بألا يرتدي ملابس ذات أكمام طويلة بعد الآن فلقد أصبح راضيًا عن بشرته المشوهة.

خلع قميصه ورماه على السرير المجاور وجلس على كرسيه عاريًا وانحنى جذعه فوق مكتبه ليرسم أحجية الغد، سمع نباح الكلاب في الشارع وابتسم للحياة وتدفقت النشوة بين شرايينه ودق قلبه في صدره كطبل يرن قبل معركة، فلقد انقشع ضباب الشك وبان اليقين أخيرًا.

◆◆◆

استندت الملكة الأولى بظهرها على فراشها واحتست كوبا من الحساء بشهية وعادت الحياة لوجنتيها كما يروي الماء ساقية ناشفة. مطّت شفتيها، ثم لعقت شفتها العلوية بلسانها كطفل صغير يتمتع بما يأكله. غطت جذعها بلحاف جاءها كهدية من مدينة مجاورة مباركًا باسترجاع عافيتها. طرز الغطاء بنقشات هندسية متعددة تضمنتها ألوان تشبه ألوان الطاووس بتناسق بين ظلال الأخضر والأزرق. تمتعت بانتباه الجميع لرغباتها وشعرت بمقامها عند كل محبيها فامتلأت الغرفة بأكاليل الورد والنباتات العجيبة. جلس بجوارها سرجون وراشد والطبيب الذي كان يلعب بنظارته كلما شعر بالتوتر. سُعد سرجون بتعافي والدته، وربت على كتف الطبيب محتفلًا بالمعجزة عدة مرات. ذكرها الطبيب براحة الفراش قدر المستطاع وأن أصرت على المشي فحدها الأقصى بالمشي إلى الحديقة الداخلية. امتلأت الغرفة بالأجهزة الطبية التي استعارها الطبيب من المستشفى ورن كل جهاز برنة مختلفة. أمرها الطبيب بتناول مجموعة من الأدوية يوميًا في وقت معين لكل حبة، حبة بيضاء قبل الطعام وحبة زرقاء قبل النوم بساعة.

أخذ راشد المعلومات كما فعل في المدرسة بدفتره الخاص به، وهز رأسه موافقًا مع أوامر الطبيب، غمغم مع نفسه ووضع خطًا تحت لون الحبة وخطًا أخر تحت الوقت ومن المسؤول عنها. بقت ملامح سرجون طبيعية لم تعكس الشعور بالفرح أو الحزن فلقد وهنت قدرته بالتفريق بين الحقيقة والكذب في تصريحات والدته فما يزال البحث مستمرًا عن شقيقته، بحث سري لا يعلم به إلا هو وراشد. أنصتت الملكة لأوامر الطبيب وملعقة الطعام مستقرة في فمها وعندما سألها عن استيعابها للنصيحة هزت رأسها موافقة.

- «حسنًا» قال الطبيب وبعد أن تنحنح أكمل وقال «لقد انتهت مهمتي الآن أستأذن منك يا مولاي» وحنى رأسه احترامًا.

وقف الملك وسالت ابتسامة حارة على ملامحه أذابت برودة وجهه وقال بشفافية مصافحًا الطبيب «أحسنت صنعًا، بدون خدماتك لفقدت المدينة ملكتها الأولى.»

- «عفوًا يا مولاي لقد قمت بواجبي فقط» أبقى رأسه منحنيًا.
- «ارفع رأسك يا طبيب فأنت جزء من هذه العائلة» وربت على كتفه مرة أخرى، أشر إلى راشد بسبابته الذي مازال يكتب الملاحظات في دفتره، ثم قال «راشد سوف يعتني بك ويقدم لك هدية رمزية» وأشار بإصبعه نحو راشد.

قفز راشد قفزة من كرسيه تدل على عمره وقال بسرعة «بالتأكيد يا مولاي.»

أشر راشد إلى الطبيب بذراعه اليسرى كي يخرجا من الغرفة معا، وأحنى الطبيب رأسه احتراما نحو الملكة والملك. أستمع الملك لوقع خطواتهما في الممر منتظرًا سكون الجناح، وتمنى لو كان لديه درعا يحتمي خلفه أو سيفًا يقاتل به، ولكنه وجد نفسه ولسانه فقط. تجاهلت الملكة وجوده واحتست الحساء كأنها لم تأكل منذ عقود وبعد ذلك مسحت فمها بالغطاء الثمين. جلس سرجون بجوارها داعيًا بعودة راشد بسرعة فأحنى جذعه ووضع وجهه بين يديه متفاديا النظر إليها. تنحنحت الملكة وبلعت ريقها بصعوبة وطلبت من سرجون بصوت هامس.

- «سرجون اجلب لي قدحا من الماء» وتفادت المجاملات.

غمغم سرجون مع نفسه ووقف بكسل واتجه نحو طاولة صغيرة في زاوية الغرفة وضع عليها إبريق من الماء البارد طافت على سطحه مكعبات ثلجية وشرائح من الليمون وبجانبه مجموعة من الأقداح الزجاجية. «هل اسألها عن هذيانها؟ لقد نصح الطبيب بحاجتها لفترة النقاهة» ملأ القدح بالماء متفاديا سقوط قطع الثلج والليمون. «يعتقد الطبيب بأن الأدوية تجعل الكوابيس تتوالد في نومها، لذلك عليها بالانتظام في تناول الطعام والشراب

والالتزام بأخذ الأدوية بحرص. لديَّ الكثير من الأسئلة عما حدث واحتاج إلى أجوبة حتى اعرف أين أبحث عنها، لقد أصبحت مهووسا بالفعل كما قالت تمارا، لست أفكر بشيء أخر غير ما حدث لأختي» تساءل سرجون مع نفسه.

- «هل ذهبت لتجلب الماء من بئر يا سرجون» قطعت حبل أفكاره بسخرية لاذعة.

أعطاها قدح الماء برفق وتناولته بيد هشة ترتجف مع دقات قلبها وشربت الماء بحرص. أرتوى ظمأها وبرزت أنيابها الصفراء وندب شفتيها المشققتين وقالت بدون تغير في ملامحها:

- «لماذا لم تأت تمارا لزيارتي؟» ونظرت إليه بنظرة صارمة.

تلعثم سرجون فلم يتوقع أن يبدأ الحديث بسؤال عنقودي كهذا «ماذا يقول لها؟ انه سهر عدة ليالي لا تحصى بجوارها وجلب لها أفضل طبيب في المدينة، لماذا هذا ليس كافيًا لإرضائها» تساءل في وجدانه واستشعر العرق يتبلور في كفيه وتناثرت حبيبات على جبينه، تفادى جرح مشاعرها فعقد يديه سويًا وتجنب الكلام. تغيرت ملامحها ورسم على وجهها الجواب فشَدّت بشرتها حول شفتها السفلية وتجعد ذقنها وقالت له «هل أصبحت امنية مستعدة للسلطة؟»

سؤال محرج أخر تردد في خلده وقبل أن يفتح فمه بإجابة ردت الملكة على سؤالها «عليك باختبارها كما امتحنك والدك» وتطلعت حولها بفخر متمعنة بجلالة الصور المعلقة على كل حائط ثم أكملت «كان رجلا عظيم عرف بالضبط ما يريده من الحياة ومن أولاده ومن شعبه.»

ألتقط سرجون أنفاسه وهو يعوم في بحر التناقضات، فتنفس الصعداء وسأل والدته «لقد كنتِ غاضبة منه في هذيانك» وتفادى الدخول في صميم الموضوع.

- «لم أزعل منه ولا مرة واحدة، كان زوجًا مخلصًا وأبا حنون، ورعى عواطفك كأنك مصنوع من زجاج، ودلل أحلامك الوردية وآمالك حين كنت غلامًا. أتذكر جيدًا عندما ألححت عليه عدة مرات بأنك لن تكون جاهزًا للقيادة إذا استمر بإعطائك جرعات من الحنان اليومي وضغط على نفسه عدة مرات ليعاقبك ويصنع من العجين رجلًا يستطيع قيادة شعب كامل بقبضة من فولاذ» ركزت على كلمة عجين وابتسمت ابتسامة ذات معنى.
- «ولكن يا أمي...» قاطعها مرتعدا.
- «ولكن ماذا؟» تساءلت بعفوية مطلقة.
- «قلتِ لي بأن لدي أخت أكبر مني بعام واحد» خرجت كلمة أخت بصعوبة من فمه.

ألتزمت الصمت وأغلقت جفنيها مضيفة رهبة إلى تفكيرها العميق بمحنة ضخمة ثم قالت «لا اعرف عماذا تتكلم؟»

- «لقد قلتِ لي أن لدي أخت...»

قاطعته الملكة بصرامة وصرخت «هذيان كل هذا هذيان». خيم الصمت عليهما وشعر سرجون بأنها تتفادى الكلام عن الماضي لسبب ما، فرد «حاضر» غمغم الكلمات وشعر بخيبة من الأمل تضغط على صدره.

مرت هدنة من الصمت سقط ظلها البارد على الغرفة بأكملها، وقال سرجون «عذرًا يا أمي، ولكن عليَّ الذهاب إلى مكتبي» وقف ببطء والارتباك يوهن ركبتيه، انتظر رد أمه ولكنها إجابته بحركة وداع من أصابعها، هز سرجون رأسه احترامًا واتجه نحو الباب وقبل خروجه نادته بصوت أمومي «سرجون» نادته كما كانت تناديه حين كان غلاما رافعة صوتها عند حرف النون.

- «نعم يا أمي؟» قال أمي بشجون الطفل للأم.

- «أن العبث في الماضي لا يجلب إلا الندم، اترك أحداث الماضي وفكر بالمستقبل» ارتكزت على فراشها وشعرت بالنعاس يحاوطها.
- «بالتأكيد» هز سرجون رأسه موافقًا وابتسمت الملكة ابتسامة لم يرها منذُ زمن بعيد.

اتجه سرجون نحو مكتبه متطلعا لقراءة الصحيفة وانتظار عودة راشد. دخل مكتبه ومشاعره تتقلب في أمعائه، والتصقت حموضة بسقف فمه لم يستطع التخلص منها حتى بعد أن بلع ريقه عدة مرات. دخل وأصبح منظر مكتبه كفردوس بالنسبة له، وضعت صحيفة اليوم على طاولة وبجانبها قدح من القهوة عرف عذوبتها من بخارها، جلس على مقعده وامتد بجذعه مسترخيًا. ترك الكلام مع أمه لسعة طعمها مسموم ممزوج بالعلقم، ضغط على جفنيه باحثًا عن راحة فورية فقدها وافتقر لها منذُ مدة.

أخذ رشفة من قدح القهوة ولكمت مرارتها النعاس عن جفنيه، حدق إلى الصحيفة المطوية كما يحبها وفتح درجا في مكتبه باحثًا عن قلمه المفضل. أخذ قلم الحبر الأزرق أولًا ثم أخرج غليونه ثانيًا، منعه الطبيب عن التدخين منذُ ولادة امنية مؤكدا له بأن الشراب والتدخين سوف يؤديان به إلى حتفه. وجد سرجون طمأنينة في طقوس التدخين وهدوء الأعصاب مع كل فقاعة دخان تخرج من صدره.

فتح علبة ذهبية بحجم عصفور وفاحت رائحة التبغ حول مكتبه فاسترخت عضلات عنقه وتلاشى الألم بين فقرات ظهره. هدأت روحه مع كل حفنة من التبغ وضعت في الغليون، داس بإبهامه الغليظ طبقات التبغ وتكلس لون مشمشي تحت أظفره. مطَّ شفتيه بشهية كلما لطع طرف إصبعه وتبلل لسانه بلعاب لزج. جلس الغليون في زاوية فمه وتمتع بطعم الخشب الذي سال كجدول متخللا لثته. فحص تدفق الهواء مع كل نفس وبسرعة ساحر أشعل الغليون بعود ثقاب وأخذ أول جرعة بتأمل.

انبعثت رائحة الكبريت مع التبغ المحروق واسترخى سرجون وازداد حكمة ووقارا مع كل نَفَس. القهوة والدخان إدمانان مرغوبان لكل من سكن الصحراء وعشق سهر الليل. رفيقان لا يتفارقان يسهلان درب الحياة ويسرعان من مرور الوقت، وكما يصهر الثلج بالنار وجد سرجون نفسه يتمتع بتناول القهوة والدخان قارئًا صحيفة اليوم.

فتح الصحيفة المطوية برقة، ووجد صورته تتوسط الصفحة الأولى وبجانبها عنوان يذكر القراء بخيرات الملك عليهم والمسيرة المنصورة تحت قيادته الحكيمة. تفادى سرجون الدعايات الملكية وتصفح الصفحات بلا مبالاة مارًا بين صفحات الاقتصاد والرياضة والفنون وتوقف عند صفحته المفضلة، صفحة الأحاجي والكلمات المتقاطعة التي اعتاد على حلها منذُ كان وليا للعهد. طوى الصحيفة عدة مرات فبقت مربعات الكلمات المتقاطعة أمامه واختلس نظرة إلى أجوبة أمس. ابتسم ابتسامة خفيفة وألتهم الأجوبة المكتوبة. كان هذا جزءا من روتين نماه على مدى عقود احتاجه ليهذب روحه ويمرن عقله.

وبجانب أجوبة العدد الماضي كانت هنالك سبعة أرقام اليانصيب وصورة لجزيرة خضراء في وسط محيط أزرق يمتد على مدى البصر وكتب عنوان أرض الأمل بجوارها تفتح شهية كل من سكن الصحراء وعاشر الرمال والشمس. إعلان ضئيل بجوار الأرقام يذكر سكان المدينة بمراجعة بطاقاتهم فلم يتقدم أي شخص لاستلام الجائزة بعد.

تكلم سرجون في خلده وارتفع الغليون ونزل مع كل كلمة تهمس، أخذ قلم الحبر بين أصابعه وقرأ أحجية اليوم. تنقل تركيزه من الأسئلة العمودية إلى الأفقية وانطبعت المربعات البيضاء في فضاء مخيلته السوداء. تحرك بين السطور بخفة بهلوان يقرأ السؤال ويكتب الجواب في محله، ملأت المربعات بمهارة وبقي الحبر الأزرق الدليل القاطع الوحيد في مسرح الجريمة.

واحد عمودي «علم الحساب، فعل للنداء» كتب الملك (رياضيات، يا)

اثنين أفقي «يحيي ويرحب، عملاق» كتب الملك (يسلم، مارد)

تباهى الملك بشطارته وترددت كلمة «سهلة» في مخيلته ودارت رائحة التبغ المحروق كدوامة جرت قلقه إلى القاع وطاف زبد روحه عاليًا، تمتع بخلوته وتأرجح الغليون يمينًا وشمالًا وهناك انقطع حبل أفكاره على دقات طرقت الباب باحترام.

- «تفضل» رد الملك بدون أن يرفع بصره عن الأحجية.

دخل راشد وبيده الملف اليومي واستنشق رائحة التبغ بكل سعة صدره فكان هو الآخر مدخنا مخضرما ولكنه ترك التدخين بعد أن وعد زوجته إن أنجبت له ولدًا فلسوف يعتزل هذه الهواية السيئة، وجاء سامي وكبر وأصبح رجلا يعتمد عليه ووفى راشد بوعده لزوجته.

- «عفوًا يا سيدي لقد انتهيت من الطبيب، انه سعيد للغاية.»
- «ماذا أهديته؟» رد سرجون وهو يتلاعب بثلاثة عمودي برأسه «حكم المدينة، من جاءه ولد.»
- «ساعة ذهبية، نحت أسمه عليها» رد راشد بعفوية فإهداء الهدايا والجوائز جزء لا يتجزأ من عمله.

كتب سرجون هاز برأسه موافقًا (ملكي، أبن)

- «هل هناك أي تطور بالبحث؟» سأله سرجون ورفع بصره عن الصحيفة ووضع الغليون جانبًا وتدفق الدخان منه كسراب يستبق واحة خضراء في صحراء جدباء.
- «لقد أسست فريقا يتكون من ثلاثة أشخاص لديهم مهمة واحدة وهي البحث عن شقيقتك يا مولاي. أعدك بأن التحري سوف يكون سريا للغاية ولن يعلم أي مرء بنتائجه إلا أنت» نظر راشد إلى الدخان بشهية.

- «ممتاز هل تعتقد أنها على قيد الحياة؟» سأله سرجون بجدية.
- «لا أعرف، ولكن سوف نجدها بالتأكيد إن كانت على قيد الحياة» حك انفه بأصبعه متأملًا مستنشقا بقايا رائحة التبغ القديمة في أصابعه.

فكر سرجون لبرهة قبل أن يعلم مستشاره بما حدث ثم قال «لقد نفت كل شيء» قالها والخنجر يطعن بصدره.

- «من؟ من نفى كل شيء؟» إجابه راشد باستغراب.
- «أمي، لقد نفت أمي وجود أختي بالكامل» صعدت رغوة الاكتئاب إلى سطح بحيرة في صدره، هل من الممكن أن يتنازل عن أخته وتُغدر مرة أخرى، هل من الممكن أن يقع في نفس الخطأ الذي وقع فيه ابيه.
- «كيف ولماذا؟» سأله راشد سؤالين يسألهما كل من عمل في السلطة.
- «قالت لي انه هذيان الحمى، ولكن...» سكت سرجون وجذب بصره إلى الكلمات المتقاطعة وقرأ أربعة أفقي «ما يؤنبك، ابيض في الشتاء.»
- «هل تحب أن ألغي البحث عنها؟» سأله راشد متأملا موافقة الملك فالبحث عن امرأة في منتصف الخمسينات ذات وحمة صعب جدًا.

ملأ سرجون المربعات (ضمير، ثلج) ورد على راشد «كلا، كلا استمر في البحث» أخذ سرجون رشفة من القهوة.

- «بالتأكيد يا سيدي.»
- «لدي شعور بأنها تكذب وتحاول ردعي عن التنقيب في الماضي» وضع الغليون في الزاوية الأخرى من فمه وقرأ السؤال التالي:

عشرة عمودي «عصفور، صنع من طين»

- «كما تأمر يا مولاي» أُعجب راشد ببداهة الملك الذي استطاع حل الأحاجي والكلام في آن واحد.

كتب سرجون الجواب (بلبل، خزف)

غرزت نقاط الحروف نفسها على الورق الأسمر وأضاف اللون الأزرق رهبة لكل نقطة خالقًا هاوية لا قرار لها. وضع سرجون قلمه جانبًا وأخذ نفسا عميقًا من غليونه فتوهج التبغ كأنه كوخ يحترق من الداخل، نار حمراء تحرق كل من جاء في طريقها.

- «لم اسمع منك أي أخبار جديدة عن المقاومة منذُ أكثر من أسبوع، هل نجحت العملية؟» تمدد على الكرسي واضعًا يده خلف رأسه.
- «كلا يا سيدي هنالك تأخير من جبهة المقاومة، هذا ما قاله غازي وطلب مني بالصبر.»
- «كما قلت لك مسبقًا لا داعي للاستعجال، أن الجبن موروث في مواطنينا» ارتدى قناع الغطرسة مجيبا بشيء من الاحتقار.

شرب سرجون ما تبقى من القهوة وقرأ السؤال التالي، ستة أفقي «ما يوضع في البيت، أشجار المدينة.»

ابتسم راشد ابتسامة فيها بعض من الخجل فلا يحب المبالغة في سرد الأخبار وقال «عذرًا يا مولاي، لدي الكثير من المهام، سوف أراك في المساء لأطلعك على آخر المجريات.»

- «ممتاز» وكتب سرجون الجواب (أثاث، نخيل) ورفع إصبعه مودعًا.

قرأ السؤال التالي، عشرة أفقي «تغيير للحكم، بيت الرسالة»، وقف راشد متجهًا نحو الباب تارك الملف على الطاولة وناداه سرجون بلطف «هل تعتقد أن امنية جاهزة للسلطة؟»

أستغرب راشد من السؤال فمازالت امنية في بداية حياتها وهناك الكثير من التجارب الإنسانية والدراسة المطلوبة منها قبل أن تصبح جاهزة لتكون ولية للعهد، رفع راشد حاجبيه عاليًا ورد:

- «ليست جاهزة مثلك يا سيدي، لقد كنت ولي العهد المثالي في خبرتك العسكرية والميدانية.»

- «هل بإمكاننا اختبارها؟ امتحان لنرى قابليتها للنزاهة والبطش في آن واحد.»
- «بالتأكيد، اترك الأمر لي» ابتسم راشد وأضاف مهمة أخرى لقائمته الطويلة.
- «ممتاز، اغلق الباب خلفك.»

أحنى راشد رأسه احترامًا وأغلق الباب خلفه بسكون، ملأ سرجون المربعات بالجواب (انقلاب، ظرف) ونظر إلى الكلمات لبرهة وشعر بيد من فولاذ تخنقه بعنف، اتسع بؤبؤا عينيه ونادى راشد بأعلى صوته.

◆◆◆

١٢

بدأ الخريف واحتلت الغيوم السماء فاختلط رمادها ببياض الأفق البعيد، وحملت نسمة هواء نكهة باردة معلنة بداية موسم جديد. اهتزت أغصان الأشجار وسعف النخيل بنغمة واحدة كأنها في فرقة رقص جماعية هزت أطرافها بنمط واحد. حافظت معظم الأغصان على أوراقها كمعطف يحميها من البرد القادم وسقطت بعض الأوراق الصفراء بتخاذل ولبثت بين الشارع وحافة الرصيف، تجمعت الأوراق مكونة مجموعات من المقابر الجماعية على طول الرصيف تذكر الإنسان بدورة الحياة.

هاجر معظم الطيور واشتاقت المدينة لتغاريد العصافير وألوانها المميزة ولم يبق إلا نقيق الصراصر يحوم حول الأشجار بنغمة جماعية مميزة ناقلين معلومات مهمة بينهم. ولم تخلوا الشوارع من الحيوانات فقط، بل من الأطفال الذين اتجهوا إلى مدارسهم متطلعين لبداية عام دراسي جديد. قرعت المكبرات في وقتها المعهود وعلم الناس دقة الوقت من رنة صوتها. توقفت عقارب الساعة على التاسعة صباحًا وفتحت معظم الدكانين أبوابها وتنقل بائع الخضرة بين المحلات يبحث عن رزقه اليومي. سمع ربيع رنات البقال المتجول وعلم تأخره عن موعد العمل، لقد قرر بالعودة إلى العمل مع بداية الخريف بعد إصرار جدته المستمر. وقف أمام المرأة مرتديًا قميصا أهدته جدته إليه في عيد ميلاده، قميصا مخططًا بأكمام قصيرة ونتأت كتل لحمية على ذراعيه كهضبات خلقت من رماد.

عدل ياقة قميصه ولم يبال بتشوهات جسده بعد لقائه بطلال وغازي، فلقد حصلت روحه إلى ما احتاجته طوال حياته، دليل قاطع على جرائم العائلة الملكية وكان جسده النحيل الدليل بنفسه. لقد مر أسبوع كامل منذُ أن وضع الرسالة المشفرة في الكلمات المتقاطعة، ولكنه لم يسمع شيء على الأطلاق. خاف في البداية من كل دقة باب ومع مرور الأيام استعاد ثقته بالنفس تدريجيًا واقنع نفسه بأن الرسالة ذهبت بدون عنوان. وعندما سأل عن طلال في الصحيفة خلال زيارته اليومية القصيرة، أخبره خليل بأنه طريح الفراش بسبب وعكة صحية.

تلاشت الأحلام الدموية، وفقد الثأر بريقه، ومر وجدانه بشتاء طويل قارص وتكلس الانتقام كجوهرة في فؤاده عكست بريقها البارد على شؤون الحياة وهناك قرر ربيع مع بداية الخريف بأن يرمي ثقله على وظيفته والعناية بجدته وينسى المعارضة والرجل ذا عصابة العين وربما في يوم من الأيام يستطيع الثأر ممن قتل والديه.

- «ماذا لو ضحكوا على بشرتي في الصحيفة؟» تسأل مع نفسه لكن عزيمته طحنت الخجل بين أحشائه.
- «هيا يا ربيع لقد تأخرت» نادته جدته من صالة الجلوس.
- «أنني قادم» رد رافعًا صوته عاليًا.

مشط شعره وألقى نظرة أخيرة على المرآة، وترك انعكاسه ابتسامة خفيفة وخرج من الغرفة بعجلة، وبعد عدة خطوات أصبح في منتصف الممر وتلاعبت يده في قاع جيبه فألتفت ورجع إلى غرفته وتناول علبة الكبريت الفارغة من الطاولة وركض نحو صالة الجلوس. وجد جدته جالسة على كرسيها بجوار الشباك كالمعتاد وبيدها طاسة نحاسية ووضعت أمامها وعاء احتوى على بعض المخلفات. فرزت العدس واحدة بعد الأخرى وهي تتأمل شجرة ليمون طفحت ثمارها على جانبيها. التفتت عندما سمعت وقع خطوات ربيع وقالت له:

- «لقد تأخرت يا ابني» خرجت الكلمات قبل أن يقع بصرها على قميصه الجديد.

خرج ظل نحيل من الممر ثم تلاه صاحبه والابتسامة ممتدة بين زاويتي فمه، قبل يدها بحنان وتبادلا المجاملات الصباحية ثم قال لها بشراهة مفتوحة وهو ينظر إلى العدس.

- «لقد اشتقت إلى طبخك يا جدتي، لا تنسِ قلي بعض شرائح البصل.»
- «ما هذا القميص الجديد؟» سألته بخباثة ثعلب.
- «انه القميص الذي...» قاطعته الجدة بإيماءة من رأسها وردت عليه.
- «لا تنسَ ورقة اليانصيب، لقد مر أسبوع كامل ولم يطالب أي شخص بالجائزة، لقد دعوت إليك بصلاة الصباح، لا تتأخر على العشاء.»
- «بالتأكيد سوف اذهب إلى الدكان قبل العمل وافحص البطاقة، أن احتجتِ إلى مساعدة لا تترددي بطلبها من الجيران» وضع يده في جيبه وبحث عن ورقة اليانصيب التي لفت نفسها حول علبة الكبريت.
- «لا تقلق اذهب واجتهد في عملك» تمعنت جمال قامته وحسدته على عنفوان شبابه وتفادت النظر إلى ذراعيه العاريتين، بزغت ابتسامة أم لأبنها على ملامحها وقالت له «بالسلامة.»

أغلق الباب برقة وتأكد من قفل الباب بمفتاحه الشخصي، وتمشى صوب الدكان الذي لم يكن يبعد سوى بضع دقائق، استغرب من السكون الذي غمر الشارع، واشتاق إلى ضوضاء الأطفال، وعندها تذكر أنها بداية العام الدراسي. وجد كلبا نحيل الجسد، برزت عظامه من جلده، نائمًا بجوار عمود، متمتعًا بظل جدار رسم عليه إحدى الشعارات الملكية القديمة التي بهت لونها ولم يبق منها إلا حدود كلمة «وحدة». عقف الكلب أذنيه إلى الأسفل مستسلمًا لقدره، وانتبه ربيع إلى أذن الكلب اليسرى المقطوعة بشكل عظة حيوان آخر، فهز رأسه بلا مبالاة وخرج من شارع بيته. حدق في الأفق ووجد القصر في مكانه تلمع أعمدته تحت أشعة الشمس الباردة.

لقد خلا الجو من الغبار وسراب الصحراء، وصقلت برودة الجو غوغاء الرمال وفرضت نظامًا على كل حبة رمل. استطاع ربيع رؤية التل الترابي الذي انتشرت فيه جداول الورود والياسمين وأشجار مثمرة، وهناك جثم القصر الملكي فوقه راسخًا في عقول الناس، يذكر المرء بأولوياته، الشمس، الملك والمدينة.

تمتع ربيع بنكهة الخريف التي مرت عبر نسمة هواء تلاعب ذراعيه، والتفت حول الكتل اللحمية المشوهة، هدأت روحه، وهرب الفزع، وغمرته الطمأنينة برؤية الأشجار الميتة. تمعن جمال أغصان الأشجار العارية، تشعبات الأطراف بلا أوراق كأصابع ساحرة فقدت قدرتها على السحر والدجل. تمشى نحو الدكان ودار سؤال واحد في خلده «هل تتذكرني الأميرة؟ وكيف تتذكر شابا من عامة الشعب رأته لبضع دقائق في حفلة عيد ميلادها» تضاربت الأسئلة في داخله كبرق يضرب شجرة يتيمة على هضبة تل المرة تلو الأخرى. تذكر يدها الناعمة تنام على راحة يده، وشعر بأن القدر كتب لقاءهما في تلك الليلة المذهلة. «هل من المعقول أن تكون حياته فصلا في قصة للأطفال؟ الأمير الذي ينقذ الأميرة ويقتل الشرير».

شعر بأنه قد قلب صفحة جديدة مع بداية موسم جديد، فلقد تحسنت صحة جدته وأصبحت قادرة على الاعتناء بنفسها بمساعدة جيرانها. «اترك الماضي في مكانه» هكذا كانت تذكره كلما سألها عن والديه وما حدث في تلك الليلة السوداء. استمع لنصيحتها ولأول مرة منذُ زمن بعيد ازدادت ثقته بنفسه وزال الاضطراب عن صدره فلقد اختفى وجع الأسنان ونساه كليًا وتبخر من ذاكرته. ابتسم ابتسامة غامضة عندما تذكر كيف تجنب غسل يديه بعد مصافحة الأميرة لعدة أيام وبحث عن رائحتها لأسبوع كامل. تلاعبت أصابعه بعلبة الكبريت وانطوت ورقة اليانصيب بين أنامله عدة مرات. بحثت عيناه عن حشرات لقت حتفها على جانب الطريق فما يزال العنكبوت يعتمد عليه لمده بالولائم والتغذية المكتملة. نسى نفسه وهو

يتأرجح بين حافة الشارع بينما ينتقل بصره من نقطة فارغة لأخرى فارزا الحصو والنفايات تلقائيًا حتى وجد نفسه أمام دكان ذي سقف أحمر.

وقف رجل يقرأ جريدة اليوم أمام الدكان وتدلت سيجارة من فمه يراقب دخول الزبائن وخروجهم دون مبالاة، وكلما دق جرس الباب رفع رأسه عن الصحيفة للحظة ورجع إلى ما يقرأه بتصنع. لمح ربيع من بعيد وشك فيه في البداية لكنه تجاهله عندما رآه يبحث عن شيء أضاعه في الشارع. دخل ربيع المحل وتلاشت ابتسامته وشعر كلاعب شطرنج أخطأ بتحريك إحدى القطع، ورأى ذلك الرجل ذا الابتسامة المالحة جالسا في نفس المكان. دخلت أشعة الشمس من نافذة صغيرة وتركزت أشعتها على وجه البقال وتطايرت حبيبات الغبار حوله، برز رأس الرجل المراقب من خلال النافذة متصفحًا جريدته وانتبه ربيع لهرم الرجل خلال بضعة أسابيع. ازدادت الخطوط حول عينيه وتشققت شفتاه من عطش أزلي، رفع بصره ولم يكترث لدخول ربيع المحل.

جلس البقال في مكانه يقلب صفحات الصحيفة التي وضع فوقها قشور البيض والبصل، سلم ربيع ورد الرجل السلام بعفوية باردة. أخرج ربيع ورقة مستطيلة فقدت لونها جزئيًا وتجعدت زواياها من العرق واللمس المستمر، تلعثم في بداية الكلام وفقد القدرة على النطق والتصق الخجل لسانه بسقف فمه. لكن إصراره على بداية جديدة أعطاه جرأة دفعت به لسؤال البقال عن اليانصيب:

- «عفوًا لو سمحت أود أن افحص بطاقتي» أحنى ظهره وعرض البطاقة كهدنة بين جيشين.
- «لم تصدر نتائج هذا الأسبوع بعد» قالها البقال بعجرفة وأصابعه تتلاعب بقشور البصل وبصره منجذب للجريدة.

تلعثم ربيع من المطب الأول وفقد خريطة أفكاره ووقف يتطلع حوله ولم يلاحظ اختفاء الرجل المراقب عبر النافذة. داهمه شعور بأن هذه المجريات

قد مرت عليه من قبل، حتى طعم المرارة فوق لسانه ذكره بوجه البقال البائس.

- «عفوًا انني اسأل عن نتائج الأسبوع الماضي» خرجت الكلمات بصعوبة وسالت حبة عرق باردة على طول جذعه.

حدّق البقال بسخرية، رافعًا حاجبيه عاليًا باعثا برسالة مفادها أن على مستلمها بأن ينسى الموضوع. رجع البقال إلى القراءة وأخذ حفنة من حب عباد الشمس وأكلها بشراهة، رمى قشور الحب الندية على الأوراق السمراء بجوار بقية القشور المفتوحة. ولو كان أي يوم آخر لتخاذل ربيع وخرج من المحل بدون أي مقاومة لمعاملة كهذه، ولكن اليوم نقطة مهمة في حياته وبداية جديدة فوجد نفسه يقترب من طاولة البقال وانشَدّت عضلات جسده كالفولاذ واحمرت وجنتاه، وبكل برودة أغلق الصحيفة أمام البقال واضعا بطاقة اليانصيب فوقها وقال للرجل بصرامة:

- «افحص البطاقة الآن لو سمحت» لم يتحرك أو يتنفس وحدق بعيني البقال بشراسة.

لبث البقال على مقعده مترهلًا، وابتسم ابتسامة مالحة وغمغم مع نفسه «لقد أصبحت الفريسة حيوانا مفترسا». أخذ البقال البطاقة المهترئة بيده اليسرى، وفتح درجا مختبئًا تحت الطاولة، وأخرج دفتر حكوميا غلافه أزرق في وسطه شعار ملكي ذهبي. حك لحيته البيضاء وانفه في آن واحد. فتح دفتره على صفحة امتلأت سطورها بأرقام حمراء وخضراء ودونت الصفحة بتاريخ قديم.

أخذ البقال مسطرة مكسورة الأطراف وحاذاها بجوار أخر سطر كتب عليه سبعة أرقام حمراء، حرك البطاقة بأصابعه وصفها بجوار المسطرة والسطر. تنحنح عدة مرات وأخذ رشفة من الماء وعاد لقراءة الأرقام عدة مرات حتى رفع ذقنه عاليًا وابتسم نحو ربيع وقال له:

- «من أين جئت بهذه البطاقة يا ابني؟» تغيرت نبرة صوته مضيفًا أبوة لنغمتها.
- «منك!، لقد اشتريت هذه البطاقة من هذا المحل» ردَّ ربيع متوقعًا أن يتذكره البقال.
- «عظيم!، مبروك لقد فزت بالجائزة الأولى» بزغت بسمة على وجه البقال وأشرقت أسنانه الصفراء المتفرقة وأعاد البطاقة إلى ربيع.
- «عفوًا ماذا تعني بالجائزة الأولى؟» سأله ربيع والشوق يتمرد داخل حنجرته.
- «أرض الأمل، لقد فزت بجائزة السفرة السياحية أجورها مغطاة، كل ما عليك أن تملأ بعض الاستمارات» قالها البقال وكتب أرقام البطاقة في دفتره الأزرق ثم أرجعه إلى الدُرْج. أخرج بعض الاستمارات الخضراء يتوسطها شعار ملكي على رأس كل صفحة.
- «أنا!، أنا فزت بالجائزة؟» تلعثم ربيع ولم يصدق ما سمعه، رنت أذنه اليسرى وشعر بالدوران فأسند ذراعيه على الطاولة المجاورة. أراد أن يسأل مئة سؤال في آن واحد، ولكن وجه جدته أشرق في مخيلته.
- «تفضل اجلس واملأ الاستمارات ثم وقع في نهاية كل صفحة» عرض البقال قلمه وأشر نحو صندوق مقلوب رأس على عقب يستخدمه الزبائن كمقعد.

ارتجفت ساقاه، وارتخت ركبتاه، حينما جلس على الصندوق وسأل السؤال الذي خاف من جوابه «عفوًا هل من الممكن أن اجلب جدتي معي؟»

تنحنح البقال ورد عليه «الجائزة لشخص واحد، ولكن دعني اقرأ القوانين مرة أخرى» ألتفت البقال قارئًا قوانين الجائزة التي ألصقت على جدار مجاور. تمعن ربيع في أوراق الاستمارة الخضراء التي وضعت أمامه وضاع في متاهة التناقضات، ماذا يفعل بجائزة كهذه وجدته أسيرة لكرسي متحرك، ومن أين يجد شجاعة كافية كي يفتح موضوعا كهذا معها، ويخبرها بنواياه في السفر لأرض الأمل التي حلم بزيارتها منذُ أنشاء الجائزة. «ربما غفر الرب ذنوبي وأعطاني

فرصة لأقلب صفحة جديدة من حياتي بعيدًا عن السلطة وبعيدًا عن الشمس والرمال» تساءل ربيع في وجدانه وانقطع حبل أفكاره على صوت البقال:

- «أن القوانين تعطي الصلاحية للفائز بالسفر لوحده للجزيرة أو يمكن للفائز توكيل شخص آخر للسفر عنه، أسف يا عزيزي أما أنت أو جدتك» قالها البقال منتظرًا جوابا من ربيع.

تمعن ربيع الأوراق التي بإمكانها تغيير مجرى حياته جذريًا ثم قال بتردد

- «احتاج لمزيد من الوقت حتى أستطيع أن أطرح الفكرة على جدتي، هل بإمكاني أخذ الأوراق معي لقراءتها مساء اليوم وأعيدها إليك صباح الغد؟».
- «بالتأكيد، أعطني اسمك وعنوانك وتعال مبكرًا» أخرج البقال دفتره الأزرق مرة أخرى وأخذ معلومات ربيع الشخصية.

وقف ربيع وسلم على البقال بحرارة وانتابه الفرح والفزع في آن واحد تاركًا عقدة في معدته، وشعر بأنه لص يسرق بيضة ذهبية من تحت إوزة. دق قلبه بين يديه واضعًا الأوراق في حقيبته، وبلع ريقه وسلم مرة أخرى وخرج من الدكان. وقف البقال في محله وأعطى إشارة للرجل المراقب من خلال النافذة، اخفى المراقب رأسه خلف الصحيفة منتظرًا خروج ربيع بفارغ الصبر.

خرج ربيع والإثم متكور كحدبة في ظهره، ومشى بخطوات سريعة نحو مكان عمله، محتضنا حقيبته على صدره، أحنى رأسه متجنبًا المارة وأشعة الشمس الباهرة، عبر الشارع ووجد لنفسه جدارا يمشي في ظله. ازدادت خطواته سرعة وتصببت حبيبات العرق على جبينه، وأحس بنسمة هواء تلتف حول عنقه كوشاح وحينها سمع صوت رجل يمشي خلفه مناديًا.

- «النجدة يا ابني» احتضن الرجل المراقب بطنه واضعًا الصحيفة تحت إبطه، التفت ربيع بلا مبالاة فكانت الأفكار تدور في رأسه كدولاب هواء، ناداه الرجل مرة أخرى طالبًا النجدة والألم يشرخ صوته. توقف

ربيع ودفعت كل خلية في جسده بالابتعاد عن الرجل، ولكن مساعدة الناس كانت من إحدى أركان تربية جدته الذهبية.

- «هل أنت على ما يرام؟» سأله ربيع جاثما بجواره.
- «أن أحشائي تؤلمني» وضع المراقب يده على بطنه وانعكف فمه متظاهرا بالألم، وسقطت الصحيفة بجواره.
- «هيا استند علي» أمره ربيع محاولا رفعه من تحت إبطه.

جثم المراقب على الأرض يلفظ أنفاسه بصعوبة وأحتضن بطنه ملتويًا.

- «ما اسمك يا ابني؟» سأله المراقب والزبد متكلس بين شفتيه.
- «ربيع، ربيع فارس» رد بعفوية ثم أكمل «أين بيتك يا عمي؟»

تلعثم المراقب ثم أشر نحو زاوية شارع وقال «هل ترى تلك الزاوية؟ على بعد عشرين مترًا». ألتفت ربيع متتبعًا إصبع المراقب كطفل يتبع الحلوى يبحث عن التواء في الشارع، وفي تلك اللحظة تغيرت ملامح المراقب، وتغيرت تشنجات وجهه، ونبض بريق في عينيه. زحفت يده وأخرجت قضيبا حديديا غليظا من تحت الصحيفة وبذكاء ثعلب ضرب رأس ربيع بكل قوته.

ظلام، آلام، شعلة انطفئ لهيبها وبقي جمرا أحمر، يثقب الجمر عيني الغراب. كلمات ومشاهد تبزغ وتذوب. نباح كلب لا يتوقف، ظلام مدجج بالنجوم يخترقه شهاب محترق. تزحف مربعات الكلمات المتقاطعة نحو بعضها فيندمج الأبيض والأسود، لون رمادي يشبه الشيب، هيكل عظمي مرتخ على كرسي للمعاقين، أشجار ليمون، شعارات وتماثيل، تاج ذهبي، أرض الأمل، ظلام، آلام، نباح كلب لا يتوقف.

◆◆◆

استيقظ ربيع على صدى نباح كلب مبتعدًا واختفى بعد ثوان معدودة، تعالت ضحكات السخرية في رأسه كأجراس تطوف في فضاء مخيلته. أصوات مبهمة وجلجلة مفاتيح وبوابات حديدية تفتح وتغلق دوريًا. شعر بتضخم لسانه وطعم معدني بين أضراسه. سال لعابه مختلطًا بخيط من الدماء من فوهة فمه التي أصبحت أصغر من مما كانت عليه بسبب تورم شفتيه الممزقتين. رغب بمسح فمه وإزالة الزبد المتجمع حول شفتيه، ولكنه كان مقيد اليدين. حرك أصابع يديه التي أصبحت كجذور لأشجار متينة تمنى لو كان بإمكانه اجتثاثها من جسده الذي انحنى فوق كرسي حديدي جرده من إنسانيته. امتدت القشعريرة على طول جسده عندما شعر بخيوط الدم تسيل بين فخذيه شاقة طريقها نحو مصرف حفر في أرض ارتوت من دماء السجناء، ولو كان هناك بذور لنبات في هذه الأرض لخرجت نبتة شريرة جذورها حمراء وورودها سوداء.

رطبت السلاسل بشرته المسلوخة ببرودة منعشة واستنزف ثقل رهيب ما تبقى لديه من طاقة وضع بين كتفيه وساقيه، كبح غريزته الحيوانية وارتجفت عواطفه من تغير وقفته المحرجة، حيثما تلاعبت أصابع قدميه برغوة لزجة فالتصقت أصابعه كالصمغ. لم يحتج لوقت طويل ليعلم أن جسده كان عاريًا تمامًا، وقف محدب الظهر بكل عيوبه كإحدى عجائب الدنيا المندثرة يُختلس النظر إليها ويتمنى زائروها رؤيتها في أحسن حالاتها. كان الظلام دامسا كليلة سُلبت من نجومها والهواء في حالة سكون غريبة، بحث ربيع عن مصدر للضوء فوجد شريطا من النور يتدفق من تحت باب فولاذية.

داهمه الهلع وتنفس بصعوبة فكلما أخذ شهيقًا مرت خطوط نارية عبر انفه، الآلام في مؤخرة رأسه تعادل مئة لكمة وثمة ضغط شديد على صدره ورأسه، تمنى لو كانت لديه صرخة تناسب الألم، ولكن ما خرج من فمه أقرب لنحيب من صرخة صامتة. تقلصت عضلات فخذيه وارتجفت ركبتاه على نسق واحد واصطكت أسنانه على لحن واحد. ارتعش من الخوف فوجد

الوحش وكر مشاعره والتهم أطفال عواطفه واحدًا تلو الآخر، فاحت رائحة البول كهواء حار يتدفق من بالون وحينها فقد ربيع وعيه.

استيقظ ربيع على صوت باب يفتح ورمي شيء على الأرض بعجلة ثم أغلق الباب بقوة وبقت رنة حديدية يتردد صداها في جدران الزنزانة، وتدفق خيط من ضوء الشمس عبر نافذة عارية مستطيلة الشكل تتوسطها ثلاثة قضبان فولاذية. فتح عينيه، ولكنه استطاع الرؤية من عين واحدة فقط. حُررت يداه التي ارتعشت عندما تحسست انتفاخ الجزء الأيسر من رأسه وورم جفنه وجبينه. استكشفت أنامله النتوءات بحذر والتضاريس الجديدة بكل تعرجاتها، جبال وهضاب، تلطخت أصابعه بدم جاف قد تكلس تحت ما تبقى لديه من أظافر. وجد نفسه نائما على سجادة عتيقة فيها عدد لا يحصى من الثقوب، ولم يبق إلا فتات جمع بين أنسجتها، وأحس بخشونة الأرض ونتوءاتها تثقب جلده من خلالها. رفع رأسه ووجد نفسه مرتديًا دشداشة رمادية ملطخة ببقع بمختلف الألوان والأحجام. تشققت شفتاه من العطش، وتخيل كل شرخ كساقية جافة تكسرت تربتها كزجاج مهشم، حك ذقنه بما تبقى من سبابته وتساقطت تكلسات الدماء الناشفة كحبات الثلج. رأى جدران رمادية تحاوطه من كل الجهات وتضاريسها تشابه الأرض التي نام عليها، بنيت لتؤذي وتذل من سكنها، وأدرك انه في زنزانة تفاداها طوال حياته ودُرِّب على الخوف منها منذُ الصغر.

أخذت الآلام الأولوية الأولى واستبقت الجوع والعطش، فتلوى جسده على السجادة وتأوه من كل حركة امر جسده بتطبيقها، أسند ظهره على جدار مجاور وتمعن بزنزانته العارية التي خلت من كل أساسيات الحياة. سلبوا منه كل شيء إلا ذلك الضوء المتسرب كخيط رفيع علق عليه أماله وأحلامه، انعكس ظل النافذة على الأرض الذي تقطع بظل القضبان فأصبح كرقعة شطرنج.

وجد باب الزنزانة لا يختلف لونًا أو شكلًا عن بقية الجدران، ولولا مقبض الباب وثغرة المفتاح الضئيلة ليرى الحارس من خلالها لاعتبره جدارا آخر. لف جسده بالسجادة وارتجف من الرأس إلى أخمص القدمين وتناثر العرق على جبينه وأغمض عينه الوحيدة متأملًا كم قد قضى من الوقت هنا وماذا حدث لجدته، تساءل إن كان هناك منطق في حساب الأيام في السجن، فما الفرق بين مكتبه بدون ساعة وهذه الزنزانة التي أصبحت بيته الجديد.

بقت هذه الفكرة تدور في رأسه كبندول بدون نقطة سكون حتى داهمه النوم وأغواه بالراحة. مرت نسمة هواء فاسدة على وجهه واستيقظ على شيء داعب مقدمة انفه بعجلة، حل الظلام مرة أخرى واستولت نغمات الصراصر على سكون الليل. كانت أرض الزنزانة باردة فلف ربيع جسده بالسجادة وأخذ شكل الجنين في بطن امه. وضع جبينه المنتفخ على البلاط البارد وتسربت الراحة إلى جذعه واسترخت أصابع قدميه المعقوفة. ترك العطش مرارة على لسانه والجوع عقدة في بطنه وأصبح ضعيف الجسد فكل عضلة في جسده نادته بالنجدة. فضل أن يبقى جبينه باردًا على النهوض واستكشاف بيته الجديد، «أين الحارس؟» تساءل في نفسه لكن حبل أفكاره انقطع على خشخشة بجوار الباب، أستلقى على جانبه وفتح عينه ليبصر بما يحدث حوله، ابتلع الظلام كل شيء ولم يدخل من النافذة إلا غزل الصراصر. استمرت الخشخشة كأنها تخرج من زاوية قد تؤدي إلى بؤرة الهاوية، حدق ربيع وتعود نظره على الليل تدريجيًا، تركز سمعه على نقطة واحدة وهناك رأى شيء يتحرك مستترًا بخيمة الليل.

ترنح الذيل يمينًا ويسارًا طويل وغليظ المنظر تضاريسه أقرب إلى جلد الأفعى من أي حيوان أخر. لم يره ربيع بهذا الحجم من قبل فكان بحجم قطة في منتصف العمر، واشمأز من صدى ارتطام أظافره الطويلة بالأرض ومضغه لشيء ما. بقت عيناه تلاحقان الجرذ بفزع، واستمر الحيوان يأكل عشاءه بشراهة، واستدار رأسه وبرزت عيناه اللتان جثمتا في محجريهما وتكلس

الموت فيهما. سقط فتات الخبز اللزج من فمه مختلطًا بما تبقى من نفايات الأرض، خاف ربيع من هذا المخلوق البشع الذي حذرته جدته منه حين كان غلامًا «رسول الطاعون وسوء الحظ» هكذا كانت تناديه وهي تركض خلف كل جرذ تسكع في حديقتها. اختفى الجرذ برمشة عين وهبط سكون أزلي على الزنزانة، بحث ربيع في كل زاوية عارية لكنه لم يجد إلا جدران صامتة. «ماذا كان يأكل؟ انني جوعان» ترددت الكلمات في خلده وهو ينظر إلى نافذة أطلت على ظلام دامس، لف نفسه بالسجادة ودعا إلى ربه لأول مرة من لب فؤاده طالبًا النجدة في سريرته.

نزلت دمعة مالحة حارة من جحر عينه الملتهبة ولسعتها كما لسعه قلبه، كم أشتاق إلى جدته، دعا لها بالصحة والسلامة من أي مكروه وترجى من ربه الخروج من هذا المأزق فلسوف يدعو ويصلي إليه يوميًا. سمع خشخشة مرة أخرى من نفس المكان فغطى رأسه بالسجادة وتمنى النوم بأسرع وقت.

حفر الجوع لنفسه نفقا، وتسلل إلى ربيع، فاستيقظ وسمع أصوات مظاهرة داخل معدته، وتدفق ضوء الشمس لينير الزنزانة بأكملها. رمى السجادة جانبًا وبحث عن كل قوة في جسده ليقف مستندًا على الحائط وتمشى صوب النافذة. وضع يده فوق جبينه حاميًا عينه من الضوء الباهر، وأختلس نظرة إلى الخارج. صحراء تمتد هضابها على مدى البصر، لفحت نسمة هواء حارة وجنتيه واستولت خيبة الأمل على جسده وترهلت ساقاه وأحنى رأسه بين كتفيه. أنصت إلى معدته المتذمرة وبحث عن طعام في زوايا الزنزانة وهناك وجد رغيفا من الخبز قابعًا بجوار الباب.

زين ضوء الشمس من جمال الرغيف، ولحق ربيع بشهيته، ورأى حبات الغبار تتطاير حوله في كل اتجاه، وهناك لكمته رائحة البول الحامضة فارتعد وبقي واقفًا. مكث في نفس النقطة لبرهة، وتأرجح جسده باحثًا عن مصدر الرائحة، بحث عن جرذ أو وكر وخاب ظنه عندما وجد نفسه سجين وحيدًا برفقة أربعة جدران. اقترب من الرغيف ووجده مستقرا في بقعة مبللة

فنديت أطرافه، لم يكن لديه خيار آخر سوى التقاطه، ورجع إلى سجادته مزيلًا الأطراف الندية ووضعها في بقعة ضوء لتنشف.

ارتعد جسده مع كل لقمة لكن الجوع لا يعرف الفرق بين ما هو صالح للأكل وما عكسه فحشر قطع الرغيف في فمه وضغط على نفسه ليبلعها، دمعت عيناه عندما شعر بالانخذال يحاوط جسده وفاحت رائحة البول مرة أخرى. «انه جزء من التعذيب» رددها في خلده حتى أكمل الرغيف كاملًا، تدفقت القشعريرة في جسده، ولف نفسه بسجادته مستعدًا لمواجهة موجة الحمى الثانية.

أسند ظهره على جدار أصبح مأواه، وبمساعدة خيوط الشمس فحص الزنزانة بدقة، كُتب فوق الباب بخط احمر «يستطيع الجرذ اكل الإنسان ولا يستطيع الإنسان اكل الجرذ» تساءل في خلده عما دفع المرء بكتابة تحذير كهذا. تحرك بصره من جدار لآخر ورأى على الجدار المقابل كتابات أخرى دفعت به للنهوض والاتجاه نحوها.

حمل سجادته على كتفه كما يحمل الحلزون قوقعته فوق ظهره كقبر لنفسه واتجه ربيع نحو الحائط، تمعن تضاريسه براحة يده ثم وجد كتابات مختلفة من سجناء قدامى. كتب في زاوية «ما الفرق بين الفدائي والإرهابي؟» وفي زاوية أخرى كتب «لا توجد عدالة إلا في السجون» كتبت عناوين وملاحظات على طول الحائط بأقلام وألوان مختلفة، بهت بعضها ولم يبق إلا أحرفا مبهمة سلبت سجناء الزنزانة من إنسانيتهم.

تمشى بخطوات بطيئة قارئًا كل ما كتب، فيض من ذكريات حزينة خلدت على جدار أزلي عكس وجودية الحياة، خشنة وصلبة، رمادية الطعم والملمس. انتبه لوجود ورقة صفراء انعقفت زواياها لصقت في وسط الحائط، حجمها ضئيل وبرزت نتوءات الحائط من خلالها، وقف أمامه ولم يصدق ما يراه في البداية، كتب بجوارها بخط أزرق «للذكرى جمال» قرأ ما كتب كلمة بعد

الأخرى ونسى للحظة من كتب هذا النعي لشاب صغير اسمه جميل، خطف من بين أيدي والديه بسبب خطأ ارتكبه أخيه ثم صعق ربيع عندما تخيل نفسه يكتب النعي بنفسه قبل مدة بعيدة.

«يا إلهي ماذا يفعل هذا النعي هنا؟» وخطف بصره نحو الخط المكتوب بجوار الورقة «جمال هل كنت هنا؟ في هذه الزنزانة؟ تنعي موت أخيك لوحدك، يا ترى ماذا حصل له؟» تسأل ربيع في وجدانه وتلاعب بزوايا الورقة. تمشى نحو النافذة ووقف بجوار القضبان متأملًا «من الذي سوف يكتب نعيي؟ ومن الذي سوف يسأل عني غير جدتي؟» تضاربت الأسئلة في مخيلته، ولفح الهواء الحار وجنتيه الممزقتين. نظر إلى هضاب الصحراء في الأفق البعيد وبدأ بكتابة نعيه في مخيلته «ربيع فارس، شاب منحوس في الخامسة والعشرين من العمر، حملته الحياة عبء فوق طاقته، فرمى بكل مشاكله على ربه الذي أصغى بصبر جبار، ودوى صمته في وجدان المرحوم حتى ضعف أيمانه، وفقدت الحياة معناها، وأصبحت بيضاء وسوداء خالية من كل الملذات.»

طرقت أنامله الأرض وتخيل نفسه يكتب على آلة الطباعة ودخول وخروج الفَرّاش حاملًا الأقداح بابتسامة تذكره بملح الحياة، وابتل لسانه وهو يتذكر طعام جدته وقصصها الممتعة وابتسامتها التي أزاحت ثقل الدنيا عن كتفيه مساءً. دخلت ذبابة إلى الزنزانة وجلست بجوار البقعة الندية تتلاعب بأيديها فتحركت أصابعه نحو جيبه لا إراديًا يبحث عن علبة الكبريت، ولكنه فوجئ عندما وجد ثقوبا في قماش دشداشته. اقترب من الباب الفولاذي محاولًا اصطيادها لكنها طارت على وقع خطاه وخرجت من النافذة تتبع الضوء المبهر. تابعها متحسرًا وحسد الذبابة على حريتها فالحرية غالية الثمن ولا تفتقد إلا عندما تسلب من صاحبها. تصنت ربيع على أصوات تتدفق عبر الباب وسمع همسات وكلمات فقدت معناها، طرق الباب بهدوء عدة مرات ولم يستجيب أحد.

قرر بان يجرب حظه ويطرق الباب بكل قوته طالبًا النجدة، دوت طرقاته عبر دهاليز السجن وتردد صداها كلما طرق الباب بشدة. سمع أبواب أخرى تطرق بنفس اللحن مشجعين بالاستمرار وهنالك فتحت ثغرة مستطيلة في الباب وصرخ عليه السجان:

- «ماذا تريد؟» صوت غليظ بلا وجه تكلس الظلام فيه.

تلعثم ربيع فلم ير إلا حزاما فولاذيا تتأرجح منه عدة مفاتيح على إيقاع خصره.

- «أنا، أنا بريء!» رد ربيع ولم يصدق ما يخرج من فمه.

ضحك السجان ضحكة خرجت من قاع بطنه وقال بصوت عال:

- «يقول انه بريء يا رجال» وألتف جذعه نحو زنزانات تمتد على مدى البصر.

تردد صراخ خلال الممر دوى كالرعد مناديًا «أنا بريء، أنا بريء» أصوات حزينة ومستسلمة لمصيرها.

وجد ربيع الشجاعة وقال «لقد فزت باليانصيب، أين أرض الأمل التي وعدت بها» سأل بعفوية أقرب للسذاجة.

- «لم أسمع هذا العذر من قبل، اسمعوا يا رجال يقول انه فاز باليانصيب، يريد أن يذهب إلى الجزيرة» قالها بسخرية منتظرًا رد متوقعًا.

تردد الصوت خلال الممر كالببغاء «أنا فزت، أنا فزت أيضًا» ترددت الأصوات على إيقاع واحد.

بقي ربيع صامتًا فلقد وجد نفسه في مكان لا يقيد بالزمن، زنزانة في فضاء مظلم تدور في فلك السجن الذي لا توجد فيه بداية أو نهاية. أغلق السجان الثغرة بعنف، وأمر الجميع بالصمت فعليه بالاسترخاء قبل بداية يوم شاق آخر، وكان صادقًا في توقعه، فبعد برهة جُلب سجين جديد إلى نفس الجناح.

صرخ السجين بأعلى صوته طالبًا النجدة من ربه، ولكنه استقبل بضرب مبرح وشتم في آن واحد. خيم الصمت على الجميع وسمع أنين وآهات السجين عبر الدهاليز المظلمة حتى شرخ نباح الكلب البعيد الصمت إلى نصفين.

فاحت رائحة الرعب، وخرس الجميع مع اقتراب الكلب الذي سُمعت وقع خطواته كالقدر المعلوم وفاحت رائحة أنفاسه الحارة في الدهليز. نبح الكلب على زنزانات مجاورة مشتاقًا لضحاياه بحميمية مألوفة. ارتدَّ ربيع إلى ابعد جدار عن الباب، ولف جسده بالسجادة محتميًا ودبت غريزته الحيوانية مستعدًا للدفاع عن النفس، وهناك سمع صفير السجان ممتزجًا بخشخشة مفاتيحه يجر كرسيًا خلفه.

خدشت أرجل الكرسي الحديدية الأرض الصلبة، وارتعدت أرواح السجناء جميعًا، فترك صرير الكرسي رهبة في قلوبهم الضعيفة، سلم السجان على كلبه وطلب منه الصبر حتى يجد مفتاح الزنزانة. صرخ السجين الجديد بأعلى صوته متوقعًا معجزة، ولكنه يدرك جيدًا في أعماق نفسه انه سوف يصبح ضحية أخرى لهذا الكلب، فالتزم الصمت واستقبل مصيره بابتسامة مالحة. دوى الصراخ لفترة طويلة واستمر الكلب بالنباح والسجان بالضرب فاعتزل ربيع بنفسه، واحنى رأسه بين ذراعيه وأغلق أذنيه بيديه واستخدم السجادة كغطاء فوق الرأس واستسلم للنوم مرة أخرى.

أضاف غروب الشمس هالة حمراء على أرضية الزنزانة، ولمعت القضبان الحديدية ببريق باهر انعكست على جسد ربيع النائم. سمع همسات خارج زنزانته تخيلها في ذهنه في بداية الأمر، ولكنها استمرت عندما استيقظ والزبد متكلس على شفتيه كطبقة ملح على أرض قاحلة. تجاهلها في البداية، ولكنها استمرت كهديل الحمام، جواب بعد كل سؤال فتناسل فضوله على عدد الثواني، وقرر التصنت على ما يجري. مشى على أطراف أصابعه وعض على شفتيه من الألم وجثم بجوار الباب وارتعش جسده عندما التصقت أذنه على

سطح الباب الفولاذي، تدفقت البرودة نحو أطرافه فانعكفت أصابع قدميه وأصغى بانتباه.

- «هل أنت متأكد؟» سأل الرجل الأول.
- «نعم سيدي، انه أحسن اختبار لها» ردد الرجل الثاني.
- «عظيم ومتى نستطيع اختبارها؟»
- «غدًا، صباح الغد ليحظر أكبر عدد من الناس.»
- «أحسنت» رد الرجل الأول.

لم يفقه ربيع بما يحدث حوله، فأقترب من مقبض الباب واختلس نظرة من ثغرة المفتاح وتلاعبت نسمة هواء باردة حول رموشه ورأى خصرين لرجلين يتحدثان أمامه، ارتدى الرجل الأولى ملابس ملكية بيضاء مع سترة بنية ووقف زميله مرتديًا ملابس مدنية. علم من استقامة الرجل الأول بأنه الملك سرجون بنفسه وبجانبه مستشاره الذي نسى صوته وتابع المنظر باهتمام.

- «هل هنالك تطور بالبحث عما طلبته منك؟» سأله الملك بسرية.
- «لقد بحث الفريق في سجلات المستشفى بسرية تامة ولم يعثروا على أي فتاة بهذه المواصفات. والآن يبحثون في ملاجئ الأيتام ومن تعامل معها في ذلك الوقت. عفوًا سيدي، ولكن المهمة صعبة واحتاج إلى المزيد من الوقت.»

غمغم الملك وضرب الأرض بقدمه وقال «اللعنة ربما كانت صادقة عندما غيرت اعترافها.»

- «ما سمعته من الفريق أن لا أحد يحتفظ بسجلات قديمة خاصة في دور الأيتام فالأطفال يأتون ويذهبون بطريقة دائمة.»
- «صحيح، سوف اترك الأمر لك، هيا دعنا نذهب أريد أخبار امنية بما سوف يحصل غدًا.»

تسمر ربيع في مكانه مصغيا لكل كلمة تنطق، وحلقت روحه كطائرة ورقية عندما سمع اسم امنية ينطق ويتردد بين الجدران الرمادية. فكر بأن

ينادي على المستشار فلربما يستطيع إخراجه من هذا المأزق، ولكنه قرر الرجوع إلى زاويته وجثم هناك لمدة طويلة متأملًا حياته متسائلا كيف ولماذا؟ هل من المعقول انه قد أصبح صفرا على اليسار في نهاية المطاف. ولكن خوفه على جدته كان أكبر من قلقه على نفسه، فلقد فقد شهوة الانتقام واندثرت عواطفه الربيعية نحو العائلة الملكية مع عواصف الخريف وبرد الشتاء.

لم تختلف تلك الليلة عن بقاياها، فزاره الجرذ واكل ما تبقى من فتات الخبز، ونام ربيع محملًا بكوابيس المستقبل خائفًا على جدته وما سوف يحصل له. أصبحت الزنزانة كمكعب من جليد كل جدار فيها باردًا فاصطكت أسنانه واحتضن نفسه باكيًا. هكذا قضى السجناء لياليهم يتنصتون إلى صوت الناي الذي يرفرف على هضاب الصحراء وعواء الذئاب الذي يدخل الرهبة كرمح في قلوبهم. فبكى كل من بقي لديه من مشاعر طافت على سطح قلبه، أما البقية فدعوا إلى ربهم الصامت لينقذهم من مصيرهم المحتوم.

استيقظ ربيع على صرير باب الزنزانة يفتح من الخارج واستند على الحائط مستعدًا، بقت خشخشة المفاتيح تدوم في الممر وتلاه صمت قاطع. تنصت بكل حواسه منتظرًا نباح الكلب، ولكن عندما فتح الباب ببطء وقف السجان وحيدًا.

- «هيا انهض، لقد حان وقتك» دوى صوته على الجدران الصامتة.
- «اخلع ملابسك وأغسل جسدك جيدًا» رمى السجان دلوا من الماء فيه صابونة وأكمل «ثم ارتدي هذه الملابس» وأعطاه حزمة من الملابس الرمادية، قميصا وبنطلون أكبر من حجمه بقياسين.

غسل ربيع رأسه وجسده كاملًا وتدفقت نشوة الماء العذب في جسده، وتساءل إن حان وقت الرحيل لأرض الأمل. رجع السجان وأخرجه من الزنزانة بلطف واتجها نحو مخرج السجن، خيم صمت ثقيل في دهاليز السجن مما ضاعف من فضوله وعندما سأل السجان بما يحصل، إجابه «سوف تعلم لاحقًا». وقف شرطيان خارج السجن ينتظرانه، وكانا يتبادلان الفكاهات

وضحك كل منهما من كل قلبه. استلما ربيع بابتسامة وقال أحدهما «لا تخف سوف نذهب بزيارة سريعة إلى الملعب.»

غشى بصره عند خروجه من السجن، فحلقت الشمس في كبد السماء، وتمشى بين الشرطيين نحو الملعب الذي ظهرت بناياته من بعيد. تفادى الكلام مع الشرطة واشتاق إلى معالم المدينة التي افتقدها في السجن، زحفت رياح باردة في شوارع خالية من كل الكائنات، ولسعت وجنتيه، فأخفى يديه في جيبي سرواله باحثًا عن دفء مألوف. تحسر على فقدانه لعلبة الكبريت، وتساءل عن حال العنكبوت بدون المعونات الغذائية وهناك انجذب بصره إلى شعارات كتبت على الجدران «يمكنك أن تدعس الورود لكنك لا تستطيع أن تؤخر الربيع». لمح أول شعار مكتوب على لافتة ملكية بالخط الأحمر «هل من الممكن نجاح العملية؟ ماذا حدث للانقلاب؟» تضاربت الأسئلة كالسيوف في وجدانه وأشعلت تلك الشرارة الضئيلة نارا عظيمة في قلبه.

رأى لافتة أخرى بنفس المعنى على عمارات قريبة من الملعب وتم إزالة بعض اللافتات الملكية للصيانة، حدق الشرطيان به بطريقة غامضة عندما وصلوا إلى الملعب. علم ربيع جيدًا في لحظة وصوله إلى بوابة الملعب انه لن ير جدته مرة أخرى، فلقد تبلور كل شيء أمامه، وأصبح الخيال حقيقة مجردة من المشاعر الإنسانية فلقد قامر وخسر الرهان مع الحياة.

أمره الشرطيان بارتداء لافتة تُعلم الجميع بأنه خائن ومجرم، لبسها ربيع بلا مبالاة ودخل الملعب من بوابة كبيرة تطل على منصة ودقت المكبرات الصوتية في الأفق البعيد. انتبه إلى صمت الجمهور الحاضر الذي وقف احترامًا وغطى بعضهم على بصر أطفالهم، تحرك ببطء بسبب ثقل اللافتة التي غطت بشرته ووحمته المشوهة. وقفت امنية بجوار حبلين للإعدام وبجانبها راشد والملك بنفسه، ترنحت جثة من حبل المشنقة الأول مع نسمات الهواء القارصة، تفادى ربيع النظر إليها وصعد السلم المؤدي إلى المنصة. كل درجة

أثقل من الأخرى وتنفس الصعداء عندما رأى العائلة الملكية بانتظاره. «امنية هل تتذكريني؟» قالها في خلده وصمت مترنحًا من ثقل اللافتة.

رفعت امنية سيفها نحو السماء عاليًا، ولمعت شفرته القاطعة، وقرأت كل العقوبات المفروضة وقرار المحكمة بالحكم عليه بالإعدام. هز الملك رأسه موافقًا وكتب راشد في دفتره الضئيل، أخذ الشرطيان اللافتة وتركا ربيع واقفًا منتظرًا أجله. رنت أذنه اليسرى احتجاجًا، واختلس نظرة نحو الجسد المشنوق وعلم انه جسد غازي بدون عصبة العين يحدق نحو المجهول. أمره الشرطيان بالوقوف بجانب منصة الإعدام، ولف أحدهما الحبل كراية بيضاء حول عنقه النحيلة. حدق نحو السماء من خلال حلقة الحبل ووجد الشمس تبهر عينيه بكل قوة، واستمرت امنية بقراءة العقوبات واحدة تلو الأخرى.

طارت ذبابة وجلست على جفن عينه المغلقة ونظرت إلى الجميع باستغراب وهناك تذكر ربيع صديقه الحصان الذي زاره يوميًا وقال في خلده «تعبت، أن الحياة مهزلة وليست مجزرة». رفع نظره نحو الجمهور، ورأى شخصا يلوح إليه فحدق ببرود ورأى طلال يومئ إليه بأن جدته بخير. ابتسم في البداية ثم تحولت الابتسامة إلى ضحكة عفوية فلقد تحولت احشاؤه إلى زجاج موشور تمر كل صعوبات الحياة من خلاله كضوء قاطع فيعكسها كقوس قزح على ذاته، ولم يبق في جسده إلا الحب أمام كل هذا القبح. لوحت امنية بسيفها إلى الأسفل. بقت الذبابة تقاوم تموجات الجسد حتى خيم السكون عليه بعد برهة، ثم حلقت إلى الأفق تبحث عن فريسة جديدة.

◆◆◆

رواية ٢٠٢١

عندما تغيب الشمس شرقًا

تموز سعدوني

9 781784 812164 >

DAR ALHIKMA
Publishing and Distribution

دار الحكمة
للنشر والتوزيع

88 Chalton Street, London NW1 1HJ
Tel.: +44 (0) 20 7383 4037
E-Mail: hikma_uk@yahoo.co.uk
Website: www.hikma.co.uk

عندما تغيب الشمس شرقًا

تموز سعدوني

رواية
٢٠٢١



تموز سعدوني مهندس وروائي من مواليد بغداد. انتقل للعيش في نيوزلندا منذ طفولته. درس الهندسة الكهربائية في جامعة أوكلاند حيث يقيم هو وزوجته وطفلاه. صدرت روايته الأولى (موزاييك) عام ٢٠١٨.

طارت بومة في السماء، وشقت الليل بجسدها الأبيض وحفيف أجنحتها واستقرت على غصن شجرة طويلة بجانب منزل سقفه أخضر. حركت رأسها من جانب لآخر، ولم ترمش عيناها الثاقبتان على الأطلاق. عينان بلون صفار البيض يتوسطهما بؤبؤان بلون القهوة. احتوت جسدها اللحمي بجناحيها كمعطف من ريش، واخترق نعابها سكون الليل البارد. يشي تحدب منقارها بشؤم قادم في هذه الليلة، فحتى القمر الوحيد وجد لنفسه غيمة ليغريها إلى صدره وقبلها خلسة. أنصتت البومة إلى دبيب الأرض، ولفّت رأسها بحدة حين سمعت الأعشاب وهي تُهرس تحت أقدام ثقيلة، وعندها رأت مجموعة يُشتبه أنها تابعة للقصر الملكي تتجه نحو بيت أضيئت نوافذه بإنارة داخلية. اختبأوا بين الأحراش، واستخدموا الظلام لمصلحتهم فتدثرت أجسادهم بعباءة الليل. غُرست أقدامهم بالتراب وامتزجت رائحة الأرض برائحة النباتات المهشمة التي اعتاد الجميع عليها بعد برهة. وقف بعضهم بجوار أشجار مجاورة للبيت مراقبين ما يحدث في الداخل، وجثم ما تبقى منهم على الأرض منتظرين إشارة للهجوم. أرتدى كل عنصر منهم ملابس سوداء من الرأس إلى أخمص القدمين وأضاف القناع رهبة لهيبتهم. اندمجت أجسادهم بظلال الأشجار وأصبحت أطرافهم أغصانا تحمل ثمار الأذى والشر.

دار الحكمة
لندن

DAR ALHIKMA
Publishing and Distribution

88 Chalton Street
London NW1 1HJ, UK
Tel: 44 (0) 20 7383 4037
Email: hikma_uk@yahoo.co.uk
Website: www.hikma.co.uk

9 781784 812164

لمتابعة إصداراتنا تواصل على موقعنا الإلكتروني - دار الحكمة لندن